بصمة الإبهام الحمراء

آر أوستن فريمان

ترجمة عبد الفتاح عبد الله

بصمة الإبهام الحمراء

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

بصمة الإبهام الحمراء

آر أوستن فريمان

The Red Thumb Mark

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٠ ٣٧٩٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

تمهيد	٧
١- أخي العزيز	٩
٢- المُشتبَه به	١٥
٣- فَتِّش عن المرأة	٢٥
٤- أسرار	٣٩
٥- سجل بصمات الإبهام	٥١
٦- الإحالة للمحاكمة	٦١
٧- مياه ضحلة ورمال متحركة	٧١
٨- واقعة مُريبة	٧٩
٩- السجين	٨٥
١٠- بولتون في حيرة شديدة	٩٣
١١- الفخ	١٠٣
١٢- فرصة ضائعة	١١٧
١٣- اغتيال عن طريق البريد	١٢٥
١٤- اكتشاف مذهل	١٣٧
١٥- خبراء البصمات	١٤٧
١٦- ثورندايك يقلب الطاولة	١٧٣
١٧- نهاية المطاف	١٩٧

تمهيد

أثناء كتابة هذه القصة، لم يكن أمام الكاتب أيُّ غايةٍ سوى أن يُقدِّم التسليةَ للقرَّاء المُهتمين بالجرائم وحلولِها؛ والقصةُ نفسها لا تختلف في أي شيءٍ عن الأُخريات من فئتها، عدا الجهد المبذول لجعلها ضِمن حدود الأمور المُحتمَل وقوعُها في الحياة اليومية، وذلك على مستوى الشخصيات وكذلك على مستوى الأحداث.

رغم هذا، قد يُحقِّق الكتاب غرضًا مفيدًا يتمثَّل في توجيه الانتباه إلى بعض المفاهيم الخاطئة الشائعة عن موضوع بصمات الأصابع وقيمتها في الأدلَّة؛ مفاهيم خاطئة يمكن أن نعرف مداها حين نعلَم مِن الصحف أن عدة شركات قارِّية استبدلت حقًّا بصمات الأصابع بالأحرف الأولى المُستخدمة في التوقيع.

الوقائع والأرقام التي تحتويها إفادة السيد سينجلتون — بما في ذلك التقدير السخيِّ لعدد سُكان العالم — هي بالطبع مأخوذة من العمل العظيم والمُهم للسيد جالتون عن موضوع البصمات؛ والذي يُحال إليه القارئ المُهتم بهذا الموضوع للحصول على الكثير من المعلومات المُثيرة للفضول، والقَيِّمة.

وفي الختام، يرغب المؤلِّف في التعبير عن شُكره لصديقه السيد برنارد إي بيشوب، للمساعدة التي قدَّمها له في تجارب فوتوغرافية مُعينة، ولأولئك الضبَّاط من المحكمة الجنائية المركزية، الذين تكرَّموا وأمدُّوه بتفاصيل الإجراءات في المحاكمات الجنائية.

الفصل الأول

أخي العزيز

«أُحرِقَ في عام ١٦٧٧. وأُعيد بناؤه في عام ١٦٩٨. على يد الخازن المُحترم ريكاردو باول.» كانت هذه الكلمات المصفوفة باللاتينية في أربعة ألواح، والتي شكَّلت إفريزًا أسفل جَمَلُون رواق من الطوب الناعم، تُلَخِّص تاريخ أحد المنازل السامقة في الطرف الشمالي من شارع كينجز بينتش ووك، وبينما كنتُ أقرأ النقش بذِهن شارد، كان انتباهي منقسمًا بين الإعجاب بالطوب المنحوت الرائع والوقار الهادئ للمبنى، ومحاولة تخيُّل ريتشارد باول الذي رحل عن دُنيانا منذ زمنٍ بعيد، والأوقات المُضطربة التي لعب فيها دوره.

وكنت على وشك أن ألتفِت مُبتعدًا حين شغل شخص، كان يرتدي شعرًا مستعارًا ورداء محاماة قديمًا، الإطار الفارغ للرواق، فكان مظهره ملائمًا للمحيط العتيق، حتى إنه بدا وكأنه يُكمل الصورة، فتريَّثتُ أنظر إليه. كان المحامي قد توقَّف في مدخل الباب ليُقَلِّب في مجموعةٍ من الأوراق التي كان مُمسكًا بها في يده، وبينما أعاد الشريط الأحمر الذي يربطها معًا، رفع الرجل بصرَه فالْتقى ناظرانا. وللحظةٍ وقفنا ينظر أحدُنا إلى الآخر نظرة عدم الاكتراث تلك التي يُلقيها بعض الغرباء العابرين على بعض؛ ثم مرَّت لحظة عابرة تعرَّف فيها أحدُنا على الآخر؛ فلانَتْ ملامح المحامي الجامدة والصارمة وتحوَّلت إلى ابتسامةٍ لطيفة، ونزل على الدرَج فانفصل عن الإطار الذي كان يشغله، ومدَّ يدَه في تحيَّةٍ ودِّية.

وصاح يقول، ونحن نتصافح بحرارة: «عزيزي جيرفيس، هذه مفاجأة عظيمة وسارَّة. لقد فكَّرتُ كثيرًا في زميلي العزيز وتساءلت إن كنتُ سألتقيه مرةً أخرى، ويا لَلْعَجَب، ها أنت ذا أمامي، ألقاك على قارعة إنر تيمبل كقطعةِ الخبز التي ضُرِبَ بها المثَل في الكتاب المُقدَّس في آية «ارْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ».»

فأجبته: «اندهاشُك يا ثورندايك لا يُضاهي دهشتي؛ فعلى الأقل قطعة خبزك قد عادت كما هي؛ بينما أنا كَمَنْ ألقى بقطعة الخبز ويراها تعود في هيئة كعكةٍ مدهونة بالزبدة أو محلَّاة بالسكَّر. لقد تركتُك ممارسًا طبيًّا موقَّرًا وأعود لأجدك قد تحوَّلتَ إلى رجل قانون يرتدي الشعر المُستعار ورداء المحاماة.»

ضحك ثورندايك من هذه المقارنة.

وقال: «لا تُشبِّه صديقك بكعكة السكر. بل قل إنك تركته شرنقةً وعدت لتجده قد أصبح فراشة. لكن التغيير ليس كبيرًا كما تظن. فليس تحت رداء المُشَرِّع سولون إلا أبقراط، كما سيتبيَّن لك حين أشرح لك ما مررتُ به من تحوُّل؛ وإني لفاعل ذلك مساءَ اليوم، إن لم يكن لديك أي ارتباطات.»

فقلت: «أنا من العاطِلين عن العمل في الوقت الراهن، وفي خدمتك.»

فقال ثورندايك: «تعالَ إذن إلى بيتي ومقر عملي في السابعة مساءً، وسنتناول معًا قليلًا من الطعام وقليلًا من النبيذ الأحمر، ونتبادل ما حلَّ بكلٍّ منَّا. ينبغي أن أكون موجودًا بالمحكمة في غضون دقائق قليلة.»

فسألته: «أتسكن في ذلك الرواق الأرستقراطي العتيق؟»

أجابني ثورندايك: «كلَّا. كثيرًا ما أتمنَّى لو كنت أسكن فيه. فشعور المرء بأن مدخل مسكنه مُزيَّن بنقوشٍ لاتينية تجذب إعجاب الغرباء فيتأمَّلونها هو شعور من شأنه أن يزيده شموخًا. كلَّا؛ مقر بيتي وعملي يبعُد عن هنا بضعةَ منازل؛ رقمه ٦إيه»، والتفت ليُشير إلى المنزل بينما اجتزْنا الطريق نحو منطقة كراون أوفيس رو التي تشتهر بأنها تضمُّ مكاتب المحاماة.

وعند بداية ميدل تيمبل لين افترقنا، فاتخذ ثورندايك سبيله تجاه دار القضاء ورداؤه يُرفرف، في حين توجَّهت أنا غربًا نحو شارع آدم، وهو المكان المُفضَّل لممارسي الطب.

وكان جرس ساعة منطقة تيمبل ذو الصوت الناعم يُعلِن عن حلول السابعة بدقَّات مكتومة (وكأنه يعتذِر عن كسرِه للصمت الجاد)، بينما خرجت أنا من مجاز ميتري كورت المُقنطر وانعطفتُ إلى كينجز بينتش ووك.

وكان المسار المرصوف فارغًا عدا من شخصٍ واحد، يسير ببطءٍ أمام مدخل المنزل رقم ٦إيه، ورغم أن قبعةً من اللباد حلَّت محل الشعر المُستعار وحلَّت سترةٌ محل رداء المحاماة، لم يصعب عليَّ أن أتعرَّف إلى صديقي.

فقال وهو يُلاقيني في منتصف المسافة: «أنت منضبط في مواعيدك بالدقيقة، كعادتك. ويا لها من فضيلة ميمونة، حتى في الأمور البسيطة! كنت أتنزَّه قليلًا في فاونتن كورت، وسأُعرِّفك الآن بمسكني ومقر عملي. ها هو ملاذي المتواضِع.»

مررْنا بالمدخل المشترك وصعدنا الدرَج الحجري إلى الطابق الأول، حيث قابلنا بابًا ضخمًا كُتِب فوقه اسم صديقي بحروفٍ بيضاء.

فعلَّق ثورندايك وهو يضع مفتاح الباب الخارجي: «المظهر الخارجي مُنَفِّر إلى حدٍّ ما، لكن المكان بالداخل بسيط ومريح بما يكفي.»

انفتح الباب الثقيل نحو الخارج فظهر باب داخلي مُغطًّى بالقماش، وفتحَه ثورندايك وأمسك به مفتوحًا ليسمح لي بالمرور.

وقال: «ستجد مقرَّ عملي خليطًا غريبًا؛ لأنه يجمع ما بين مكتبٍ ومُتحفٍ ومعملٍ وورشة.»

أضاف رجل مُسن ضئيل الجسم، كان يُفرغ زجاجةً من النبيذ الأحمر بأنبوب زجاجي: «ومطعم. لقد نسيتَ هذا يا سيدي.»

فقال ثورندايك: «أجل، نسيتُ هذا يا بولتون، لكنني أرى أنك لم تنسَ.» ثم نظر إلى طاولة صغيرة وُضِعَت إلى جوار المدفأة وجُهِّزَت بلوازم وجبتنا التي سنتناولها.

قال ثورندايك ونحن نهجم هجمتنا الأولى على ما أنتجَه بولتون من تجاربه في الطهي: «أخبِرني، ماذا حدث معك منذ غادرتَ المستشفى قبل ستِّ سنوات؟»

فأجبتُه ببعض المرارة: «قصتي بسيطة. وهي ليست غير مألوفة. فقد نفدت أموالي، كما تعلَم، على نحوٍ غير متوقع. فبعدما كنتُ قد دفعت مصاريف الفحص والتسجيل كان الصندوق فارغًا تمامًا، ورغم أن الدبلومة الطبية بلا شكٍّ تشمل — على حدِّ تعبير جونسون — إمكانية الثراء التي تفوق أحلام أكثر الناس جشعًا، فإن هناك في الحقيقة اختلافًا شاسعًا بين ما هو مُمكن والواقع الفعلي. كنتُ، في الحقيقة، أحصل على ما يسدُّ رمقي عن طريق العمل مساعدًا في بعض الأحيان وطبيبًا مؤقتًا في أحيان أخرى. لكنني الآن لا أملك عملًا، ومن ثمَّ سجلتُ اسمي على قائمة تورسيفال للباحثين عن عمل.»

مطَّ ثورندايك شفتَه وقطَّب جبينه.

ثم قال: «مِن العار يا جيرفيس أن يُضيِّع رجل بإمكاناتك ومؤهلاتك العلمية وقتَه في أعمالٍ عرضية وغير دائمة مثل السفهاء الذين لا يكادون يملكون أي مؤهلات.»

فوافقتُه قائلًا: «هذا صحيح. إن هذا الجيل المتصلِّب والبليد يبخس قيمة مؤهلاتي ومزاياي بشدة. لكن ماذا أفعلُ يا أخي العزيز؟ إذا كان الفقر يقف في طريقك ويحجب فضائلك النيِّرة، فإن مآل ذكائك إلى الحَجْب.»

غمغم ثورندايك: «أجل، هذه هي الحال حقًّا»، وظلَّ غارقًا في التفكير للحظة.

فقلت: «والآن، دعني أسمع تفسيرك الموعود. فأنا مُتلهِّف بشدة لمعرفة سلسلة الظروف التي حوَّلت جون إيفلين ثورندايك من طبيبٍ إلى أحد نجوم القانون.»

فابتسم ثورندايك برحابة صدر.

وقال: «حقيقة الأمر أن هذا التحوُّل لم يحدث. فجون إيفلين ثورندايك لا يزال طبيبًا ممارسًا.»

فصحت: «ماذا؟! وتضع شعرًا مُستعارًا ورداء مُحامِين؟!»

فأجابني: «أجل، مجرد حَمَل في ثياب ذئب. سأُخبرك كيف وقع هذا الأمر. بعد أن غادرتَ المُستشفى قبل ستِّ سنوات، بقيتُ أنا هناك، وتولَّيت الوظائف الصغيرة التي كانت متاحةً — مساعد مدرس، ومشرفًا ونحو ذلك — وكنتُ أقضي الوقت بين المعامل الكيميائية والفيزيائية والمتحف وغرفة التشريح، وفي تلك الأثناء حصلتُ على شهادة الدكتوراه في الطب والعلوم. ثم انضممتُ إلى نقابة المحامين أمَلًا في حصولي على وظيفة طبيب شرعي، لكن بُعَيد هذا تقاعد ستيدمان المُسنُّ على غير المُتوقَّع — أنت تذكر ستيدمان، مُحاضِر الطب الشرعي — فتقدَّمت للوظيفة الشاغرة. وما أدهشني أنني عُيِّنت محاضرًا، وعندئذٍ صرفتُ عن بالي أمر الطب الشرعي وسكنتُ في مقرِّي هذا وجلست أنتظر أي شيءٍ يأتي في طريقي.»

فسألته: «وما الذي حدث؟»

فأجابني: «تشكيلة غريبة من الأنشطة المِهنية المتنوعة. في البداية لم أحصل إلا على تحليلٍ عرضي في حالة تسمُّم مثيرة للشكوك، لكن شيئًا فشيئًا، اتسع نطاق نفوذي حتى أصبح يشمل الآن كل الحالات التي يمكن فيها الاستعانة بمعرفةٍ خاصة بالطب والعلوم الفيزيائية لتطبيق القانون.»

فقلت: «لكنك تترافع في المحكمة، كما أرى.»

فأجابني: «هذا نادر جدًّا. فعادةً ما أظهَر بشخصية «البعبع» التي تُخيف القضاة والمُستشارين القانونيين؛ الشاهد العلمي. لكن في معظم الأحيان لا أظهر على الإطلاق؛ أُوجِّه التحقيقات فحسب، وأُرتِّب النتائج وأُحلِّلها، وأُمهِّد للمستشارين القانونيين الحقائق والمقترحات لاستجواب الشهود.»

فقلتُ بنبرة تنطوي على بعض الحسد: «هذا أكثر إثارةً بكثير من العمل بديلًا مؤقتًا لمُمارسٍ عام. لكنك تستحقُّ النجاح؛ فقد كنتَ دومًا مُجدًّا في العمل، ناهيك عمَّا تتمتَّع به من قدرات.»

أجاب ثورندايك: «أجل، لقد عملتُ بجد، وما زلتُ أفعل؛ لكنني أفصل بين ساعات العمل وساعات الراحة، على عكس أولئك المُمارسين العامِّين المساكين، الذين هم أكثر عرضةً لاستدعائهم وهم على طاولات العشاء أو لإيقاظهم من نومهم — اللعنة! من عساه يكون؟»

وذلك لأنه في تلك اللحظة، وكنوع من التعليق على إطرائه لنفسه، أتى صوت طرقٍ عنيف على الباب الخارجي.

فأكمل هو يقول: «أظن أنه يتعين عليَّ أن أذهب لأرى من يكون الطارق، وإن كنتُ أتوقَّع من الناس أن يتقبَّلوا فكرة الرغبة في الخصوصية واحترام الحدود الشخصية.»

ثم اجتاز الغرفةَ وفتح الباب بعنفٍ وبمُحيَّا لا يوحي أبدًا بالترحاب.

وجاء من الخارج صوتٌ بدا الاعتذار في نبرته: «الوقت متأخر بعض الشيء على زيارة هدفها العمل، لكن عميلي حريص على لقائك دون أي تأخير.»

فقال ثورندايك بتصلُّب: «تفضَّل بالدخول يا سيد لولي»، وأمسك بالباب مفتوحًا ليدخل الزائران. كان الزائران رجُلَين، أحدهما كهل ومظهره ينمُّ عن المكر وهيئته تُشير إلى أنه يشتغل بالقانون، والآخر شابٌّ وسيم ولطيف ذو مظهر جذاب، وإن كان في الوقت الراهن شاحبًا ومضطربًا، ولا شكَّ في أنه كان في حالة من الانفعال الشديد.

وقال الشاب، وهو يرمقني والطاولة بنظرةٍ خاطفة: «أخشى أن زيارتنا — التي لا يتحمَّل سواي مسئوليتها — في وقتٍ غير مناسبٍ تمامًا. إن كنَّا نُسبِّب لك أي مضايقة، يا دكتور ثورندايك، أرجوك أخبرنا ويمكن إرجاء ما أريدُه.»

كان ثورندايك قد ألقى نظرةً ثاقبةً ومُستطلِعةً على الشاب، فأجابه الآن بنبرة أكثر ودًّا بكثير:

«أرى أن ما تريده لا يمكن إرجاؤه، أما بشأن مضايقتنا، فأنا وصديقي طبيبان، وكما تعلم، الأطباء لا يتوقَّعون أن يكون وقتُهم ملكًا لهم، وهذا ينطبق على أي ساعةٍ من اليوم.»

وكنتُ قد نهضتُ لدى دخول الزائرَين، وعرضتُ أن أخرج في نزهةٍ في منطقة إمبانكمنت، ثم أعود لاحقًا، لكنَّ الشاب قاطعني.

وقال: «أرجوك، لا تذهب بسببي. إن ما سأقوله للدكتور ثورندايك سيعرفه العالم أجمع بحلول هذا الوقت من يوم غد؛ لذا لا أرى سببًا للسرِّية.»

فقال ثورندايك: «في تلك الحال، لنسحب الكراسي نحو المدفأة وننخرِط على الفور في التركيز على المسألة التي بين أيدينا. لقد انتهينا من طعامنا الآنَ وكنَّا بانتظار القهوة، وها أنا أسمع خادمي يُحضرها.»

من ثَمَّ سحبنا كراسينا، وبعدما وضع بولتون القهوة على الطاولة وغادر، دخل المحامي في الموضوع من دون مقدمات.

الفصل الثاني

المُشتبَه به

قال المحامي: «من الأفضل أن أعطيك لمحةً عامةً عن القضية كما تراها العقلية القانونية، ثم بإمكان مُوكلي السيد روبين هورنبي أن يُمدَّك بالتفاصيل إن لزم الأمر، وأن يُجيب على أي تساؤلٍ لدَيك ترغب في طرحه عليه.»

وتابع قائلًا: «يشغل السيد روبين منصبًا يقوم على الثقة، في شركة عمِّه جون هورنبي، المُتخصِّصة في تنقية الذهب والفضة وتجارة المعادن الثمينة بصفةٍ عامة. وثمة مقدار مُعيَّن من أعمال الرزن والتحليل الخارجية التي تجري في الشركة، لكن العمل الرئيسي يتألف من اختبار وتنقية عينات من الذهب والتي تُرسَل من مناجم معروفة في جنوب أفريقيا.

وقبل نحو خمس سنوات، ترك السيد روبين وابن عمه والتر — وهو ابن أخٍ آخر للسيد جون هورنبي — الدراسة وأبرما اتفاقًا قانونيًا للعمل لدى عمِّهما حيث سيحصلان على تدريبٍ أثناء العمل، وكانت غايتهما من ذلك أن يُصبحا شريكَين له في الشركة؛ وقد ظلَّا معه منذ ذلك الحين، حيث يشغلان، كما ذكرتُ، منصبَين ينطوِيان على قدْر كبير من المسئولية.

والآن سأقول شيئًا عن الطريقة التي تجري بها الأعمال في شركة السيد هورنبي. تُسَلَّم عينات الذهب في الميناء لُمثلٍ مفوَّضٍ من الشركة — عادةً ما يكون هذا المُمثِّل إما السيد روبين أو السيد والتر — والذي يُسلِّم بدورِه العينات إما إلى البنك وإما إلى المَشغَل وذلك حسب الظروف. بالطبع تُبذَل كل الجهود من أجل ألَّا يُترَك أي ذهب في الشركة، ودائمًا ما تُصرَف سبائك الذهب إلى البنك في أقربِ فرصةٍ مُمكنة؛ لكن لا مفرَّ أحيانًا من أن تظلَّ بعض العينات ذات القيمة الكبيرة في الشركة طوال الليل، ولهذا زُوِّدَ المشغل بخزينةٍ كبيرة وقوية أو قُل هي حُجيرة محصَّنة لاستقبال هذه العينات. تقع هذه الخزينة

داخل المكتب الخاص تحت رقابة المسئول الأول، وكإجراءٍ احترازي إضافي، يشغل المُشرف الذي يضطلِع بعمل الحارس الليلي غرفةً تقع فوق المكتب مباشرة، ويطوف بالمبنى بين الحين والآخر أثناء الليل.

لقد وقع خطب غريب جدًّا فيما يتعلَّق بهذه الخزينة. يتصادف أنَّ أحد عملاء السيد هورنبي في جنوب أفريقيا مُهتم بأحد مناجم الألماس، ورغم أن التعامُل في الأحجار الثمينة لا يُشَكِّل أي جزءٍ من عمل الشركة، فقد كان يرسِل بين الحين والآخر طرودًا من الألماس الخام موجَّهةً إلى السيد هورنبي، إما لإيداعها في البنك وإما لتسليمها إلى سماسرة الألماس.

وقبل أسبوعَين نما إلى عِلم السيد هورنبي أن طردًا من الأحجار الكريمة قد أُرسِل على متن سفينة «إلينا كاسل»، وتبيَّن أن الطرد كبير بصورة غير عادية، فكان يحتوي على أحجارٍ بأحجامٍ وقِيَم مادية استثنائية. وفي ظلِّ هذه الظروف أُرسِل السيد روبين إلى الميناء في ساعة مُبكرة أملًا في أن تصِل السفينة في الوقت المناسب من أجل إيداع الأحجار في البنك على الفور. لكن لسوء الحظ لم تجرِ الأمور على هذا النحو، فتعيَّن أن يُؤخَذ الألماس إلى المَشغَل وأن يُحتفَظ به في الخزينة.»

سأله ثورندايك: «من الذي وضعه في الخزينة؟»

«السيد هورنبي بنفسه، والذي كان السيد روبين قد سلَّمه الطرد لدى عودته من الميناء.»

فقال ثورندايك: «حسنًا، وماذا حدث بعد ذلك؟»

«في الصباح التالي، حين فُتِحَت الخزينة، كان الألماس قد اختفى.»

سأل ثورندايك: «هل وقع اقتحام للمكان؟»

«كلَّا. كان المكان موصدًا كالمعتاد، والمشرِف الذي كان قد أجرى جولاته المعهودة لم يسمع شيئًا، وكان شكل الخزينة على حاله دون تغيير. لا شكَّ في أنها فُتِحَت بمفتاحٍ وأُغلِقَت مرةً أخرى بعد أن أُخِذَت الأحجار الكريمة.»

سأل ثورندايك: «ومَن الذي كان بحوزته مفاتيح الخزينة؟»

«عادةً ما يحتفظ السيد هورنبي بالمفاتيح معه، لكن في بعض الأحيان، حينما كان يغيب عن الشركة، كان يُسلِّمها إلى أحد ابنَي أخوَيه؛ أيهما كان المسئول في ذلك الوقت. لكن هذه المرة، لم تخرج المفاتيح من حوزته منذ أوصد الخزينة بعد أن وضع فيها الألماس إلى أن فتحها مرةً أخرى في الصباح التالي.»

سأل ثورندايك: «وهل حدث أي شيءٍ كان من شأنه أن يُلقي بظلال الشكِّ على أحدٍ ما؟»

قال السيد لولي وقد رمق موكله بنظرةٍ تنمُّ عن الانزعاج: «أجل، لسوء الحظ حدث شيءٌ ما. كان يبدو أن الشخص الذي جرَّد الخزينة من الألماس قد جرح إبهامه أو أصابه بخدشٍ بطريقةٍ ما؛ فقد كانت هناك نقطتان من الدم في أرضية الخزينة ولطخة أو نحو ذلك من الدم على ورقة، إضافةً إلى بصمةٍ واضحةٍ للغاية لإصبع إبهام.»

تساءل ثورندايك: «هذه البصمة بالدم أيضًا؟»

«نعم. من الواضح أن الإبهام كان قد وُضِعَ على إحدى نقط الدم، ثُمَّ وبينما كان لا يزال مبلَّلًا بالدم، ضُغِطَ به على الورقة أثناء الإمساك بها أو ما شابه.»

«حسنًا، وماذا حدث بعد ذلك؟»

فقال المحامي وهو يتململ في كرسيه: «في الواقع، ولكي أختصر قصةً طويلة، تم التعرُّف إلى البصمة وتحديد أنها بصمة السيد روبين هورنبي.»

فصاح ثورندايك: «ها! الحبكة تزداد تعقيدًا إلى أقصى حد. من الأفضل أن أُدوِّن بضع ملاحظات قبل أن تأتي بالمزيد.»

أخرج ثورندايك من أحد الأدراج مُفكِّرةً صغيرة بغلافٍ ورقي، وكتب على الغلاف الورقي اسم «روبين هورنبي»، ثم بعد أن فتح المُفكرة ووضعها على لوحٍ لامتصاص الحبر كان قد وضعه على رُكبته، دوَّن بضع ملاحظات مقتضبة.

وقال، بعدما انتهى: «والآن، لنعُد إلى تلك البصمة. أظن أنه لا يوجَد شك بشأن تطابقها، أليس كذلك؟»

فأجابه السيد لولي: «لا يوجَد شك على الإطلاق. فقد استحوذ الضباط في سكوتلانديارد، بالطبع، على الورقة، التي سُلِّمَت إلى مدير قسم البصمات من أجل فحصِها ومقارنتها بمجموعة البصمات التي لدَيهم. يقول تقرير الخبراء إن البصمة لا تتوافق مع أيٍّ من بصمات المُجرمِين التي بحوزتهم؛ وإنها مميَّزة جدًّا؛ لأن هناك جرحًا عميقًا يتقاطع مع نمَط النتوءات على انتفاخ الإبهام — الذي يُمثِّل نمطًا مُميزًا بوضوح — الأمر الذي يجعل تحديد صاحب البصمة أمرًا سهلًا ولا خطأ فيه؛ كما يقول التقرير إن البصمة تتوافَق من جميع النواحي مع بصمة إبهام السيد روبين هورنبي، وإنها، في واقع الأمر، بصمته من دون أدنى شك.»

فسأل ثورندايك: «هل هناك أي احتمالٍ لأن يكون شخصٌ ما أيًّا كان قد وضع تلك الورقة التي تحمِل البصمة؟»

فأجابه المحامي: «كلَّا. هذا مُستحيل تقريبًا. فالورقة التي وُجِدَت عليها البصمة كانت إحدى أوراق مذكرات السيد هورنبي. وكان قد كتب عليها بعض التفاصيل التي تخصُّ الألماس، ووضعها على الطرد قبل أن يُوصِد الخزينة.»

سأل ثورندايك: «هل كان أي أحدٍ موجودًا حين فتح السيد هورنبي الخزينة في الصباح؟»

أجاب المحامي: «كلَّا، كان وحدَه. رأى على الفور أن الألماس مفقود، ثم لاحظ وجود الورقة التي عليها بصمة الإبهام، فأغلق الخزينة عليها وأرسل في استدعاء الشرطة.»

«أليس مِن الغريب أن السارق لم يلاحظ البصمة، حيث إنها كانت مميزةً وظاهرة للغاية؟»

أجابه السيد لولي: «كلَّا، لا أظن ذلك. كانت الورقة موضوعةً على وجهها في أرضية الخزينة، ولم يرَ السيد هورنبي بصمةَ الإبهام إلا حين رفعها وقلبها. من الواضح أن اللصَّ كان قد استولى على الطرد، وعليه الورقة، وبعدَها سقطت الورقة على وجهها الذي يحمِل البصمة، أغلب الظن حين نقل اللصُّ الطردَ من إحدى يدَيه إلى اليد الأخرى.»

قال ثورندايك: «ذكرتَ أن الخبراء في سكوتلانديارد قد حدَّدوا أن بصمة الإبهام تلك تعود للسيد روبين هورنبي. هل لي أن أسأل كيف أُتيحَت لهم فرصة إجراء المقارنة؟»

فقال السيد لولي: «آه! لهذا الأمر قصة تنطوي على مصادفةٍ في غاية الغرابة. بالطبع حين وجدت الشرطة أن هناك وسيلة إثبات بسيطةً للغاية مِثل بصمة الإبهام، أرادوا أن يأخذوا بصمات كلِّ العامِلين في المشغل؛ لكن السيد هورنبي رفض الموافقة على هذا — بشهامةٍ من جانبه كما يبدو لي — قائلًا إنه لن يسمح بأن يتعرَّض ابنَي أخوَيه لمذلَّةٍ كهذه. وفي الواقع كان ابنا أخويه هذان هما اللذَين كانت الشرطة مُهتمةً بهما؛ نظرًا لأنهما وحدَهما من كانا يملكان الوصول للمفاتيح؛ فمورِس ضغطٌ كبير على السيد هورنبي لأخذ بصمات ابنَي أخوَيه.

لكنه كان مُتصلِّب الرأي، رافضًا لأن تلحق أي شبهةٍ بالسيدَين ابنَي أخويه، اللذَين كان يضع فيهما ثقةً كاملةً وكان يعرفهما طوال حياتهما، وهكذا كان الأمر وما زال لُغزًا لولا واقعة في غاية الغرابة.»

استطرد قائلًا: «ربما رأيتَ في أكشاك الكتب وفي نوافذ المتاجر ما يُسمَّى «سجل بصمات الإبهام» أو نحو ذلك، وهو كُتيب صفحاته فارغة يجمع فيه المرء بصمات إبهام أصدقائه، ومعه لوح تحبير.»

فقال ثورندايك: «رأيتُ تلك الأشياء الجهنمية، وفي الواقع أملك أحدَها؛ إذ اشتريتُها من محطة تشارينج كروس.»

«يبدو أن السيدة هورنبي، وهي زوجة السيد جون هورنبي، اشترت واحدةً من تلك الألعاب ...»

فقاطعه روبين: «في واقع الأمر، كان والتر ابن عمي هو من اشتراها وأعطاها لها.»

فقال السيد لولي: «حسنًا، هذا ليس دليلًا ماديًّا» (وإن كنتُ لاحظتُ أن ثورندايك دَوَّنَ ملاحظةً بذلك في مفكرته)؛ «على أي حال، أصبح بحوزة السيدة هورنبي إحدى تلك الأدوات وشرعت تملؤها ببصمات إبهام أصدقائها، ومن بينهم ابنَي أخوي زوجها. وحدث أنَّ المُحقِّق المسئول عن هذه القضية عَرَّجَ على منزل السيد هورنبي بينما كان غائبًا عن المنزل، واستغلَّ الفرصة لحث زوجته على إقناعه بالموافقة على أخذ بصمتَي إبهامَي ابنَي أخوَيه من أجل أن يفحصهما الخبراء في سكوتلانديارد. وأوضح لها أن هذا الإجراء مُهم وضروري للغاية، لا مِن أجل العدالة فقط، ولكن أيضًا من أجل مصلحة الشابَّين، اللذَين كانت الشرطة تنظر إليهما بعين الشك، الذي سيزول تمامًا إن تبيَّن من خلال المقارنة الفعلية أن البصمة لا تخصُّ أيًّا منهما. علاوةً على ذلك، بدا أن كِلا الشابَّين كانا قد عبَّرا عن استعدادهما للخضوع لهذا الاختبار، لكنَّ عمَّهما منعهما من ذلك. حينها واتت السيدةَ هورنبي فكرةٌ رائعة. تذكَّرَت فجأةً سِجلَّ بصمات الإبهام، وفكَّرت أن تضع حدًّا للمسألة بلا رجعة، فأحضرت الكُتيب وأرته للمُحقق. كان الكتيب يحتوي على بصمتَي إبهامَي السيد روبين (من بين بصمات أخرى)، وحيث إن المُحقق كان يملك صورةً فوتوغرافيةً للبصمة دليل الاتهام بالجريمة، فقد عقد المقارنة في الحال؛ ويمكنك أن تتخيَّل ذُعر السيدة هورنبي ودهشتها حين تبيَّن أن بصمة الإبهام اليُسرى لروبين ابن أخي زوجها توافقت بكلِّ تفاصيلها مع بصمة الإبهام التي وُجِدَت في الخزينة.»

وأردف قائلًا: «عندئذٍ وصل السيد هورنبي إلى المنزل، وبالطبع أُصيب بصدمةٍ شديدة من المُنعطف الذي اتخذته الأحداث. كان يرغب في أن يترك المسألة وكأنها لم تكن ويدفع تعويضًا عن فقد الألماس من جيبه الخاص، لكنه لم يكن أمامه أي خيارٍ سوى إقامة دعوى؛ لأن ذلك كان سيعني تغاضيه عن جناية. ونتيجةً لذلك، أُصدِرَت مُذكِّرة باعتقال السيد روبين، ونُفِّذَت صباح اليوم، فأُخِذ موكلي إلى المحكمة الابتدائية بشارع باو ووُجِّهت إليه تهمة السرقة.»

فطرح ثورندايك سؤالًا: «هل قُدِّمت أي أدلة؟»

«كلَّا. مجرد الإقرار بتوجيه الاتهام إليه. وقد أُطلِقَ سراحُه بضمانةٍ لمدة أسبوع، بعد أن قُبِلَت له كفالتان قيمة كلٍّ واحدةٍ خمسمائة جنيه.»

صمت ثورندايك برهةً بعد أن انتهى السرد. ومِثلي، لم يكن معجَبًا بأسلوب المحامي، الذي بدا أنه يُسَلِّم بأن موكِّله مُذنب، وهو موقف له مبرِّراته بالنظر إلى ملابسات القضية.

ما لَبِثَ ثورندايك أنْ وجَّه إليه سؤالًا: «بماذا أشرتَ على موكِّلك؟»

«نصحتُه بأن يُقِر بأنه مذنب وأن يضع نفسه تحت رأفة المحكمة باعتبار أن هذه أول جنايةٍ يُتَّهَم بها. لا بد أنك ترى أنه لا يوجَد أي دفاع مُمكن.»

احمرَّ وجه الشاب، لكنه لم يعلِّق.

قال ثورندايك: «لكن، لنكن واضِحين بشأن موقفنا. هل ندافع عن رجلٍ بريء أم إننا نحاول الحصول على حُكم مخفَّف لرجل يُقر بأنه مذنب؟»

هزَّ السيد لولي كتفَيه.

وأجاب: «الأفضل أن يُجيب مُوكِّلنا عن هذا السؤال بنفسه.»

فوجَّه ثورندايك نظرة استفسار وتفحُّص إلى روبين هورنبي، وعلَّق قائلًا:

«نحن لا نطلُب منك بأيِّ شكلٍ أن تدين نفسك يا سيد هورنبي، لكن لا بد أن أعرف أي موقفٍ تريد أن تتَّخذ.»

هنا اقترحت مرةً أخرى أن أنسحب، لكن روبين قاطعني.

وقال: «ليس هناك حاجة لأن تغادر يا دكتور جيرفيس. موقفي أنني لم أرتكِب هذه السرقة وأنني لا أعرف أي شيءٍ عنها ولا عن بصمة الإبهام التي وُجِدت في الخزينة. بالطبع لا أتوقَّع منكم أن تُصدِّقوني مع وجود هذا الدليل القاطع ضدِّي، لكنني رغم ذلك أُعلِن وبكل جدِّية أمام الرب أنني بريء براءةً تامَّةً من هذه الجريمة، ولا أعرف شيئًا عنها على الإطلاق.»

فقال ثورندايك: «إذن أفهم من ذلك أنك لم تُقِرَّ بأنك «مذنب»؟»

فأجابه روبين بحرارة: «بالطبع لا؛ ولن أفعل أبدًا.»

فعلَّق السيد لولي قائلًا: «لن تكون أول رجلٍ بريء من بين كثيرين يُقدِم على هذا الدفع. لكنه في غالب الأحيان يكون النهج الأفضل، حين يكون الدفاع ضعيفًا بصورةٍ ميئوس منها.»

فعاوده روبين: «إنه نهج لن أتبعه أبدًا. قد أُدانُ وأتلقَّى حكمًا، وعلى الأرجح أن هذا ما سيحدُث، لكنني سأستمر في التمسُّك ببراءتي، مهما حدث.» ثم أضاف وهو يلتفِت إلى ثورندايك: «هل تظنُّ أن بمقدورك تولِّي مهمة الدفاع عني على أساس ذلك الافتراض؟»

فرد ثورندايك: «هذا هو الافتراض الوحيد الذي سأُوافق على تولِّي القضية على أساسه.»

فتابع روبين في حرص: «إن جاز لي طرح هذا السؤال، هل تجد أن من المُمكن أن تتصوَّر أنني قد أكون بريئًا فعلًا؟»

فأجابه ثورندايك: «بالطبع»، وهنا لاحظتُ حاجبَي السيد لولي يرتفعان على نحوٍ واضح. وتابع ثورندايك: «أنا رجل حقائق ووقائع، ولستُ مُحاميًا، ولو كنتُ أجد أن من المُستحيل أن أقبل بفرضية براءتك، فلن أكون مُستعدًّا لبذل الوقت والجهد بحثًا عن أدلةٍ تُثبتها.» ثم أردف وهو يرى بارقة الأمل تخبو على وجه الشاب البائس: «ومع ذلك، لا بد أن أؤكِّد عليك أن القضية تنطوي على صعوباتٍ جمَّة، وأن علينا الاستعداد لأن نجِدها مستعصيةً رغم كل ما سنبذله من جهد.»

فأجاب روبين بنبرةٍ عازمة وهادئة: «لا أتوقَّع شيئًا سوى الإدانة، وبإمكاني تقبُّل الأمر ومواجهته كالرجال فقط في حال لم تكن مُسَلِّمًا بأنني مُذنب، لكن امنحني فرصة، مهما كانت ضئيلة، للدفاع عني.»

فقال ثورندايك: «سأفعل كلَّ ما بوسعي ولن أدَّخِر جهدًا؛ هذا ما أعِدك به. وأرى أن الصعوبات التي تواجهنا تُشَكِّل في حدِّ ذاتها حافزًا لنا على بذل المزيد من الجهود. والآن اسمح لي أن أسألك، هل لديك أي جروحٍ أو خدوش على أصابعك؟»

فمدَّ روبين هورنبي كلتا يدَيه ليفحصهما زميلي، ولاحظتُ أن يدَيه كانتا قويتَين ومتناسقتَين وكأنهما يدا حِرفيٍّ ماهر، وإن كانتا بلا شائبة تشوبهما. وضع ثورندايك على الطاولة مُكثِّفًا كبيرًا كالذي يُستخدَم في العمل بالميكروسكوب، وبعد أن أخذ يد مُوكِّله، سلَّط بقعة الضوء البراقة على كل إصبع بالتتابع، وأخذ يفحص أنامِلَه والأجزاء حول الأظافر بمساعدة عدسةٍ صغيرة.

وقال وهو ينظر إلى يده باستحسانٍ وينتهي من فحصه: «هذه يد حسنة ومُقتدرة، لكنني لا أرى أي أثرٍ لجرح على اليُمنى أو اليُسرى. هلَّا تفحَّصتهما يا جيرفيس؟ لقد وقعت السرقة قبل أسبوعَين، ومِن ثَمَّ كان هناك وقت كافٍ لأن يُشفى جرح صغير ويختفي تمامًا. ومع ذلك، فإن الأمر جدير بالملاحظة.»

ثم أعطاني العدسةَ ورحتُ أتحقَّق من كل جزءٍ في كل يدٍ من يدَيه من دون أن أتمكَّن من تحديد ولو أثرٍ بسيط على وجود جرح حديث.

ثم قال ثورندايك وهو يضغط على زرِّ الجرس الكهربائي بالقُرب من كرسيه: «هناك أمر واحد فقط لا بد من التطرُّق إليه قبل أن تذهب. سآخُذ بصمةً أو اثنتَين للإبهام اليسرى من أجل معرفتي الخاصة.»

هنا أظهر بولتون استجابةً للاستدعاء من مكانٍ مجهول لي، لكن يُرجَّح أنه المُختبر، وبعد أن تلقَّى التعليمات، انسحب وسرعان ما عاد وهو يحمل صندوقًا وضعه على الطاولة. أخرج ثورندايك من الصندوق صحنًا نحاسيًّا لامعًا مركَّبًا على لوح من الخشب القوي، وبكرةً صغيرة تُستخدَم في الطباعة، وأنبوبًا يحتوي على حبر للبصمات، وعددًا من البطاقات لها سطح في غاية البياض ومصقول نوعًا ما.

وقال: «والآن يا سيد هورنبي، أرى أن يدَيك بمنأًى عن الانتقاد بشأن نظافتهما، لكننا رغم هذا سنمسح إبهامك مسحةً أخيرة.»

ثم، شرع في تنظيف مُنتفَخ الإبهام بفرشاة أظافر مُبلَّلة جيدًا مصنوعة من شعر الغرير، وبعد شطفه بالماء، جفَّفه بمنديلٍ حريري، وفركه مرةً أخيرة على قطعة من جلد الشامواه. وبعد أن جهَّز الإبهام على هذا النحو، أخرج قطرةً من الحبر السميك على الصحن النحاسي وفرشها بالبكرة، وكان بين الحين والحين يختبِر حالة طبقة الحبر الرقيقة عن طريق لمسِها بأنملة إصبعه وتجربة بصمتها على إحدى البطاقات.

وحين أصبح الحبر بالكثافة المطلوبة، أخذ يد روبين وضغط بالإبهام ضغطًا خفيفًا لكن بثباتٍ على الصحن المَطلي بالحبر؛ ثم نقل الإبهام إلى إحدى البطاقات التي وجَّهني لأن أُمسكها بثباتٍ على الطاولة، وكرَّر ضغطه على الإبهام، فخلَّف بصمةً واضحةً ونقيَّةً لمُنتفَخ الإبهام، فكانت النتوءات الحُليمية ظاهرةً بوضوح مجهري، بل وظهرت حتى منافذُ الغُدَد العَرَقية، والتي بدت كصفٍّ من النقاط البيضاء الصغيرة على خطوط النتوءات السوداء. كرَّر ثورندايك هذه العملية اثنتي عشرة مرةً على اثنتَين من البطاقات، فكانت كل بطاقة تحمِل ستَّ بصمات. ثم أخذ ثورندايك بعد ذلك بصمةً أو اثنتَين من البصمات المبسوطة، وهي تلك التي نأخذها بإدارة الإصبع على اللوح المُحبَّر أولًا ثم بعد ذلك على البطاقة، وبهذه الطريقة نحصل على بصمةٍ لجزء أكبر حجمًا من سطح الإبهام في البصمة الواحدة.

وقال: «والآن، ولكي نكون مُستعدِّين بكل الوسائل اللازمة للمضاهاة، سنأخذ بصمةً بالدم.»

ثم نُظِّف الإبهام وجُفِّف تمامًا، ثم وَخَزَ ثورندايك إبهامَه بإبرة وعصرَه فأخرج منه قطرةَ دمٍ كبيرةً على البطاقة.

وقال بابتسامة، وهو يُفرِّش قطرة الدم بالإبرة ليجعلها في شكل بركةٍ ضحلة ضئيلة: «ليس كلُّ محامٍ مُستعدًّا لإراقة دمِه من أجل موكِّله.»

ثم شرع في أخذ دزينة من البصمات كما فعل في السابق على بطاقتَين اثنتَين، وكان يكتب رقمًا بقلمِه الرصاص مقابل كل بصمةٍ يأخذها.

ثم قال وهو يُنَظِّف إبهام موكِّله للمرة الأخيرة: «الآن نحن مُستعدون بما هو مطلوب من أجل تحقيق أوَّلي، وإن أعطيتني عنوانك يا سيد هورنبي، فيُمكننا أن نعتبر أننا قد انتهينا من العمل في الوقت الراهن. حريٌّ بي أن أعتذر منك يا سيد لولي؛ لأنني أخَّرتُك كثيرًا بسبب هذه الإجراءات.»

في واقع الأمر، كان المحامي قد أخذ يُعاين الإجراءات التي اضطلع بها ثورندايك بتململٍ يكاد لا يخفى، ونهض الآن وقد بدا عليه الارتياح بوضوح لأنهم قد انتهوا.

وقال كاذبًا: «كنتُ مُستمتعًا للغاية، وإن كنتُ أُقرُّ بأنني لا أفهم نواياك. وبالمناسبة، سأرغب في أن أتحدَّث معك قليلًا على انفرادٍ بشأن أمرٍ آخر، إن كان السيد روبين لا يُمانع أن ينتظرني في الميدان لبضع دقائق.»

فقال روبين، الذي رأيتُ أنه لم ينطلِ عليه تظاهر المحامي: «على الإطلاق. لا تعجل بسببي؛ أمامي الكثير من الوقت — في الوقت الحالي.» ثم مدَّ يدَه مصافحًا ثورندايك، الذي صافحه بدوره بكل ود.

وقال ثورندايك: «إلى اللقاء يا سيد هورنبي. لا تتفاءل أكثر من اللازم، ولكن في الوقت نفسه، لا تفقد الأمل. كُن حَذِرًا وأبلغني فورًا بأي شيءٍ يحدث لك قد يكون له تأثير على القضية.»

بعد ذلك غادر الشاب، ولَمَّا أُغلِق الباب خلفه، التفت السيد لولي إلى ثورندايك.

وقال: «فكَّرت في أنَّ مِن الأفضل لو تحدَّثت معك على انفراد فقط لأسمع منك عن السبيل الذي ستسلُكه؛ لأنني أُقرُّ بأن موقفك يُحيِّرني تمامًا.»

فسأل ثورندايك: «ما السبيل الذي كنتَ لتقترح أن نسلكه؟»

فقال المحامي وهو يهزُّ كتفَيه: «في الواقع، يبدو لي الأمر كالتالي: سرق صاحبنا الشاب طردًا من الألماس وكُشِف أمره؛ أو على الأقل، هكذا يبدو لي الأمر.»

فقال ثورندايك بنبرة جافة: «لا يبدو لي الأمر هكذا. ربما يكون قد أخذ الألماس، وربما لم يفعل. لا أملك إصدار أي حكمٍ حتى أُمحِّص الأدلة وأحصل على بضع معلوماتٍ إضافية. هذا ما آمُل فعله في غضون اليوم أو اليومَين القادمَين، وأقترح أن نُؤجِّل التفكير في استراتيجيتنا حتى أتبيَّن أي خطٍّ دفاعٍ يمكننا أن نتبعه.»

فردَّ المحامي وهو يعتمر قُبعته: «كما ترى، لكني أخشى أنك تُشجِّع الشاب المُحتال على التعلُّق بآمالٍ لن يطال من ورائها إلا سقوطًا أعنف، ناهيك عن ذِكر موقفنا نحن. فنحن، كما تعلم، لا نرغب في أن نجعل أنفسنا موضع سخريةٍ وازدراء.»

فقال ثورندايك موافقًا: «لا أريد ذلك بالطبع. ومع ذلك، سأدرس الأمر وأتواصل معك في غضون يومٍ أو اثنَين.»

وقف ثورندايك مُمسكًا بالباب بينما نزل المحامي على الدرج، وحين خفت وقع الأقدام بعد برهة، أغلق ثورندايك الباب بحدة والتفت نحوي وقد بدا عليه الانزعاج.

وعلَّق قائلًا: «يبدو لي أن اختيار «الشاب المُحتال» لمحاميه لم يكن موفقًا. بالمناسبة يا جيرفيس، فهمت أنك عاطل عن العمل في الوقت الراهن، صحيح؟»

فأجبته: «أجل، صحيح.»

«هل ترغب في مساعدتي — باعتبارها مهمة عمل بالطبع — في جمع الأدلة والتحضير لهذه القضية؟ فلديَّ حاليًّا الكثير من الأعمال الأخرى، وستكون مساعدتك قيِّمةً جدًّا بالنسبة إلي.»

فقلت بصِدقٍ كبير إن هذا سيكون من دواعي سروري.

قال ثورندايك: «إذن، تعالَ إلى الإفطار صباح الغد وسنتَّفق على الشروط، وبإمكانك البدء في عملك على الفور. والآن لنُشعِل غليونَينا ونُنْهِ حديثنا وكأننا لا نعرف بوجود موكِّلين مُنزعِجين ومُحامِين بلداء.»

الفصل الثالث

فَتِّش عن المرأة

حين وصلت إلى مقرِّ ثورندايك في الصباح التالي، وجدتُ صديقي منهمكًا في العمل حقًّا. كان الفطور موضوعًا على أحد طرفَي الطاولة، وعلى الطرف الآخر وُضِع جهاز ميكروسكوب من النوع الذي يُستَخدَم في فحص مُستنبتاتٍ لكائنات دقيقة على صفائح، وعلى سطح الصفيحة العريضة استقرَّت إحدى البطاقات التي تحمِل ستَّ بصماتٍ للإبهام بالدم. وكان مُكثِّفٌ يُلقي ببقعة ضوء على البطاقة التي كان ثورندايك يفحصها حين دخلت، كما فهمت من وضع الكرسي، الذي دفعه ثورندايك الآن إلى الخلف نحو الحائط.

فعلَّقتُ قائلًا، بينما دخل بولتون حاملًا طعام الفطور، استجابةً لدقَّتَين على الجرس الكهربي: «أرى أنك شرعتَ في العمل على المسألة.»

فأجابني ثورندايك: «أجل. لقد افتتحتُ حملتنا، مدعومًا كالعادة برئيس أركاني الموثوق؛ أليس كذلك يا بولتون؟»

ابتسم الرجل الضئيل الجسم بفخر، وقد بدا مظهره المُهذَّب والمُثقَّف غريبًا وغير متناسِب مع صينية الشاي التي يحملها، وبنظرة إعجابٍ ومحبَّة لصديقي، أجاب:

«بلى يا سيدي. لقد عمِلنا بكدٍّ ونشاط وسرعة من دون تضييع أي وقت. ثمة صورة سالبة تُحَمَّض في الطابق العلوي، وكذلك صورة مكبَّرة على ورقٍ من البروميد، ستكون قد رُكِّبَت وجُفِّفَت بمجرد انتهائك من الإفطار.»

فعلَّق صديقي يقول بينما انسحب مساعده: «إنه رجل مُدهش يا جيرفيس. يبدو ككاهنٍ ريفي أو كقاضي محكمة عُليا، ومن الواضح أن القَدَر كان يريد له أن يكون أستاذًا جامعيًّا في الفيزياء. لكن في واقع الأمر كان الرجل في البداية صانع ساعات، ثم أصبح صانع أجهزة وأدوات بصرية، والآن يعمل مساعدًا جديرًا لطبيب شرعي. إن بولتون هذا

مساعدي الذي لا غِنى لي عنه؛ فهو يفهم الفكرة قبل حتى أن تنطق بها؛ لكنك ستتعرَّف إليه أكثر وأكثر بمرور الوقت.»

فسألته: «من أين أتيتَ به؟»

«كان مريضًا مُقيمًا بالمُستشفى حين الْتقيتُ به لأول مرة، وكان سقيمًا ومُحطَّمًا بشدة، ضحية للفقر وسوء حظ غير مُستحَق. أعطيتُ له مهمةً أو مهمتَين صغيرتَين، وحين اكتشفتُ أي طرازٍ من الرجال هو، أخذتُه ليكون في خدمتي دائمًا. وهو مُخلص لي تمامًا، وعرفانه لي لا حدودَ له بقدْر ما هو غير ضروري.»

فسألته: «وما الصور التي كان يُشير إليها في حديثه؟»

«إنه يُعدُّ «نسخةً» مكبَّرةً لإحدى بصمات الإبهام على ورق من البروميد وصورةً سالبة بالحجم نفسه في حال أردْنا تكرار طباعتها.»

فقلت: «لا شكَّ في أنك تتوقَّع أن تكون قادرًا على مساعدة هورنبي المسكين، مع أنني لا أتصوَّر كيف ستشرع في العمل على ذلك. تبدو لي مسألته ميئوسًا منها بقدْر ما يمكن تصوُّره واستيعابه منها. لا أجد ميلًا إلى أن أُدينه، لكن رغم هذا، تبدو براءته غير واردة.»

فقال ثورندايك موافقًا: «تبدو مسألته ميئوسًا منها بالتأكيد، وفي الوقت الراهن لا أرى مَخرجًا منها. لكن لديَّ قاعدة واحدة في كل القضايا، وهي أن أتَّبع أساليب التحقيق الاستقرائي التقليدية الصارمة؛ بأن أجمع الحقائق، وأضع الفرضيات، وأختبرها، وأبحث عن أدلَّة إثباتها. ودائمًا ما أسعى إلى إبقاء عقلي مُنفتحًا.»

واستطرد: «والآن، فيما يخصُّ قضيتنا الراهنة، إذا ما افترضنا، كما يتعيَّن علينا، أن السرقة وقعت حقًّا، فثمة أربع فرضيات مُمكنة: (١) أن روبين هورنبي هو من ارتكب السرقة؛ (٢) أن والتر هورنبي هو من ارتكبها؛ (٣) أن جون هورنبي هو من ارتكبها؛ أو (٤) أن شخصًا آخر أو أشخاصًا آخرين هم من ارتكبوها.»

وتابع: «أقترح أن نترك الفرضية الأخيرة في الوقت الراهن، وأن ألتزم بالتحقيق في الثلاثة الأُخَر.»

فصحتُ متعجبًا: «أتظن أن السيد هورنبي سرق الألماس من خزينته الخاصة؟»

فأجابني ثورندايك: «في الوقت الراهن، لا أميل إلى أي نظريةٍ في هذه المسألة. إنما أسرد الفرضيات وحسب. كان جون هورنبي يملك إمكانية الوصول إلى الألماس، ومِن ثمَّ من الممكن أن يكون قد سرقها.»

«لكن من المؤكَّد أنه مسئولٌ أمام مُلَّاكها.»

«ليس في غياب الإهمال الجسيم، الأمر الذي سيجد مُلاكُ الألماس صعوبةً في إثباته. كما ترى، لقد كان ما يُطلَق عليه مُودَعًا إليه بلا سند، وفي هذه الحال، لا يقع على المُودَع إليه أي مسئولية على التعويض عن الخسائر، إلا إن كان هناك إهمال جسيم من جانبه.»

فقلتُ متعجبًا: «ولكن لدينا البصمة، يا صديقي العزيز! كيف يمكنك أن تُغفِل ذلك؟»

فأجابني ثورندايك بهدوء: «لا يُمكنني أن أفعل؛ لكنني أرى أنك تنتهج نهج الشرطة نفسه؛ فهم يصرُّون على النظر إلى البصمة باعتبارها مقياسًا سحريًّا، أو دليلًا نهائيًّا لا يحتاجون إلى التحقيق فيه. وهذا خاطئ تمامًا. ما البصمة إلا معلومة من المعلومات — وأُقِرُّ بأنها معلومة مهمة للغاية ولها دلالة كبيرة — لكنها ما تزال معلومة، ومثلها مثل أي معلومة أخرى، يتطلَّب الأمر قياسها وتقديرها من حيث قيمتها باعتبارها إثباتًا.»

«إذن ما الذي تقترح فعله أولًا؟»

«سأسعى أولًا إلى إقناع نفسي بأن بصمة إبهام المُشتبه به متطابقة من حيث طابعها المُميز مع بصمة روبين هورنبي؛ وإن كنت لا أشك في هذا الأمر كثيرًا؛ لأن بالإمكان الوثوق بخبراء البصمات في تخصُّصهم.»

«وماذا بعد؟»

«سأجمع معلومات جديدة، وهذا هو ما أريد مساعدتك بشأنه، وإن كنَّا قد انتهَينا من الإفطار، فسأُقلِّدك واجباتك الجديدة.»

ثم نهض ودق الجرس، وبعد ذلك جلب من المكتب أربعة دفاتر ملحوظات صغيرة غلافها من الورق ووضعها أمامي على الطاولة.

وقال: «سنُخصِّص أحد هذه الدفاتر للمعلومات التي تخصُّ روبين هورنبي. ستكتشف كل ما يمكنك أن تكتشفه عنه — أي شيء، مهما بدا تافهًا أو غير ذي صِلة ظاهريًّا — ويكون مرتبطًا به بأي شكلٍ وتدوِّنه فيه.» ثم كتب على الدفتر «روبين هورنبي» ومرَّره لي. وتابع: «وفي الدفتر الثاني بالمِثل، ستُدوِّن أي شيء يمكنك معرفته عن والتر هورنبي، وفي الدفتر الثالث، ستُدوِّن المعلومات المرتبطة بجون هورنبي. أما الدفتر الرابع، فستُخصِّصه للمعلومات العشوائية المُرتبطة بالقضية لكنها لا ترتبط بهذه العناوين الثلاثة الأخرى. والآن لننظُر فيما صنعه بولتون.»

ثم أخذ من يد مساعِده صورةً فوتوغرافيةً بمقاس عشر بوصات طولًا في ثماني بوصات عرضًا، مطبوعةً على ورق برومبد ومسطَّحةً على بطاقةٍ مقوَّاة. وكانت الصورة تُظهر «نسخةً» مكبَّرةً لإحدى البصمات، يمكن فيها رؤية كل التفاصيل الدقيقة بوضوحٍ

وبالعَين المجرَّدة، مثل فتحات الغدد العرقية وأوجه الشذوذ الطفيفة في النتوءات، والتي لا يمكن رؤيتها إلا بمساعدة عدسة. علاوةً على ذلك، كانت البصمة بأكملِها مُغطاةً بشبكة من الخطوط السوداء الدقيقة، والتي قسَّمتها إلى عددٍ من المربعات الصغيرة، وكل مربَّع مميَّز برقم.

قال ثورندايك مُستحسنًا عمل مساعده: «ممتاز يا بولتون؛ هذه نسخة مكبَّرة مثيرة للإعجاب للغاية. كما ترى يا جيرفيس، لقد صوَّرنا بصمة الإبهام صورًا فوتوغرافية على ميكرومتر مرقَّم ومقسَّم إلى مربعات مساحة كل مربع منها واحد على اثني عشر من البوصة. وحجم الصورة المكبَّرة أكبر بثمانية أضعاف من حجمه الفعلي في كل بُعد، بذا يكون قُطر كل مربع من المربعات هنا ثلثَي البوصة. لديَّ عدد من هذه الميكرومترات بمقاييس مختلفة، وأجِدها أدواتٍ قيِّمةً في فحص الشيكات والتوقيعات المشكوك بها وما شابه. أرى أنك حزمت الكاميرا والميكروسكوب يا بولتون؛ فهل وضعتَ الميكرومتر معهما؟»

أجابه بولتون: «نعم سيدي، وكذلك العدسة الشيئية بمقاس ستِّ بوصات والعدسة العينية المُنخفضة الطاقة. كل شيء في الحقيبة؛ وقد وضعتُ ألواحًا «خاصة وسريعة» للشرائح المُعتِمة في حال كان الضوء سيئًا.»

فقال ثورندايك، وهو يعتمر قُبعته ويرتدي قفازه: «لنذهب إذن ونباري سِباع سكوتلانديارد في عرينهم.»

فقلت: «ولكن من المؤكَّد أنك لن تأخذ هذا الميكروسكوب الكبير إلى سكوتلانديارد، في حين أنك لن تحتاج إلا إلى عدسة بقُطر ثماني بوصات. أليس لديك ميكروسكوب تشريحي أو أداة قابلة للحمل؟»

«لدَينا أروع الأدوات التشريحية، وهي من صنع بولتون؛ سوف يُريك إيَّاها. لكنني قد أحتاج إلى أداةٍ أقوى، ودعني في هذا المقام أُوجِّه لك تحذيرًا: مهما رأيتني أفعل، لا تُدْلِ بأي تعليق أمام المسئولين. نحن من نبحث عن المعلومات، لا من نُقدِّمها، أنت تعي هذا.»

في هذه اللحظة، وحيث كان الباب الخارجي مفتوحًا، صدر عن المِطرقة النحاسية الصغيرة على الباب الداخلي قرْع مُتكرر ينمُّ عن التردد والاعتذار.

غمغم ثورندايك وهو يُعيد وضع الميكروسكوب على الطاولة: «بحق الجحيم من يمكن أن يكون الطارق؟» ثم اجتاز الغرفةَ نحو الباب الخارجي وفتحَه في فظاظةٍ نوعًا ما، لكنه على الفور خلع قُبعته بسرعة، وحينها رأيتُ سيدةً تقف على عتبة الباب.

قالت السيدة متسائلة: «الدكتور ثورندايك؟» وبينما انحنى زميلي مُحييًا، أردفَت: «كان حريًّا بي أن أكتُب لك لأستأذنك في موعدٍ للقائك، لكن الأمر مُلحٌّ جدًّا؛ إنه يخص السيد روبين هورنبي، وأنا لم أعرف منه أنه قد استعان باستشاراتك إلا صباح اليوم.»

فقال ثورندايك: «رجاءً، تفضَّلي بالدخول. كنت أنا والدكتور جيرفيس على وشْك أن نتوجَّه إلى سكوتلانديارد لهذا الشأن تحديدًا. اسمحي لي أن أُقدِّمكِ إلى زميلي، الذي يعمل معي على هذه القضية.»

بادلتني زائرتنا بنت العشرين ربيعًا أو نحو ذلك انحناءة التحية، وقالت برصانةٍ مثالية: «اسمي جيبسون ... الآنسة جولييت جيبسون. أنا هنا لأمرٍ بسيط للغاية ولن أؤخِّركما لأكثر من دقائق معدودة.»

وجلست على الكرسي الذي وضعَه لها ثورندايك، وتابعت تقول بنبرة سريعة وعملية:

«لا بد أن أُخبركما بمن أكون من أجل أن أُفسِّر لكما سبب زيارتي. لقد عشتُ طيلة السنوات الست المنصرمة مع السيد والسيدة هورنبي، على الرغم من أنه لا تربطني بهما صِلة قرابة. في البداية أتيت إلى منزلهما رفيقةً من نوعٍ ما للسيدة هورنبي، وإن كنتُ لا أجد حاجةً لأن أقول إن واجباتي وقتها لم تكن شاقَّة؛ إذ لم أكن وقتها قد جاوزت الخامسة عشرة من العمر؛ في واقع الأمر، أظن أن السيدة هورنبي آوَتني لأنني كنتُ يتيمةً ولم تتوفر لي أسباب العيش، كما أنها لم تُنجِب أولادًا.»

ثم أضافت: «وقبل ثلاث سنوات، حصلتُ على ثروةٍ جعلتني مُستقلة؛ لكنني كنت في سعادة بالغة مع صديقيَّ الطيبَين حتى إنني طلبتُ أن يُسمَح لي أن أبقى معهما، ومنذئذٍ وأنا في منزلة ابنتهما المُتبنَّاة. وبطبيعة الحال، عايشتُ ابنَي أخوي السيد هورنبي قدرًا كبيرًا من الوقت؛ فهما يقضيان وقتًا طويلًا في المنزل، ولست في حاجة لأن أُخبركما أن التهمة الفظيعة التي صدرت في حقِّ روبين قد وقعت علينا كالصاعقة. والآن، ما أتيت أخبركما به هو الآتي: لا أعتقد أن روبين سرق ذلك الألماس. فهذا ينافي تمامًا كل خِصاله في ضوء خبرتي السابقة عنه. وأنا مُقتنعة بأنه بريء، وأنا على استعدادٍ لأن أقدِّم الأدلة التي تدعم رأيي.»

فسألها ثورندايك: «ماذا تقصدين؟»

أجابته الآنسة جيبسون: «أقصد أنني على استعدادٍ لأن أُمِدَّكما بالمال اللازم. أعرف أن المشورة والمساعدة القانونية تنطوي على قدْر كبير من النفقات.»

فقال ثورندايك: «يؤسِفني أن أقول إن معلوماتك صحيحة.»

«حسنٌ، وأنا واثقة من أن موارد روبين المالية محدودة جدًّا؛ لذا من الضروري أن يدعمه أصدقاؤه، وأريد أن تَعِدانِي بأنكما لن تدَّخِرا وسعًا في أي شيءٍ من شأنه أن يساعد في إثبات براءته إن تحمَّلتُ مسئولية أي تكاليف لا يستطيع هو سدادها. وأرغب بالطبع ألَّا أظهر في الصورة، إن كان من الممكن تفادي ذلك.»

فقال زميلي بابتسامة: «صداقتكِ مفيدة للغاية يا آنسة جيبسون. لكن في الواقع، مسألة التكاليف هذه لا تخصُّني. إن دعت الحاجة لِمَا يمكن أن تجودي به، فسيتعيَّن عليكِ التواصُل مع محامي السيد روبين عبر راعيكِ السيد هورنبي، وبموافقة المُتهم. لكني لا أظن أن الحاجة ستستدعي ذلك، وإن كنتُ مسرورًا للغاية بزيارتكِ؛ إذ يمكنكِ أن تُقدِّمي لنا مساعدةً قيِّمة بطرقٍ مختلفة. على سبيل المثال، يُمكنكِ الإجابة عن بعض الأسئلة التي تبدو غير لائقة.»

أجابته زائرتنا: «لن أعتبر أي سؤالٍ غير لائق إن كنت ترى أن طرحه ضروري.»

فقال ثورندايك: «سأتجرَّأ إذن على سؤالكِ إن كانت هناك علاقة خاصة بينكِ وبين السيد روبين.»

قالت الآنسة جيبسون وهي تضحك، وقد تورَّدت وجنتاها قليلًا: «أنت تبحث عن الدافع الذي لا مَحيد عنه في امرأة. كلَّا، لا توجَد علاقة عاطفية بيني وبين روبين. فما نحن إلا صديقان عزيزان وحميمان؛ في الواقع، ثمة ما يمكن أن أصِفه بأنه انجذاب من جانبٍ آخر؛ هو والتر هورنبي.»

«هل تقصدين أنكِ مخطوبة إلى السيد والتر؟»

فأجابت: «أوه، كلَّا، لكنه طلبَني للزواج ... أكثر من مرةٍ في الحقيقة؛ وأنا أعتقد حقًّا أنه مُنجذبٌ إليَّ انجذابًا صادقًا.»

قالت الآنسة جيبسون جُملتها الأخيرة تلك بنبرةٍ مُستغرِبة، وكأن ما تؤكِّد عليه كان عجيبًا ويدعو للدهشة، ولا شك أن ثورندايك لاحظها كما لاحظتُها أنا؛ ذلك أنه أردف:

«بالطبع. لمَ لا؟»

ردَّت الآنسة جيبسون: «في الواقع، أنا أملك دخلًا خاصًّا يقارب ستمائة جنيه في العام، ولن أُعتَبَر شريكة حياة غير مناسبة لشابٍّ مثل والتر، الذي لا يحوز لا على ملكية ولا على تطلُّعات، ومن الطبيعي أن يأخذ المرء هذا الأمر بعين الاعتبار. لكن رغم هذا، وكما قلت، أعتقد أنه صادِق في جهره بمشاعره وأن انجذابه ليس لأموالي وحسب.»

فقال ثورندايك بابتسامة: «لا أجد رأيكِ غير معقول على الإطلاق، حتى ولو كان السيد والتر شابًّا جشعًا، وأنا لا أجده كذلك.»

واحمرَّ وجه الآنسة جيبسون بشدة وهي تجيب:

«أوه، أرجوك لا داعي للإطراء؛ فأنا لستُ بأي حالٍ من الأحوال غافلةً عن مناقبي. لكن فيما يخصُّ والتر هورنبي، يؤسِفني أن أقول إنه ينطبق عليه مصطلح «جَشِع»، ومع ذلك ... في الواقع، أنا لم أقابل شابًّا أكثر تقديرًا منه لقيمة المال. وهو يريد تحقيق النجاح في الحياة، ولا شكَّ لديَّ في أنه سيفعل.»

«هل أفهم من هذا أنكِ رفضتِ عروضه بالزواج؟»

«نعم. فمشاعري تجاهه مشاعر ودودة ليس إلا، لكنها ليست بالشكل الذي يسمح لي بأن أُفكِّر في الزواج منه.»

«والآن، لنتحدَّث عن السيد روبين قليلًا. تعرفينه منذ أعوام، أليس كذلك؟»

أجابت: «أعرفه معرفةً حميمة منذ ستِّ سنوات.»

«وما ظنكِ بشخصيته؟»

أجابت: «من خلال ما لاحظته عليه، يمكنني القول إنني لم أُجرِّب عليه كذبًا، ولم أجد منه أي فعلٍ شائن. أما أن يرتكب سرقة، فهذا محض عبث. فالاقتصاد من عاداته، وهو قنوع إلى حدِّ اعتبار هذا نقيصة، وفُتوره تجاه «مصالحه الخاصة» جليٌّ بقدر وضوح تطلُّعات والتر. وهو رجل كريم أيضًا، وإن كان حريصًا ومثابرًا.»

فقال ثورندايك: «شكرًا لكِ يا آنسة جيبسون. سنلجأ إليكِ من أجل المزيد من المعلومات مع تقدُّم القضيَّة. وأنا واثق من أنكِ ستكونين مصدر عونٍ متى استطعتِ إلى ذلك سبيلًا، وأنكِ تستطيعين تقديم العون إن كنتِ تريدين، من خلال صفاء ذهنكِ وصراحتكِ المُثيرة للإعجاب. وإذا ما تركتِ بطاقة الاتصال بك، سنُبقيكِ أنا والدكتور جيرفيس على اطلاع بالتطوُّرات الهامة في القضية وسنطلُب منكِ المساعدة متى احتجناها.»

وبعد أن غادرت زائرتنا الجميلة، وقف ثورندايك برهةً يُحدِّق في نار المدفأة وهو مُستغرِق في التفكير. ثُم رمق ساعته بنظرةٍ سريعة، وأعاد اعتمار قبعته، وأمسك بالميكروسكوب، وسلَّمني حقيبة الكاميرا وتوجَّه نحو الباب.

وقال متعجِّبًا، بينما كنَّا ننزل الدرج: «كم يمرُّ الوقت سريعًا! لكنه لم يضِع هباءً يا جيرفيس، صحيح؟»

فأجبتُه في تردُّد: «كلَّا، لا أظن ذلك.»

أجاب قائلًا: «لا تظنُّ ذلك! عجبًا، نحن أمام لُغز مُعقَّد — ما يُطلَق عليه بأسلوب الروايات، مُعضلة سيكولوجية — ومُهمتك هي حلُّ هذا اللغز.»

«تقصد الآنسة جيبسون وعلاقتها بهذَين الشابَّين؟»

فأومأ ثورندايك إيجابًا.

فسألته: «ألنا أي شأنٍ بهذا؟»

ردَّ ثورندايك: «بالتأكيد. كل شيءٍ من شأننا في هذه المرحلة المبدئية. نحن نبحث عن دليلٍ ويتعيَّن علينا ألَّا نترك أي شيءٍ من دون تدقيق وتحقيق.»

«إذن، بدايةً، الآنسة جيبسون، إن جاز لي القول، ليست مفتونةً بوالتر هورنبي.»

فقال ثورندايك موافقًا وكان يضحك ضحكةً ناعمة: «كلَّا؛ يُمكننا القول إن والتر الماكر لم يُثِر في الآنسة جيبسون شغفًا كبيرًا.»

فأكملتُ أقول: «وإن كنتُ خاطبًا يد الآنسة جيبسون، فأظن أنني سأكون أقربَ إلى شخصية روبين منِّي إلى والتر.»

فقال ثورندايك: «أتَّفق معك مُجددًا. أكمل.»

فأردفت: «وقد وصلَني من زائرتنا الحسناء انطباع بأن إعجابها الواضح بشخصية روبين قد شابَهُ شيءٌ سمِعَته من طرفٍ ثالث. فتعبيرها «من خلال ما لاحظتُه عليه» بدا أنه يُشير إلى أن ملاحظاتها عنه لم تكن مُتفقةً تمامًا مع ملاحظات شخصٍ آخر.»

فصاح ثورندايك: «أحسنت»، وهو يصفعني على ظهري، ممَّا أثار دهشةً صادقة من شُرطي كنَّا نمرُّ بجانبه؛ وأضاف ثورندايك: «هذا ما كنتُ أنتظره منك ... القدرة على رؤية ما يتوارى تحت الأمور البديهية. أجل؛ ثمَّة مَن كان يقول شيئًا عن موكِّلنا، وما علينا اكتشافه هو ما كان يُقال، وعلى لسان مَن. سيتعيَّن علينا أن نتذرَّع بذريعةٍ ما من أجل إجراء مقابلةٍ أخرى مع الآنسة جيبسون.»

فسألته بحمق: «بالمناسبة، لماذا لم تَسألها عما كانت تقصده؟»

فابتسم ثورندايك في وجهي. وكرَّر عليَّ السؤال: «لماذا لم تسألها أنت؟»

أجبت: «لا، لا أظن أنَّ مِن الحصافة أن نبدوَ فطنَين أكثر من اللازم. دعني أحمل عنك الميكروسكوب لبعض الوقت؛ أرى أنه يؤلِم ذراعك.»

فقال وهو يُناولني الحقيبة ويفرك أصابعه: «شكرًا، إنه ثقيل حقًّا.»

فقلت: «لا يسعني أن أفهم ما تريده من هذه الأداة الكبيرة. فعدسة جيب عادية يمكنها فعل كلِّ ما هو مطلوب. علاوةً على ذلك، العدسة الشيئية بمقاس ستِّ بوصاتٍ لن تُكبِّر الصورة أكثر من مرتَين أو ثلاث.»

ردَّ ثورندايك: «ستُكبِّرها مرتَين، مع انغلاق الأنبوب المنزلق، ويمكن للعدسة العينية المنخفضة الطاقة أن ترفع قُدرة التكبير إلى أربع. لقد صنعهما بولتون من أجلي لفحص الشيكات والأوراق المالية وغير ذلك من الأشياء الكبيرة. لكنك ستعرف حين تراني أستخدِمه، وتذكَّر ألَّا تُدلي بأي تعليق.»

بحلول ذلك الوقت، كنا قد وصلنا إلى مدخل مبنى سكوتلانديارد، وكنَّا نجتاز الشارع الضيِّق حين لاقَينا موظفًا يرتدي زيًّا رسميًّا، فتوقَّف الرجل وحيَّا زميلي.

وقال بنبرةٍ ودية: «آه، فكَّرت في أننا سنراك هنا مرةً أخرى عمَّا قريب، أيها الطبيب. سمعت هذا الصباح أنك تولَّيت قضية بصمة الإبهام تلك.»

ردَّ ثورندايك: «صحيح، سأرى ما يمكن فِعله من أجل جهة الدفاع.»

فقال الضابط وهو يُرشدنا إلى داخل المبنى: «حسنًا، لقد سبق وأن فاجأتنا كثيرًا، لكنَّك ستُفاجئنا مفاجأةً أكبر إن استطعتَ الوصول إلى شيءٍ في هذه القضية. في رأيي أنَّ نتيجتها محسومة.»

فقال ثورندايك: «لا وجود لِمثل هذا أيها الزميل العزيز. أنت ترمي إلى أنَّ هناك «دعوى ظاهرة الوجاهة» بحقِّ المُتهم.»

فأجابه الضابط وهو يبتسِم ابتسامةً ماكرة: «سَمِّها ما شئت؛ لكني أظن أنك ستجد هذه القضية الأصعب من بين القضايا التي تولَّيتها، وأنا أُقِرُّ لك بأنك ذو باع طويل في هذا الأمر. من الأفضل أن تدخُلا إلى مكتب السيد سينجلتون»، واصطحبنا الضابط حيث عبرنا ممرًّا، ثم دلف بنا إلى غرفة كبيرة قليلة الأثاث، فوجدْنا سيدًا ذا مظهرٍ هادئٍ جالسًا إلى منضدة كتابة كبيرة.

وقال السيد وهو ينهض من مكانه ويمد يده مصافحًا: «كيف حالك أيها الطبيب؟ يمكنني أن أُخمِّن سبب قدومك. تريد رؤية بصمة الإبهام تلك، صحيح؟»

فأجابه: «صحيح تمامًا»، وبعد أن قدَّمَني له أردف يقول: «كنَّا شركاء وزملاء في المباراة السابقة، لكننا هذه المرة على جانبَين متقابلَين من الرقعة.»

وافقه السيد سينجلتون: «أجل، وسنهزمك ونقول لك: مات الشاه!»

ثم فتح درجًا وأخرج منه حافظةً صغيرة، واستخرج من الحافظة ورقةً وضعها على الطاولة. بدا أن الورقة قد مُزِّقت من دفتر مذكِّرات مُثَقَّب، وكانت عليها كتابة بالرصاص نَصُّها: «سلَّمه روبين في الساعة ٧:٣٠ مساءً، ٩/٣/١٩٠١. ج. هـ.» وفي أحد أطرافها كان ثمَّة بقعة دماء لامعة، سببها سقوط قطرة كبيرة من الدم، وقد تلطَّخت تلك البقعة

قليلًا، على ما يبدو بفعل ضغط إصبع أو إبهام عليها. وبالقُرب منها كان ثمة لطختان أو ثلاث وبصمة إبهام واضحة وضوحًا بارزًا.

حدَّق ثورندايك باهتمام في الورقة لدقيقة أو دقيقتَين، مُدقِّقًا تباعًا في بصمة الإبهام واللطخات، لكنه لم يُبدِ تعليقًا، في حين راقب السيد سينجلتون وجهه الجامد بفضول وترقُّب.

ثم علَّق المسئول في آخر المطاف: «لا يتطلَّب تحديد هذه العلامة صعوبةً كبيرة.»

وافقه ثورندايك: «كلَّا، إنها بصمة مُمتازة ولها نمط مميَّز للغاية، حتى من دون الجرح.»

أجاب السيد سينجلتون قائلًا: «أجل، الجرح يجعل الأمر محسومًا تمامًا. أظن أن معك نسخةً من البصمة، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك: «بلى»، واستخرج من جيبه ذي الغطاء الصورة الفوتوغرافية المُكبَّرة، وعندما رآها السيد سينجلتون ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

وعلَّق قائلًا: «لا يحتاج المرء لارتداء نظارة لينظر في هذه البصمة؛ لن تكتسب ميزةً إضافيةً من كل هذا التكبير؛ فالتكبير لثلاثة أمثال الحجم كافٍ للغاية للتحقُّق من أنماط النتوءات. وأرى أنك قسمتَ البصمة إلى مُربعات مُرقمة، وهي ليست بخطةٍ سيئة؛ لكن خُطتنا — أو بالأحرى خطة جالتون؛ لأننا استعرنا الطريقة منه — أفضل في تحقيق هذا الغرَض.»

ثم سحب من الحافظة صورةً بمقاس ستِّ بوصاتٍ ونصف في أربع بوصاتٍ ونصف لبصمة الإبهام، فبدت وكأنها مكبَّرة بمقدار نحو أربع بوصات. وكانت النسخة تحمِل عددًا من الأرقام كُتِبَت بدقةٍ باستخدام قلَم ذي سنٍّ دقيق، وكُتِبَ كل رقم على جزءٍ خاص منعزل من البصمة أو على حلقة في النتوءات أو على تشعُّب فيها، أو على جزءٍ مُميَّز وبارز من أجزاء نمط النتوءات.

وقال السيد سينجلتون: «إن نظام الترقيم هذا باستخدام أرقام مرجعية أفضل من طريقتك التي تستخدِم المربعات؛ لأن الأرقام لا توضَع إلا على النقاط المُهمة للمقارنة، في حين أن المُربعات أو تقاطُعات الخطوط تقع بصورةٍ عرضية واعتباطية على النقاط والأجزاء المُهمة وغير المُهمة، حسب الصدفة. أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نسمح لك بوضع علاماتٍ على النسخة الأصلية كما تعلم، وإن كنَّا بالطبع نستطيع أن نُقدِّم لك صورةً فوتوغرافية منها، الأمر الذي سيكون كافيًا.»

فقال ثورندايك: «كنت سأطلب منك الآن أن تسمح لي بالْتقاط صورة.»

فأجابه السيد سينجلتون: «بكل تأكيد، إن كنتَ تُفضِّل أن تحظى بصورةٍ من الْتقاطك أنت. أنا أعرف أنك لا تُحِب أن تأخذ أي شيءٍ مأخذ التصديق. والآن يتعين عليَّ أن أُكمِل عملي، إذا سمحتُما لي. وسيُقدِّم لكما المُفتش جونسون أي مساعدة تطلبانها.»

أضاف ثورندايك، وهو يبتسِم للمفتش الذي أرشدنا لطريق الدخول: «وسيحرص على ألَّا أضع الصورة الأصلية في جيبي.»

فقال الأخير وهو يبتسم: «أوه، سأحرص على ذلك»؛ وبينما عاد السيد سينجلتون إلى طاولته، فتح ثورندايك حقيبة الميكروسكوب وأخرجه منها.

صاح السيد سينجلتون وهو يلتفِت ويبتسِم ابتسامةً عريضة: «عجبًا، هل ستضعها تحت الميكروسكوب؟»

فأجابه ثورندايك، وهو يُعِدُّ الميكروسكوب ويُثبِّت عدستَين إضافيتَين إلى القطعة الثلاثية العدسات: «عليَّ أن أكدح بما أكسب من أُجرة.»

وأضاف، مُوجِّهًا حديثه إلى المفتش، وهو يأخذ الورقة من على منضدة السيد سينجلتون ويضعها بين شريحتَين من الزجاج: «ولتُلاحظ أنه لا يوجَد أي خداع.»

فأجابه المفتش ضاحكًا: «أنا أراقبك يا سيدي»؛ وكان يراقبه بالفعل، بانتباهٍ شديد وباهتمام بالغ، في حين وضع ثورندايك شريحتَي الزجاج على منصة الميكروسكوب وشرع ينظر فيه.

راقبتُه أنا أيضًا، وكنت مُستمتعًا كثيرًا بما يفعله زميلي. وبعد نظرةٍ مبدئية باستخدام العدسة المُكبِّرة بمقاس ست بوصات، لفَّ ثورندايك القطعة الحاملة للعدسات ليستخدِم العدسة بمقاس نصف البوصة، ووضع قطعةً عينية أقوى، وأخذ يفحص بُقَع الدماء بحرصٍ شديد، ثم وضع بصمة الإبهام في مجال الرؤية في الميكروسكوب. وبعد أن نظر فيها برهةً باهتمامٍ شديد، استخرج من الحقيبة ساعور كحول صغيرًا بدا أنه كان مملوءًا بمحلولٍ كحولي لأحد أملاح الصوديوم؛ وذلك لأنني تعرَّفت إلى اللهب الأصفر المُميِّز للصوديوم حينما أشعله. ثم أزال إحدى العدسات ووضع مكانها منظارًا طيفيًّا، ولمَّا وضع الساعور الصغير بالقُرب من مرآة الميكروسكوب، عَدَّلَ في وضع المطياف. من الواضح أن صديقي كان يُعَدِّل موضع خطِّ الصوديوم في مجال الطيف.

وبعد أن أجرى تعديلاته، أخذ يفحص لطخات الدم وبصمة الإبهام مرةً أخرى، عبر الضوء المُنبعث وكذلك عبر الضوء المنعكس، وراقبتُه وهو يرسم بسرعةٍ رسمةً بيانيةً أو

نحو ذلك في دفتر ملاحظاته. ثم أعاد المِطياف والساعور إلى الحقيبة وأخرج الميكرومتر — وهو شريحة من الزجاج الرقيق يبلُغ طولها ثلاث بوصات وعرضها بوصةً ونصفًا — فوضعه فوق بصمة الإبهام مكان الشريحة الزجاجية العُليا.

وبعد أن ثبَّته في موضعه بالمشابك، أخذ يُحرِّك الميكرومتر، وأخذ يقارن مظهر البصمة بمظهر النسخة ذات الخطوط على الصورة الفوتوغرافية الكبيرة، والتي كان يمسك بها في يده. وبعد أن استغرق وقتًا في الضبط، بدا عليه الارتياح؛ إذ علَّق موجِّهًا حديثه إليَّ:

«أظن أني جعلتُ الخطوط في نفس الموضع الذي هي عليه في نُسختنا، ومن ثمَّ وبمساعدة المُفتش جونسون، سنلتقِط صورةً يمكننا فحصها في وقتٍ لاحق على راحتنا.»

ثم أخرج الكاميرا من حقيبتها وفتحها، وكانت شريحتها بمقاس ثلاث بوصاتٍ وربع في بوصتَين ونصف. وبعد أن وضع الميكروسكوب على حامله في وضعٍ أفقي، أخرج من حقيبة الكاميرا لوحًا من خشب الماهوجني له ثلاثة أرجل نحاسية، فوضع الكاميرا عليه فجعلها في مستوى القطعة العينية في الميكروسكوب.

وكان مُثبَّتًا على واجهة الكاميرا جُلبة جلدية قصيرة، مصنوعة من جلدٍ رقيق أسود، فمرَّر فيها القطعة العينية الخاصة بالميكروسكوب، وثبَّتها حول ماسورة الميكروسكوب باستخدام حزام قوي من المطاط، وبذا كان قد صنع وصلة تصوير معزولةً تمامًا عن الضوء.

أصبح كل شيء الآن جاهزًا من أجل التقاط الصورة. وبعد أن ركَّز ثورندايك الضوء القادم من النافذة على بصمة الإبهام باستخدام مكثِّف، شرع في ضبط تركيز الصورة على الشريحة الزجاجية بعناية فائقة، ثم وضع غطاءً جلديًّا صغيرًا على العدسة، وأدخل الشريحة المُعتِمة وسحب مصراع الكاميرا.

ثم قال لي وللمُفتش: «يتعيَّن أن أطلب منكما أن تجلسا وتحافظا على سكونكما بينما أضبط التعرُّض. إن اهتزازًا ضئيلًا للغاية كفيلٌ بأن يُخرِّب حِدة الصورة.»

ثم جلسنا، فأزال ثورندايك الغطاء ووقف بلا حراك والساعة في يده، بينما عرَّض الشريحة الأولى.

ثم قال، وهو يُعيد وضع الغطاء ويُغلق المصراع: «يمكننا أيضًا أن نأخذ صورةً ثانية، في حال لم تخرج هذه بالشكل المطلوب.»

وعكس الشريحة المُعتِمة وعرَّض صورة أخرى بالطريقة نفسها، ثم وبعد أن أزال الميكرومتر واستبدل به شريحةً من الزجاج الشفَّاف، الْتقط صورتَين أخريَين.

وعلَّق يقول وهو يستخرج الشريحة المُعتِمة الثانية: «بقيَت شريحتان. أظنُّ أنني سألتقط عليهما صورًا لبقعة الدم.»

ثم الْتقط صورتَين أخريَين، واحدةً لبقعة الدم الكبرى، وواحدة للَّطخات الصغرى.

وقال بنبرة ارتياح وهو يشرع في حزم ما وصفه المُفتِّش بأنه «صندوق الحِيَل»: «أظن أنَّ بحوزتي كل البيانات التي يمكننا انتزاعها من سكوتلانديارد، وأنا مُمتنٌّ لك كثيرًا يا سيد سينجلتون، على تسهيلك للكثير من الأشياء لعدوِّك الطبيعي، محامي الدفاع.»

فاحتجَّ السيد سينجلتون قائلًا: «محامو الدفاع ليسوا أعداءنا الطبيعيين أيها الطبيب. نحن نعمل بهدف الإدانة بالطبع، لكننا لا نُلقي بالعقبات في طريق جهة الدفاع. أنت تعرِف هذا تمام المعرفة.»

أجاب ثورندايك، وهو يصافح المسئول بقوة: «بالطبع أيها السيد العزيز». وأضاف: «ألم أنتفع من مساعداتك مرات عديدة؟ ومع ذلك أنا مُمتنٌّ ومَدين لك على أي حال. إلى اللقاء!»

«إلى اللقاء أيها الطبيب. أتمنَّى لك التوفيق، وإن كنتُ أخشى أن المُهمة مستحيلة هذه المرة.»

ردَّ ثورندايك: «سنرى»، ثم لوَّح بودٍّ للمفتِّش وأخذ الحقيبتَين وتقدَّمني إلى خارج المبنى.

الفصل الرابع

أسرار

أثناء عودتنا سيرًا إلى المنزل، كان صديقي مُستغرِقًا في التفكير وصَموتًا على نحوٍ غير معتاد، وكان على وجهه تعبير ينمُّ عن التركيز، ظننتُ أن بوسعي أن أرى تحته شعورًا مكبوتًا بالإثارة والاستمتاع، وذلك رغم ما هو معتاد منه من جمود الملامح. ومع ذلك أحجمتُ عن الإدلاء بأي تعليقٍ أو طرح أي أسئلة، ليس فقط لأنني رأيتُ أنه كان مشغولًا، ولكن أيضًا لأنني رأيت، من خلال معرفتي بالرجل، أنه سيَعتبر أنَّ مِن واجبه أن يُبقي خُططه وأفكاره طي الكتمان، وألَّا يدلي بأي أسرار ليس ضروريًّا أن يُدلي بها.

ولدى وصولنا إلى مقرِّه سلَّم الكاميرا على الفور إلى بولتون وأعطاه بعض التوجيهات المُقتضبة فيما يتعلَّق بتحميض الشرائح، ولَمَّا كان طعام الغداء جاهزًا بالفعل، جلسنا لتناول الطعام من دون إرجاء.

كنَّا قد شرعنا في تناول الطعام في صمتٍ لبعض الوقت حين وَضَع ثورندايك سكينه وشوكته فجأةً ونظر في وجهي بابتسامةٍ تُعبِّر عن فرحٍ هادئ.

وقال: «لقد أدركتُ الآن يا جيرفيس أنك أكثر الرفاق أُنسًا في العالم. فأنت تملك هبةً ربانيةً وهي الصمت.»

فأجبتُه بابتسامة: «إن كان الصمت اختبارًا للأُنس، فبإمكاني أن أُطري عليك إطراءً مُماثلًا بعباراتٍ أكثر تأكيدًا.»

فضحِك مبتهجًا وأجاب:

«أرى أنك يروق لك أن تتهكَّم؛ لكنني أتمسَّك برأيي. إن القدرة على الالتزام بالصمت في محلِّه هي أندر وأثمن صفات الكياسة الاجتماعية. فمُعظم الناس كانوا سيُمطرونني الآن بأسئلةٍ وتعليقات ثرثارة عمَّا قمتُ به في سكوتلانديارد، أما أنت فقد أعطيتني فرصةً

لفرز كمٍّ من الأدلة وترتيبه دون مقاطعةٍ بينما لا تزال حاضرةً ومُثيرة للدهشة، لقد سمحتَ لي أن أتدبَّر كل عنصرٍ من العناصر وأُصنِّفه في أرفُف ذهني. بالمناسبة، لقد وقعتُ في سهوٍ سخيف.»

فسألته: «وما هو ذا؟»

«إنه يتعلق بسجل بصمات الإبهام. لم أتحقَّق مما إذا كانت الشرطة قد حصلت عليه أم أنه ما زال بحوزة السيدة هورنبي.»

فتساءلت: «وهل هو مُهم؟»

«ليس كثيرًا؛ لكنني في حاجة للاطلاع عليه. لعلَّه يُشكِّل عذرًا ممتازًا من أجل أن تتَّصل بالآنسة جيبسون. وحيث إنني مشغول في المستشفى عصر اليوم، وبولتون مشغول بمهام عديدة عليه أن يُنجزها، ستكون خطةً جيدة لو عرَّجتَ على إندسلي جاردنز — هذا هو العنوان حسبما أظن — وإن تمكَّنتَ من رؤية الآنسة جيبسون، حاول أن تتحدَّث معها على انفراد، وأن تتزوَّد بالمعلومات عن أساليب وعادات السادة هورنبي الثلاثة. تَحلَّ باللطف والابتسام وانتبِه جيدًا. اكتشف كل ما يمكنك اكتشافه عن شخصيات وعادات هؤلاء الرجال الثلاثة، بغضِّ النظر عن كل التحفُّظات التي تتعلَّق بالكياسة. فكل شيءٍ ذو أهمية لنا، حتى ولو كانت أسماء خيَّاطيهم.»

«وماذا بشأن سجل بصمات الإبهام؟»

«اكتشِف من يملكه، وإن كان لا يزال بحوزة السيدة هورنبي، اطلب منها أن تُعيرنا إيَّاه أو احصل على إذنٍ منها لتصويره، وهو ما قد يكون حلًّا أفضل.»

فقلت: «سألتزم بتعليماتك حرفيًّا. سأكون في أفضل حلَّة، وستكون ظهيرة اليوم شاهدةً على أول ظهورٍ لي بشخصية بول براي.»

بعد حوالي الساعة، وجدتُ نفسي أمام باب منزل السيد هورنبي في إندسلي جاردنز أستمع إلى دقات الجرس الذي ضربته الآن.

كرَّرت الخادمة قولي ردًّا على سؤالي: «الآنسة جيبسون يا سيدي؟» وأردفَت: «كانت تتحضَّر للخروج، لكني لستُ واثقةً إن كانت قد غادرت حقًّا. تفضَّل بالدخول وسأذهب لأراها.»

تبعتُ الخادمة إلى غرفة الصالون، ومررتُ بين الطاولات الصغيرة المتناثرة وقطع الأثاث المتنوِّعة التي تُحوِّل بها سيدات اليوم منازلهنَّ إلى ما يُشبه معرضًا لتجارة السلع الاستهلاكية، ثم استقررتُ إلى جوار المِدفأة انتظارًا لما ستأتي به الخادمة.

ولم يطُل انتظاري، ففي غضون أقل من دقيقة، دخلت الآنسة جيبسون بنفسها الغرفة. كانت ترتدي قُبعتها وقفازها، فهنَّأت نفسي على وصولي في الوقت المناسب.

فقالت وهي تمدُّ يدَها بشكلٍ ودود ومنفتح: «لم أتوقع رؤيتك بهذه السرعة يا دكتور جيرفيس، لكنك مُرحَّب بك على أي حال. هل أتيت لتُخبرني بشيءٍ ما؟»

فأجبتُها: «على العكس، بل أتيتُ لأسألكِ عن بعض الأشياء.»

فقالت، وقد بدَت عليها مسحة من الخيبة: «هذا أفضل من لا شيء. هلَّا جلست؟»

جلستُ باحتراسٍ على كرسي صغير بدا عتيقًا ومهترئًا، وغير مريح، وشرعت في العمل من دون مقدمات.

«هل تذكرين شيئًا يُدعى سجل بصمات الإبهام؟»

فأجابت بحماس: «بالتأكيد أذكُره. كان هذا هو سبب كل هذه المتاعب.»

«هل تعرفين إن كان بحوزة الشرطة؟»

«لقد أخذه المُحقِّق إلى سكوتلانديارد حتى يتسنَّى لخبراء البصمات فحصه ومقارنة البصمتَين إحداهما بالأخرى؛ وقد أرادوا الاحتفاظ به، لكن السيدة هورنبي كانت منزعجةً للغاية من فكرة استخدامه دليلًا فسمحوا لها باستعادته. كما ترى، لم يكن لهم به حاجة أخرى؛ فقد كان بإمكانهم أخذ بصمات روبين حين كان رهن الاحتجاز؛ وفي الواقع، تطوَّع هو بأن تُؤخَذ بصماته على الفور بمجرد إلقاء القبض عليه، وهكذا تم الأمر.»

«إذن هذا السِّجل بحوزة السيدة هورنبي في الوقت الراهن؟»

«أجل، إلا إن كانت قد دمَّرته. فقد تحدَّثت عن فعل ذلك.»

فقلتُ بشيءٍ من القلق: «آمُل ألَّا تكون قد فعلت؛ لأن الدكتور ثورندايك مُهتم بشدة، لسببٍ ما، بأن يفحصه.»

«حسنًا، ستنزل السيدة هورنبي في غضون دقائق، وسنتبيَّن الأمر. لقد أخبرتُها أنك هنا. ألدَيك أي فكرة عن سبب رغبة الدكتور ثورندايك في الاطلاع عليه؟»

فأجبتُها: «على الإطلاق. فالدكتور ثورندايك كتوم كالقبر. وهو يتعامل معي كما يتعامل مع الجميع؛ يستمِع بانتباه، ويلاحِظ بدقَّة، ولا ينطق بشيء.»

فقالت الآنسة جيبسون في تأمُّل: «هذا لا يبدو مسلكًا وديًّا جدًّا؛ ومع ذلك فقد بدا الدكتور ثورندايك في غاية اللطف والتعاطف.»

أجبتُ مؤكِّدًا: «هو في غاية اللطف والتعاطف حقًّا، لكنه لا يجعل نفسه ودودًا على حساب إفشاء أسرار مُوكِّليه.»

فقالت مُبتسمة، وإن بدا عليها أنها منزعجة من هذه الملاحظة غير اللبقة نوعًا ما التي أدليتُ بها: «لا أظن أنه يصحُّ أن يفعل ذلك؛ لقد ألجمتني بلجامٍ من القول.»

وبينما كنت أُسارع إلى إصلاح الخطأ الذي وقعتُ فيه بالاعتذار وإدانة النفس، انفتح الباب ودلفت إلى الحجرة امرأة مُسنة. كانت قوية البِنية نوعًا ما، وودودةً وهادئة المظهر، ووقع في نفسي عنها (كي أكون صادقًا تمامًا) أنها تبدو حمقاء بعض الشيء.

قالت الآنسة جيبسون، وهي تُقدِّم لي مُضيِّفتها: «ها هي السيدة هورنبي»؛ وأردفَت: «لقد أتى الدكتور جيرفيس من أجل أن يسأل عن سجلِّ بصمات الإبهام. آمُل أنك لم تُخرِّبيه، هل فعلتِ؟»

فأجابت: «كلَّا يا عزيزتي. إنه في مكتبي الصغير. ماذا يريد الدكتور جيرفيس أن يعرف بشأنه؟»

ولَمَّا رأيتُ أنها مرتاعة من أن تنزل عليها مفاجأة رهيبة أخرى كالصاعقة، أسرعتُ أطمئنها.

فقلت: «زميلي الدكتور ثورندايك يرغب في فحصه. إنه يتولَّى أمر الدفاع عن ابن أخ زوجكِ، كما تعرفين.»

فقالت السيدة هورنبي: «أجل، أجل. أخبرَتني جولييت عنه. إنها تقول إنه عزيز جدًّا. هل تتفق معها؟»

هنا وقعت عيني على عين الآنسة جيبسون فوجدتُ فيها تلألؤًا مرحًا، ولاحظتُ احمرارًا أشدَّ في وجنتَيها.

فأجبتُ بمراوغة: «في الواقع، لم أنظر إلى زميلي قطُّ بعين الحُب والاعتزاز، لكنني أُنزله مقامًا عاليًا في كل شأنٍ وصدد.»

فقالت الآنسة جيبسون، وهي تتغلَّب على الشعور المؤقَّت بالإحراج الذي نتج عن تكرار السيدة هورنبي لجُملتها بسذاجة: «هذا ولا شك هو المرادف الذكوري. أرى أن التعبير الأنثوي عملي وشمولي أكثر. لكن لنعُد إلى غرض زيارة الدكتور جيرفيس. هلَّا سمحتِ له بالحصول على سجلِّ بصمات الإبهام يا عمة، ليعرضه على الدكتور ثورندايك؟»

فردَّت السيدة هورنبي: «آهٍ يا عزيزتي جولييت، إنني على استعدادٍ لأن أفعل أي شيء، أي شيء، لأُساعد ابننا المسكين. لن أُصدِّق أبدًا أن يكون قد اقترف جرم السرقة؛ السرقة بهذه الطريقة المُبتذلة والفاحشة. ثمة خطأ مهول، أنا مقتنعة بهذا، وقد أخبرتُ المُحقِّقين بذلك. أكَّدت لهم أن روبين لا يمكن أن يكون قد ارتكب السرقة، وأنهم مُخطئون تمامًا

في ظنِّهم أنه قادر على إتيان فعلٍ كهذا. لكنهم لم يسمعوا لي، رغم أنني أعرفه منذ كان طفلًا صغيرًا، ولا بد أن يكون لديَّ القدرة على الحكم على ذلك، إن كان هناك من يُمكنه أن يفعل. الألماس! أسألك، ما حاجة روبين إلى الألماس ولم يكن قد صيغ بعدُ حتى؟»

وهنا أخرجت السيدة هورنبي منديلًا حوافُه مِن الدانتيل ومسحت به عينَيها.

فقلتُ بغرَض وقف أمواج تأمُّلاتها: «أنا واثق أن الدكتور ثورندايك سيكون مُهتمًّا كثيرًا بسجلكِ الخاص.»

فأجابت: «أوه، سجل بصمات الإبهام. أجل، سأسمح له أن يحصل عليه بكل سرور. أنا سعيدة بأنه يرغب في الاطلاع عليه؛ فهذا يجعلني أشعر بالأمل؛ لأن هذا يجعلني أعرف أنه يولي القضيةَ اهتمامًا كبيرًا. هل تُصدِّق هذا يا دكتور جيرفيس؟ أولئك المُحقِّقون كانوا يريدون أن يحتفظوا به ليأتوا به دليلًا ضد ذلك الفتى المسكين. سجِّلي أنا! لكنني تمسَّكتُ بموقفي فتعيَّن عليهم إعادته لي. إذ عزمتُ على ألَّا يحصلوا على أي مساعدة منِّي في مسعاهم لتوريط ابن أخي زوجي في هذه المسألة المُريعة.»

فقالت الآنسة جيبسون: «إذن، لعلكِ تُعطين الدكتور جيرفيس هذا السجل، وبإمكانه أن يُعطيه هو إلى الدكتور ثورندايك.»

فقالت السيدة هورنبي: «بالطبع سأفعل؛ على الفور؛ ولستُ في حاجة، يا دكتور جيرفيس، لأن تُعيده. حين تنتهي منه، ألْقِ به في النار. لا أرغب في رؤية ذلك الشيء مجددًا.»

لكنَّني كنتُ قد أخذت أُفكِّر سابقًا في المسألة، وتوصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أن سيكون من الحماقة والطيش أن نأخذ السجل من حوزة السيدة هورنبي، فشرعت الآن أشرح هذا الموقف.

وقلت: «ليس عندي أي فكرة عن غرَض الدكتور ثورندايك من وراء فحصه، لكن لعلَّه يرغب في وضعه ضِمن الأدلَّة، وفي هذه الحال، سيكون من الأفضل ألَّا يخرج عن حوزتكِ في الوقت الراهن. إنما طلب منِّي الدكتور ثورندايك أن أستأذنكِ في تصويره.»

فقالت السيدة هورنبي: «أوه، إن كان يريد تصويره فوتوغرافيًّا، فسأتدبَّر له أمر ذلك من دون أي صعوبة. سيلتقِط والتر ابن أخي زوجي صورةً له من أجلِنا إن طلبتُ منه ذلك، أنا واثقة. إنه ماهر للغاية كما تعلم؛ أليس كذلك يا عزيزتي جولييت؟»

أسرعت الآنسة جيبسون تجيب: «أجل يا عمة، لكنني أتوقَّع أنَّ الدكتور ثورندايك سيرغب في أن يلتقِط الصورة الفوتوغرافية بنفسه.»

فوافقتُها قائلًا: «أنا واثق من أنه سيرغب في ذلك. في الحقيقة، إن الْتقط أحدٌ غيره الصورة فلن تكون ذات نفعٍ له.»

فقالت السيدة هورنبي بنبرةٍ جريحة بعض الشيء: «آه، أتظنُّ أن والتر مجرد هاوٍ؛ إنك ستندهش لو أريتُك بعض الصور التي يلتقطها. أؤكِّد لك أنه ماهر للغاية.»

سألتني الآنسة جيبسون: «أتودُّ أن نُحضر السجلَّ إلى مقرِّ الدكتور ثورندايك؟ من شأن هذا أن يوفِّر الوقت والعناء.»

فشرعت أقول: «إنه لُطف مُفرط من جانبكم ...»

«لا عليك مطلقًا. متى نُحضره؟ هل تودُّ أن تحصل عليه هذا المساء؟»

فأجبت: «نود ذلك كثيرًا. حينها سيكون بإمكان زميلي فحصه واتخاذ قرارٍ بشأن ما يتعيَّن فعله به. لكن هذا سيُسبِّب لكم الكثير من العناء.»

فقالت الآنسة جيبسون: «لا عليك من ذلك. أنتِ لا تُمانعين القدوم معي هذا المساء يا عمتي، أليس كذلك؟»

ردَّت السيدة هورنبي: «بكل تأكيد لا أُمانع على الإطلاق، يا عزيزتي»، وكانت على وشك أن تُسهِب في الكلام حين نهضت الآنسة جيبسون ونظرت في ساعتها وصَرَّحَت بأن عليها التوجُّه لإنجاز أمرٍ ما على الفور. فنهضتُ أنا أيضًا لأنصرف، فعلَّقت الآنسة جيبسون قائلة:

«إن كانت وجهتك هي وجهتي نفسها يا دكتور جيرفيس، فبإمكاننا ترتيب موعد الزيارة إليكم بينما نمضي في طريقنا.»

ولم أتباطأ في استغلال هذه الدعوة، وفي غضون ثوانٍ لاحقة، كنَّا قد غادرنا المنزل معًا، تارِكين السيدة هورنبي مبتسمةً ابتسامة حمقاء في إثرنا أمام الباب المفتوح.

وسألتني الآنسة بينما نتقدَّم سيرًا في الشارع: «في ظنك، هل ستكون الثامنة موعدًا مناسبًا؟»

فأجبتُها: «أوافق تمامًا على أنه سيكون موعدًا مناسبًا للغاية. وإن برز شيء يجعل اللقاء غير مُمكن، سأُرسل إليكِ برقية. كنتُ أتمنَّى لو تأتين بمفردكِ؛ فاجتماعنا سيكون لأغراض العمل.»

فضحكت الآنسة جيبسون ضحكةً ناعمة، وكم كانت ضحكتها جذابةً وشجيَّة.

وقالت موافِقة: «أجل. فالسيدة هورنبي العزيزة تميل إلى الإسهاب ومن الصعب أن تلتزِم بموضوعٍ واحد؛ لكن يتعيَّن على المرء أن يكون متسامحًا مع سقطاتها الصغيرة؛ ستُسامحها لو كنت قد تعرَّضت لعطفها وكرمها كما تعرَّضتُ أنا.»

فأجبتُها: «أنا واثق من أني سأفعل؛ بل في الواقع أنا متسامح معها الآن حقًّا. ففي نهاية المطاف، القليل من الإطناب في الحديث وغموض الأفكار لا يُمثِّلان سقطاتٍ كبرى لامرأةٍ سخيَّة في سنِّها.»

منحتني الآنسة جيبسون، ردًّا على هذا الرأي السديد، ابتسامةً صغيرةً تنمُّ عن الاستحسان والتصديق، ورُحنا نسير بُرهةً في صمت. ثم التفتت لي فجأةً وبتعبيرٍ جادٍّ للغاية، وقالت:

«أريد أن أطرح عليك سؤالًا يا دكتور جيرفيس، وسامِحني رجاءً إن طلبتُ منك أن تضع جانبًا تحفُّظك المِهني ولو قليلًا من أجل خاطري. أُريدك أن تُخبِرني إن كان الدكتور ثورندايك يرى أملًا أو توقعًا لأن يكون قادرًا على إنقاذ روبين المسكين من هذا الخطر المُهلك الذي يتهدَّده.»

كان هذا سؤالًا مباشرًا إلى حدٍّ كبير، وقد تريَّثت لأفكِّر فيه قبل أن أُجيب.

فقلتُ أخيرًا: «سأُخبرك بالقدر الذي يُلزِمني به واجبي تجاه زميلي أن أخبرك؛ لكن هذا يُعَد أقلَّ من أن يكون جديرًا بأن يُقال. ومع ذلك، يمكنني أن أقول لكِ الآتي من دون أن أكون قد أفشيتُ سرًّا: الدكتور ثورندايك تولَّى القضية وهو يعمل عليها بكد، وبكل تأكيد ما كان سيفعل لا هذا ولا ذاك إن كان يرى أن المسألة ميئوس منها.»

فقالت هي: «هذه وجهة نظر مُشجِّعة للغاية في المسألة، وكانت قد تبادرت إلى ذهني بالفعل. هل لي أن أسأل إن كان أي شيء قد تمخَّض عن زيارتكما إلى سكوتلانديارد؟ أرجوك، لا تظن أني متطفلة؛ إنما أنا في غاية القلق والاضطراب.»

«لا يسعني أن أُخبرك إلا بالقليل جدًّا عن نتائج رحلتنا؛ لأني لا أعلم إلا القليل؛ لكن تُراودني فكرة أن الدكتور ثورندايك ليس مستاءً من العمل الذي أجراه في الصباح. من الواضح أنه أمسك بخيوط بعض الوقائع، وإن كنتُ لا أملك أدنى فكرة عن طبيعتها، وبمجرد أن وصلنا إلى المنزل، راوَدَته رغبة مفاجئة في أن يفحص سجلَّ بصمات الإبهام.»

فقالت بامتنان: «أشكرك يا دكتور جيرفيس. لقد أثلجتَ صدري أكثر ممَّا يُمكنني أن أصف لك، ولن أطرح عليك المزيد من الأسئلة. هل أنت واثق أنني لا أحيد بك عن وجهتك؟»

فأجبتُها على عجل: «على الإطلاق. في الواقع، كنتُ قد أردتُ أن أحظى بمحادثة صغيرة معكِ بعد أن ننتهي من أمر سجلِّ البصمات؛ لذا يُمكنني أن أقول إنني أمزج بعض العمل بقدْر كبير من الاستمتاع، إن كانت رفقتي لكِ مقبولة.»

فأحنت رأسها انحناءةً صغيرة ساخرة وسألت:

«إذن باختصار، يمكنني أن أتوقَّع أنك ستستجوبني لاستخراج معلوماتٍ منِّي؟»

فرددت: «بحقكِ، أنتِ من كنتِ تستخرجين مني المعلومات بحماسٍ شديد. لكن هذا ليس مقصدي على الإطلاق. كما ترين، نحن غريبان تمامًا عن كل الأطراف المَعنية بالقضية، الأمر الذي يؤدي بالطبع إلى تقييمٍ موضوعي بشأن شخصياتهم. لكن في نهاية المطاف، المعرفة مفيدة لنا أكثر من الموضوعية. مثال على ذلك، موكلنا. لقد ترك انطباعًا إيجابيًّا للغاية لدى كِلَينا، حسبما أظن؛ لكن ربما كان الشابُّ محتالًا وجيهًا وله سجلٌّ في غاية السوء. ثم تأتين وتُخبريننا أنه شابٌّ نبيل المَحتِد وذو شخصية لا تشوبها شائبة فنُصبح على الفور أكثر تثبُّتًا.»

فقالت الآنسة جيبسون وهي مُمعِنة في التفكير: «فهمت، وهب أنني أخبرتكما — أو أن أحدًا آخر أخبركما — بأشياء تُسيء إليه. هل كان ما قُلنا سيؤثِّر على سلوككما تجاهه؟»

فأجبتها: «عندئذٍ فقط، كان سيتعيَّن علينا أن نستقصي حقيقة ما يُقال وأن نتيقَّن من أصلِه.»

«أظن أن ذلك هو ما ينبغي أن يفعله المرء دومًا»، هكذا قالت وهي لا تزال غارقةً في التفكير، الأمر الذي شجَّعني على سؤالها:

«هل لي أن أسألك إن كان أحدٌ من معارفكِ قد قال شيئًا ليس في صالح السيد روبين؟»

تفكرَت مليًّا قبل أن تُجيبني وقد ثبَّتت عينَيها على الأرض مستغرقةً في التفكير. وأخيرًا قالت بشيء من التردد:

«إنه أمر بسيط وربما لا يمتُّ لهذه المسألة بصِلة. لكنه سبَّب لي اضطرابًا كبيرًا، حيث تسبَّب هذا إلى حدٍّ ما في وضع حائلٍ بيني وبين روبين؛ وقد كنَّا من قبلُ صديقَين حميمَين. وقد لُمتُ نفسي على السماح لهذا الأمر أن يؤثِّر — ربما بشكلٍ مُجحف — على رأيي فيه. سأخبرك بالأمر، وإن كنتُ أتوقَّع أنك ستراني في غاية الحماقة.

لا بد أن تعرف أنني وروبين كنا مُقرَّبين للغاية حتى قبل حوالي ستة أشهر، رغم أننا لم نتجاوز إطار الصداقة، كما تفهم. لكننا كنا في منزلة الأقارب؛ لذا لم يكن هناك شيء غير

عادي بشأن صداقتنا. كما أن روبين طالِب نَهِم للفنون من العصور القديمة والوسطى، وهذا أيضًا موضع اهتمامٍ كبير عندي؛ لذا اعتدنا زيارة المتاحف وصالات العرض معًا، كما اعتدنا على الاستمتاع كثيرًا بمقارنة آرائنا وانطباعاتنا عما رأينا وشاهدنا.»

وتابعت: «وقبل حوالي ستة أشهر، تنحَّى بي والتر جانبًا ذات يوم، وبوجهٍ في غاية الجدِّية سألني إن كان هناك تفاهُم من نوع ما بيني وبين روبين. حينها رأيتُ أن في سؤاله هذا وقاحةً من جانبه، ورغم هذا أخبرتُه بالحقيقة، وهي أنني وروبين مجرد صديقَين لا أكثر.

فقال لي وهو مُتجهِّم للغاية: «إن كان هذا هو الحال، فأنصحكِ بألَّا تقضي معه كثيرًا من الوقت على مرأًى من الناس.»

فسألته بطبيعة الحال: «ولِمَ لا؟»

فقال لي والتر: «الأمر أن روبين أحمق بغيض. فقد كان يُثرثر مُتحدِّثًا إلى الرجال في النادي، ويبدو أنه ترك فيهم انطباعًا بأن سيدةً شابة ذات حسَب ومال تُثابر في نصب شباكِها حوله، ولكن لأنه فيلسوف سامي الروح ولا يتأثَّر بالمُغريات التي يتأثَّر بها غيره من البشر العاديين، فإنه أرفع منزلةً من مداهنتها ومن الانجذاب إلى أموالها»، وأضاف: «لقد نبَّهتكِ من أجل إرشادكِ، ولا أريد لِمَا سمعتِ منِّي أن يخرج إلى ثالثٍ غيرنا. ويجب ألَّا تغضبي من روبين. فأفضل الشبان غالبًا ما يتصرَّفون بتصلُّف وغباء، ولا شكَّ عندي في أن الناس قد بالغوا كثيرًا فيما قال؛ لكنني ارتأيتُ أن من الصائب أن أنبِّهكِ.»»

وتابعت: «الآن وكما قد تخمن، جعلني ما قاله والتر في غاية الغضب، فأردتُ أن أواجِه به روبين من فوري. لكن والتر رفض السماح بهذا؛ إذ قال: «لا فائدة من أن تنفجري فيه غضبًا»، وأكَّد لي أنه قال لي إن الأمر يجب أن يبقى طيَّ الكتمان؛ فماذا كان ينبغي بي أن أفعل؟ لقد حاولتُ تجاهل الأمر وأن أُعامل روبين كعادتي معه دائمًا، لكنني وجدتُ هذا مستحيلًا؛ فكبريائي الأنثوي أُصيب بجرحٍ بالِغ. ومع ذلك، شعرت بدناءة شديدة أن تُخالجني هذه الأفكار من دون أن أمنحه فرصة الدفاع عن نفسه. ورغم أن ما قيل لم يكن من شِيَم روبين من بعض الجوانب، كانت جوانب أخرى منه تُشبهه جدًّا؛ لأنه كان دائمًا ما يُعبِّر عن ازدرائه للرجال الذين يتزوَّجون امرأةً تعولهم. وهكذا ظَلِلتُ عالقةً في هذه المعضلة، وما زلت. في رأيك، ماذا كان ينبغي أن أفعل؟»

فركتُ ذقني في شيءٍ من الإحراج من هذا السؤال. ومن نافلة القول أنني كرهت سلوك والتر هورنبي، ولم أجد ولو ميلًا قليلًا لأن ألوم رفيقتي الجميلة على الإصغاء إلى

ذمِّه الخبيث لابن عمِّه؛ لكن من الواضح أنني لستُ في موقفٍ يُخوِّل لي الحكم على حيثيات الأمر بغير تفكير.

فقلت بعد أن سكتُّ برهة: «يبدو لي أن الأمر كالآتي: إما أن روبين تحدَّث عنكِ بسوء وبالباطل، أو أن والتر كذب بشأنه عامدًا.»

فقالت موافقة: «أجل، هذا هو الموقف؛ لكن أيهما يبدو لك أكثر رجوحًا؟»

فأجبتها: «تحديد هذا أمر في غاية الصعوبة. فثمة أوغاد من فئة مُعيَّنة يميلون إلى التبجُّح بمغامراتهم وعلاقاتهم. ونحن جميعًا نعرف هؤلاء ونستطيع عمومًا التعرُّف إليهم بمجرد رؤيتهم، لكن يتعيَّن أن أقول إنني لم أجد روبين هورنبي من هذا النوع على الإطلاق. وحينها يتَّضح أن التصرُّف الملائم من جانب والتر، إن كان حقًّا قد سمع هذه الإشاعات، أن يناقش المسألة مع روبين، عوضًا عن أن يهمس إليكِ بهذه الأقاويل. هذا هو حدسي، لكن بالطبع، قد أكون مخطئًا بشأنه. لكنني أظنُّ أن صديقَينا الشابَّين ليسا رفيقَين مقرَّبين، صحيح؟»

«بل هما رفيقان مقرَّبان جدًّا، لكن كما ترى، اهتماماتهما وآراؤهما بشأن الحياة مختلفة تمامًا. فروبين وإن كان موظفًا ممتازًا أثناء ساعات العمل؛ فهو تلميذ، أو ربما ما يمكن أن يُطلِق عليه المرء باحثًا، في حين أن والتر أمْيَل إلى أن يكون رجلًا عمليًّا؛ فهو قطعًا فطِن وداهية. ولا شك في مهارته، كما قالت السيدة هورنبي.»

فأشرت: «هو يلتقط الصور، على سبيل المثال.»

«أجل. لكن ليست صور هواة عادية؛ فعمله يغلب عليه الطابع الفني والإتقان. فقد أبدع مثلًا سلسلةً من الصور الفوتوغرافية الدقيقة لقطاعاتٍ من الصخور المعدنية، وقد استنسخها من أجل طباعتها باستخدام عملية الطباعة الضوئية، بل إنه طبع الشرائح بنفسه.»

«فهمت. لا بد أنه بارع جدًّا في هذا.»

فقالت مُقرَّة: «حقًّا هو كذلك، وهو حريص كل الحرص على تحقيق مكانةٍ عالية لنفسه؛ لكن أخشى أنه مُولَع بالمال من أجل المال في حدِّ ذاته، وهذه ليست سمةً جذَّابة في السمات الشخصية للشاب، أليس كذلك؟»

وافقتُها على قولها.

وأردفت الآنسة جيبسون تقول، وكأنها عرافة حكيمة: «الحرص المُفرط على الجوانب المادية مآلُه اتباعُ طرائق فاسدة في جمع المال؛ أوه، لستَ في حاجة لأن تبتسِم ردًّا على أقوالي

الحكيمة يا دكتور جيرفيس؛ فهذا صحيح كل الصحة، وأنت عليم بهذا. الأمر أنني أحيانًا ما يُراوِدني شعور مزعج بأن رغبة والتر في أن يُحقِّق الثراء تميل به لأن يُجرِّب طُرقًا تبدو سريعةً وسهلة في جمع المال. فثمة صديق له — اسمه السيد هورتون — يعمل وسيطًا في البورصة، وهو «يدير» عملًا على نطاق واسع — أعتقد أن التعبير المستخدَم في هذا السياق هو «الإدارة»، وإن كان يبدو أن الأمر لا يعدو المقامرة العادية — وقد راودتني الشكوك أكثر من مرةٍ في أن والتر منخرط فيما يُطلِق عليه السيد هورتون «مراهنة صغيرة».»

فعلَّقتُ بحصافة وموضوعية شخصٍ مُفلس ومن ثمَّ متماسك وغير مُنبهر: «لا أجد في هذا التصرُّف ما ينمُّ على الفطنة.»

فقالت موافِقة: «بالفعل. لكن المقامر دائمًا ما يظنُّ أنه سيحقِّق الربح؛ وإن كنتُ لا أريد أن أترك لديك انطباعًا بأن والتر مُدمن على المقامرة. ها قد وصلتُ إلى وجهتي. أشكرك على مرافقتي هذا القدْر من الطريق، وآمُل أن يكون إحساسك بالغربة عن عائلة هورنبي قد انحسر عنك قليلًا. سنأتي لزيارتكما الليلة في تمام الثامنة.»

مدَّت لي يدَها بابتسامةٍ بيِّنة، وارتقت برشاقةٍ الدرج المؤدي إلى باب الشارع؛ وحين عاودتُ النظر إليها، بعد أن عبرتُ الطريق، أومأَت لي بإيماءةٍ صغيرة ودودة وهي تلتفِت لتدخل المنزل.

الفصل الخامس

سجل بصمات الإبهام

علَّق الدكتور ثورندايك حين التقَينا على طاولة الطعام، وقد أمددتُه بموجز لمغامراتي ظهر اليوم: «أرى إذن أنك ألقيتَ شباكك في مياهٍ هادئة ومعتدلة بحديثك مع نساء آل هورنبي.»

فأجبتُه: «أجل، وإليك صيد اليوم طازجًا وجاهزًا.»

وضعتُ على الطاولة اثنتَين من مفكراتي كنتُ قد سجَّلت فيهما ما استطعتُ استخراجَه من معلوماتٍ من خلال حديثي مع الآنسة جيبسون.

فقال ثورندايك: «سجلتَ المعلومات بمجرد أن عدتَ على ما أظن، صحيح؟ بينما كانت لا تزال حاضرةً في ذهنك؟»

«دوَّنتُ ملاحظاتي حين جلستُ على مقعدٍ في كينزنجتن جاردنز في غضون خمس دقائق بعد أن افترقتُ عن الآنسة جيبسون.»

فقال ثورندايك: «جيد! والآن لنرَ ما جمعت.»

ألقى نظرةً سريعةً على المدخلات في الدفترَين، وفي مرة أو مرتَين كان يُعيد النظر فيها، ووقف صامتًا وذاهلًا لبضع لحظات. ثم وضع المُفكرتَين على الطاولة بإيماءةٍ تنمُّ على شعوره بالرضا.

وقال: «معلوماتنا إذن كالآتي: روبين موظف دءُوب في عمله، وفي وقت فراغه، يدرس فنون العصور القديمة والوسطى؛ ومن المُحتمَل أن يكون أحمق وثرثارًا ووغدًا أو أنه، على العكس، مفترًى عليه ويتعرَّض لقذعٍ شديد.»

وأضاف: «ومن الواضح أن والتر هورنبي خبيث وعلى الأرجح كاذب؛ وهو رجل أعمال بارع، وربما كان باحثًا عن الثراء السريع في سوق المال في شارع ثروجمورتون؛

ومصوِّر فوتوغرافي محترف وعليم بعملية الطباعة الضوئية. لقد أديتَ عملًا ممتازًا اليوم يا جيرفيس. أتساءل إن كنت ترى مَغزى المعلومات التي جمعتها.»

فأجبته: «أظن أنني أرى مغزى بعضها؛ لقد كوَّنتُ، على الأقل، آراءً محددة.»

قال: «احتفظ بها لنفسك إذن يا صديقي، حتى لا أشعر أن عليَّ أن أبوح بما في صدري من آرائي الخاصة.»

أجبت: «سأُفاجَأ كثيرًا إن أنت فعلتَ يا ثورندايك، وما كنت لأرغب في معرفة رأيك الآن. فأنا أُدرك تمامًا أن آراءك ونظرياتك ملك موكلك ولا ينبغي استخدامها في الترفيه عن أصدقائك.»

ربَّت ثورندايك على ظهري مُداعبًا، لكنه بدا مسرورًا بصورة غير معتادة، وقال بإخلاص واضح: «أنا مُمتن لك حقًّا على قولك هذا؛ لأنني شعرتُ بشيء من الحرَج من كوني صموتًا معك وأنت تعرِف الكثير عن هذه القضية. لكنك مُحق، وأنا مسرور بأن أجدك بهذا القدْر الكبير من الفطنة والتعاطف. أقل ما يُمكنني فعله في ظل هذه الظروف هو أن نفتح زجاجةً من نبيذ بومار، وأن نشرب نخب زميلٍ بهذا القدر من الإخلاص والتعاون. آه. حمدًا للرب! ها هو بولتون، ككاهن قرابين تتبعه نكهة اللحم المَشويِّ الطيبة.» ثم أردف وهو يستنشِق الرائحة: «أتوقَّع أنها شريحة من لحم الخاصرة، إنها طيبة وكأنها مقدَّمة للإله شماش (لست في حاجةٍ لأن أقول إن هذه التورية كانت عَفْوية) أو لطبيبٍ شرعي شرِه. هلَّا فسَّرتَ لي يا بولتون، كيف أن شريحة لحم الخاصرة التي تُعِدها أفضل من أي شريحة لحمٍ غيرها؟ هل يعود هذا لأنك تملك ثيرانًا من نوعيةٍ خاصة؟»

تجعَّدت الملامح الجافة على وجه الرجل الضئيل الجسم من سعادته حتى صار وجهه مليئًا بالخطوط، وكأنه رسم تخطيطي لتقاطُع كلابام.

وأجاب: «ربما كان السبب هو المعاملة الخاصة التي تتلقَّاها يا سيدي. فعادةً ما أرضُّها في الهاوُن قبل أن أطهوَها، لكن من دون أن أُصيب ألياف الشريحة بالضرَر، ثم أُسخِّن فرن البوتقة الصغير إلى حوالي ٦٠٠ درجة مئوية، ثم أضع شريحة اللحم فيه على حاملٍ ثلاثي.»

فضحك ثورندايك على الفور. وصاح: «تستخدِم فرن البوتقة أيضًا. يا له من استخدامٍ ذميم لهذه الأداة ... لكنني في نهاية المطاف لا أعرف إن كان هذا مذمومًا. على أي حال

يا بولتون، افتح زجاجةً من نبيذ بومار وضع شريحتَي «معالجة» مقاس عشرة في ثمانية في الشرائح المُعتِمة. فأنا أتوقَّع قدوم سيدتَين إلى هنا هذا المساء ومعهما وثيقة.»

فتساءل بولتون وقد بدا الانتباه على تعبيرات وجهه: «هل ستأتي بالسيدتَين إلى الطابق العلوي يا سيدي؟»

أجابه ثورندايك: «أتوقَّع أني سيتعيَّن عليَّ ذلك.»

فقال بولتون، الذي كان من الواضح أنه يعي الفارق بين الرأي الذكوري والأنثوي عن المظهر الملائم لمحلِّ العمل: «إذن سأعمل على تحسين منظر المُختبر قليلًا.»

قال لي ثورندايك بعد أن هدأت شراهته إلى حدٍّ ما: «إذن تقول إن الآنسة جيبسون أرادت الاطلاع على آرائنا الخاصة في القضية؟»

فأجبته: «أجل»؛ ثم كرَّرت عليه محادثتنا بقدْر ما استطعتُ أن أتذكَّر منها.

علَّق ثورندايك: «إجابتك كانت في غاية الحصافة والدبلوماسية، وكان من الضروري جدًّا أن تكون كذلك؛ لأن من الجوهري ألَّا نُري سكوتلانديارد ما لدَينا من أوراق للعب؛ وإن كنا سنفعل ذلك مع سكوتلانديارد، فحريٌّ بنا أن نفعله مع العالم أجمع. نحن نعرِف ورقتهم الرابحة، وبإمكاننا ترتيب أوراقنا على هذا الأساس، ما دُمنا لا نكشف أوراقنا.»

«أنت تتحدَّث عن رجال الشرطة وكأنهم خصومك؛ لاحظتُ هذا في سكوتلانديارد صباح اليوم، وفوجئت أنهم تقبَّلوا هذه المرتبة. لكن من المؤكَّد أن عملَهم هو اكتشاف المُجرم الحقيقي، لا تثبيت الجريمة على شخصٍ بعينه.»

أجابني ثورندايك: «من المُفترَض أن يكون الأمر كذلك، لكن في الواقع، الأمر مغاير ومختلف. حين يُلقي رجال الشرطة القبض على أحدهم، فإنهم يعملون من أجل إدانته. فإن كان الرجل بريئًا، فهذا شأنه هو لا شأنهم؛ فهو الذي يتعيَّن عليه أن يثبت براءته. هذا النظام خبيث ووخيم؛ لا سيما وأن كفاءة ضابط الشرطة، بالتبعية، عُرضة لأن تتحدَّد بعدد الإدانات التي يُحقِّقها، ومن ثَمَّ يُقَدَّم له حافز ليحصل على إدانة إن أمكن؛ لكن هذا جزء من الإجراء التشريعي عمومًا. والمحامون لا ينخرطون في المناقشات الأكاديمية أو في السعي للحصول على الحقيقة، لكنهم يحاولون بأي وسيلةٍ أن يُبرهنوا على مسألة بعينِها بغضِّ النظر عن حقيقتها الفعلية أو حتى عن الاعتقاد الشخصي للمحامي بشأن المسألة. هذا هو ما يُسبِّب الكثير من الاحتكاك بين المحامين والشهود من الخبراء في علمٍ ما؛ فكل فريق لا يستطيع فهم وجهة نظر الآخر. لكن لا ينبغي أن نجلس إلى الطاولة ونثرثر هكذا؛ لقد تجاوزتِ الساعة السابعة والنصف، وسيرغب بولتون في تحسين منظر هذه الحجرة.»

فعلَّقت قائلًا: «أُلاحظ أنك لا تستخدِم مكتبك كثيرًا.»

«بل قل إنني نادرًا ما أستخدِمه، باستثناء استخدامه مستودعًا للوثائق والأدوات المكتبية. أجد أن تبادل الحديث في المكتب باعث على البؤس، ومعظم أعمالي غالبًا ما تجري مع مُستشارين قانونيين أكون على معرفةٍ بهم؛ لذا ليس هناك حاجة لهذه الرسميَّات. لا بأس يا بولتون، سنكون على استعدادٍ في غضون خمس دقائق.»

كان جرس ساعة منطقة تيمبل يدق مُعلنًا الثامنة حين فتحتُ الباب المُحاط بالحديد؛ وبينما كنتُ أفتحه، أتى صوت الخطوات من الدرج بالأسفل. انتظرتُ زائرتَينا على فاصل الدرج، وتقدَّمتُهما إلى داخل الغرفة.

وحين قدَّمت الدكتور ثورندايك إلى السيدة هورنبي قالت: «يسرني كثيرًا أن أتعرف إليك؛ فقد سمعتُ عنك الكثير من جولييت ...»

فقالت الآنسة جيبسون مقاطِعة، وقد وقعت عينها في عيني ووجدتُ فيها نظرة انتباه هزلي: «حقًّا يا عمتي العزيزة، هكذا ستتركين لدى الدكتور ثورندايك انطباعًا خاطئًا للغاية. لم أقل إلا أنني تطفَّلت عليه من دون سابق إنذار وأنه استقبلني بحفاوة وتقدير بالغَين.»

فقالت السيدة هورنبي: «لم تُخبريني عن الأمر بهذه الصياغة يا عزيزتي، لكن لا يُهم.»

فقال ثورندايك، وهو يرمق بنظرةٍ سريعة السيدة الشابة التي ابتسمت ابتسامةً مرتبكة: «نحن مُمتنَّان للغاية بحديث الآنسة جيبسون اللطيف عنا، بغضِّ النظر عن شكل التعبير عنه؛ كما أننا مَدينان لكِ كثيرًا لتحمُّلكِ العناء في سبيل مساعدتنا.»

فأجابت السيدة هورنبي: «لا عناء على الإطلاق، بل إن هذا من دواعي سروري»؛ وشرعَت تُسهب وتُطنب حتى كادت تعليقاتها تمتد إلى ما لا نهاية، مثل الدوائر المُتموِّجة التي يُحدثها سقوط حجَر في الماء. ووسط هذا الحديث، وضع ثورندايك كرسيين من أجل السيدتَين، واستند إلى المدفأة وثبَّت نظرةً جامدةً على الحقيبة الصغيرة التي تتدلَّى من معصم السيدة هورنبي.

فقاطعَتها الآنسة جيبسون، ردًّا على هذا الطلب الصامت: «هل سِجل البصمات في حقيبتكِ؟»

فأجابتها المرأة العجوز: «بالطبع يا عزيزتي جولييت. لقد رأيتِني وأنا أضعه. يا لكِ من فتاة غريبة الأطوار! أتعتقدِين أنه كان يتعين عليَّ أن أُخرجه من الحقيبة وأضعه

في مكانٍ آخر؟ لا أقصد أن هذه الحقائب آمنة بحق، وإن كنت أظن أنها أكثر أمانًا من الجيوب، خاصةً الآن وقد صار من الموضة أن تصبح الجيوب في الجانب الخلفي من الملابس. ومع ذلك، فكَّرت كثيرًا كم سيكون سهلًا على السارقين واللصوص أو غيرهم من هذه المخلوقات البغيضة أن يختطفوا منكِ ما معكِ؛ لقد حدث هذا في واقع الأمر. إذ كنت أعرف سيدةً — اسمها السيدة موجريدج، أنتِ تعرفينها يا جولييت — كلا، لم تكن السيدة موجريدج، تلك مسألة أخرى، بل كان اسمها السيدة ... السيدة ... بحق السماء، كم أنا سخيفة! ... ماذا كان اسمها؟ أتستطيعين مساعدتي يا جولييت؟ لا بد أنكِ تتذكَّرين تلك المرأة. كانت تزورنا كثيرًا في هولي جونسونز ... أظن أنها كانت تأتي إلى هولي جونسونز، وإلا فإن هؤلاء كانوا قومًا آخرين ...»

فقاطعَتْها الآنسة جيبسون قائلة: «ألن يكون من الأفضل لو أعطيتِ الدكتور ثورندايك سجلَّ البصمات؟»

«عجبًا، بالطبع يا عزيزتي جولييت. ألم نأتِ إلى هنا من أجل هذا؟» وبتعبيرٍ ينمُّ عن شيء من التضرُّر أصابها، فتحت السيدة هورنبي الحقيبة الصغيرة وشرعت تُخرج محتوياتها على الطاولة بتأنٍّ شديد. كانت تلك المحتويات عبارةً عن منديل من الدانتيل، وحافظة للمال، وحافظة بطاقات، وقائمة زيارات، وعبوة من «مسحوق البودرة»، وحين وضعت تلك العبوة على الطاولة، توقفت فجأةً وحدَّقت بوجه الآنسة جيبسون وكأنها حقَّقت اكتشافًا مذهلًا.

وقالت بنبرة مؤثِّرة: «لقد تذكرتُ اسم المرأة. كان اسمها السيدة جودج ... السيدة جودج، أخت زوج ...»

هنا غاصت يد الآنسة جيبسون بفظاظة في الحقيبة المفتوحة وأخرجت طردًا صغيرًا ملفوفًا في ورق ملاحظات ومربوطًا بخيطٍ من الحرير.

فقال الدكتور ثورندايك وهو يأخذ الطرد من يدِها بينما كانت السيدة هورنبي تمد يدها لتعترضهما: «شكرًا لكِ.» ثم قطع الخيط وأخرج من بين اللفافات دفترًا صغيرًا مجلَّدًا بقماش أحمر، وقد طُبِعَت على غلافه كلمة «سجل بصمات الإبهام»، وكان قد بدأ يفحصه حين نهضت السيدة هورنبي ووقفت إلى جواره.

وقالت وهي تفتح الدفتر على أول صفحة: «تلك هي بصمة إبهام الآنسة كولي. لا تربطنا بها صِلة. كما ترى البصمة ملطَّخة بعض الشيء ... قالت إن روبين هزَّ مرفقها، لكني لا أظنُّ أنه فعل؛ على أي حال، هو أكَّد لي أنه لم يفعل، وكما تعلم ...»

فقاطعها ثورندايك قائلًا: «آه. هذه هي التي نبحث عنها»، إذ كان يقلب صفحات السجل متجاهلًا ثرثرة السيدة هورنبي المُشوِّشة؛ وأردف: «إنها بصمة جيدة للغاية أيضًا، بالنظر إلى أنها أُخِذَت بنَزَق.»

ثم مدَّ يده نحو عدسة القراءة التي تتدلى من على مسمارها والمُعلَّقة عليه فوق المدفأة، ومن تحمُّسه أثناء نظره باستخدامها عرفتُ أنه كان يبحث عن شيءٍ ما. بعد برهة، شعرت بأنني متأكد من أنه قد وجد ضالَّته؛ لأنه بعد أن أعاد العدسة إلى مكانها بهدوء ورصانة ودون أن يُبدي تعليقًا، كان ثمة لمعة في عينه وتورُّد تكاد لا تُدركه العين في وجنته بفعل شعورٍ مكبوت بالحماس والانتصار كنت قد بدأت أنتبه له وأُدرِكه تحت القناع الجامد الذي يظهر به للعالم.

ثم قال مُقاطعًا الثرثرة المُتلاحقة وغير المترابطة للسيدة: «سأطلب منكِ أن تتركي هذا السجلَّ الصغير معي يا سيدة هورنبي، وحيث إنني قد أُضيفه إلى الأدلة، سيكون من الحكمة احترازيًّا لكِ وللآنسة جيبسون أن تُوقِّعا اسمَيكما — بخطٍّ صغير قدر الإمكان — على الصفحة التي تحمِل بصمة إبهام السيد روبين. من شأن هذا أن يتدارك أي إشارةٍ بتلاعُب في السجلِّ بعد أن تتركاه.»

شرعت السيدة هورنبي تقول: «سيكون من السفاهة أن يُشير أي أحد إلى مثل هذا الاقتراح»؛ لكن عندما وضع ثورندايك قلم الحبر السائل في يدِها، خَطَّت توقيعها في المكان الذي أشار إليه وسلَّمت القلم إلى الآنسة جيبسون التي وقَّعت تحت توقيعها.

فقال ثورندايك: «والآن، سنأخذ صورةً فوتوغرافيةً مكبَّرةً لهذه الصفحة مع البصمة؛ وهذا لا يعني أنه من الضروري أن نفعل هذا الآن، حيث إنكما ستتركان السجلَّ في حوزتي؛ لكن ستكون هناك حاجة لهذه الصورة الفوتوغرافية، وحيث إن مساعدي يتوقع صعودنا وقد أعدَّ الجهاز، فبإمكاننا أن نُنهي المسألة في الحال.»

وافقت كلتا السيدتَين على ذلك (إذ كان الفضول في واقع الأمر يعتريهما بشأن مقرِّ عمل زميلي)، ومن ثمَّ انطلقنا نجتاز مجموعة الغُرَف في الطابق العلوي، والتي كان بولتون العبقري يبسط سلطانه عليها في أُبَّهة وانعزال.

كانت هذه زيارتي الأولى إلى هذه البقعة الغامضة، فنظرت حولي بالقدر نفسه من الفضول الذي كان لدى السيدتَين. كانت الغرفة الأولى التي دخلناها هي على ما يبدو الورشة؛ فقد كانت تحتوي على منضدة نجار صغيرة، وآلة خرط، ومنضدة للأعمال المعدنية، وعدد من الأدوات الميكانيكية التي لم أستطع فحصها حينها؛ لكنني لاحظتُ أن

المكان بأكمله كان يبدو للعين مرتبًا للغاية بحيث لا يبدو أن أحدًا يعمل فيه، الأمر الذي لم يغفل عنه ثورندايك؛ إذ ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه وهو يجول بعينه على المناضد الخالية والأرضية النظيفة.

ومن هذه الحجرة دلفنا إلى المعمل، الذي كان حجرةً كبيرة، أحد جوانبها مُخصَّص للأبحاث الكيميائية، كما بدا من رفوف الكواشف التي تُغطي جدار ذلك الجانب، والقوارير والمقطرات المعوجَّة والأدوات الأخرى التي كانت موضوعةً على المنضدة بترتيب وكأنها زخارف على رفٍّ مدفأة في غرفة صالون. وعلى الجانب الآخر من الحجرة كان ثمة آلة تصوير كبيرة الحجم، مقدِّمتها التي تحمل العدسة مُثبَّتة، وحامل النسخ يتحرك على أداتَي توجيهٍ متوازيتَين، نحوها أو بعيدًا عنها على حامل طويل.

شرع ثورندايك يشرح هذا الجهاز لزائرتَينا بينما ثبَّت بولتون سجلَّ بصمات الإبهام على مِمسك مُتصل بالحامل.

وقال مجيبًا على سؤالٍ طرحَته الآنسة جيبسون: «كما ترَون، أنا أتعامل مع الكثير من التوقيعات والشيكات والوثائق المتنازع عليها من الأنواع كافَّة. والآن، يمكن للعَين الخبيرة وبمساعدة عدسة جيب أن تنتبِه إلى تفاصيل في غاية الدقة على شيك أو ورقة مالية؛ لكن ليس من الممكن أن يُعير المرء عينه الخبيرة إلى قاضٍ أو عضو هيئة مُحلفين؛ لذا غالبًا ما يكون مناسبًا جدًّا أن تُقَدَّم له صورة فوتوغرافية مكبَّرة حقًّا، ويُمكنه مقارنتها مع الصورة الأصلية. فالأشياء الصغيرة، عند تكبيرها، تُظهِر سِماتٍ وخصائص غير متوقعة إلى حدٍّ كبير؛ مثلًا، لقد تعاملتم، على ما أظن، مع الكثير من الطوابع البريدية، لكن هل لاحظ أحد منكم من قبلُ البُقَع الصغيرة البيضاء في الزاوية العلوية من طابع البنس الواحد، أو لاحظتم حتى الفارق في الزخارف على جانبي الإكليل؟»

أقرَّت الآنسة جيبسون أنها لم تفعل.

فأردف ثورندايك: «حسبما أظن، قلة فقط، باستثناء جامعي الطوابع، من لاحظوا ذلك، لكن انظروا إلى هذا الطابع الآن وستجدون أن هذه التفاصيل تفرِض نفسها على انتباهكم.» وبينما هو يتحدَّث، ناولها صورةً فوتوغرافية أخرجها من درج؛ كانت الصورة لطابع البنس الواحد مُكبَّرة بطول ثماني بوصات.

وبينما كانت السيدتان تُطالعانها وتتعجَّبان منها، مضى بولتون في عمله. فثَبَّتَ سجل بصمات الإبهام في مكانه، وسلَّط ضوء مصباح غازي قويًّا ومُتوهِّجًا عليه، وكان ثمة عاكس مكافئ مثبَّت على المصباح، والكاميرا موضوعة على مسافةٍ مناسبة.

تساءلت الآنسة جيبسون، مشيرةً إلى تسلسُل الأرقام على أحد جانبي الجهاز: «ما الذي تُشير إليه تلك الأرقام؟»

قال ثورندايك مفسِّرًا: «إنها تُشير إلى درجة التكبير أو التصغير. حين يكون المؤشِّر على الرقم ٠، تكون الصورة بالحجم الطبيعي نفسه للشيء الذي صُوِّر فوتوغرافيًّا؛ وحين يشير المؤشِّر إلى ×٤، تكون الصورة الفوتوغرافية أكبر من الحجم الطبيعي بأربعة أمثال، وإذا أشار المؤشِّر إلى ÷٤، تكون الصورة الفوتوغرافية أصغر من الحجم الطبيعي بأربع مرات. وهو الآن، كما ترَين، يشير إلى ×٨؛ لذا فإن الصورة ستكون ثمانية أمثال حجم البصمة الحقيقي.»

حينها كان بولتون قد ضبط درجة تركيز الكاميرا، وبعد أن رأينا الصورة المُكبَّرة على شاشة التركيز وسُررنا بها، انسحبنا إلى حجرةٍ أصغر مُخصَّصة لِعلم البكتيريا والأبحاث المجهرية، وذلك حتى الانتهاء من عملية التعرُّض وطباعة الشريحة. ثم بعد برهة، انضمَّ إلينا بولتون حاملًا الصورة السالبة بلُطف شديد، وقد استطعنا أن نرى عليها صورةً شفافةً مُدهشةً لبصمة إبهام ضخمة.

أخذ ثورندايك يفحصها باهتمام ولهفة، وبعد أن أعلن أن النتيجة مُرضية، أبلغ السيدة هورنبي بأن الغرَض من زيارتها قد تحقَّق وشكرها على ما تكبَّدته من عناء.

بعد ذلك بوقت قصير، قالت لي الآنسة جيبسون ونحن نسير على مَهَل في إثر السيدة هورنبي وثورندايك في ميتري كورت: «لقد سُررت كثيرًا بمجيئي، وسُررت أيضًا بأنني رأيتُ هذه الأدوات الرائعة. لقد جَعَلَتني أدرك أن شيئًا يُنجَز وأن الدكتور ثورندايك يرى حقًّا غايةً ما. لقد شجَّعني ما رأيت تشجيعًا كبيرًا.»

فأجبتُها: «وهذا صحيح حقًّا. أنا أيضًا، وإن كنتُ لا أعرف حقًّا أي شيءٍ عما يفعله زميلي، فإنني أشعر بشعور قوي أنه ما كان ليتحمَّل كل هذا العناء ويضيع هذا الوقت الثمين إن لم يكن يرى غايةً مُحددة وأسبابًا قوية لتبنِّي هذا الموقف المتفائل.»

أجابت بنبرة ودود: «أشكرك على قولك هذا؛ وستسمح لي بأن أعلم بأي تطوُّر ولو بسيط حين يمكنك هذا، أليس كذلك؟» ونظرت إلى وجهي بأسًى شديد وهي تطرح هذا الطلب حتى إنني تأثرت إلى حدٍّ ما؛ وحقًّا، كانت حالتي الذهنية في تلك اللحظة تُبرِّر تمامًا موقف صديقي المُتحفظ تجاهي.

ومع ذلك، ولحُسن الحظ، لم أكن أعرف شيئًا لأبوح به؛ لذا حين خرجنا إلى شارع فليت ووجدنا السيدة هورنبي مُحتجبةً بالفعل في عربة أجرة، لم يسعني سوى أن أقطع

لها وعدًا، بينما كنت مُمسكًا بيدِها التي قدَّمَتها لي، بأن أراها مجددًا في أقرب فرصة؛ كان وعدًا أكَّدت لي سريرتي أنني سألتزم بتحقيقه أشد التزام.

عَلَّقَ ثورندايك ونحن نمشي عائدَين إلى مقره: «يبدو أنك طوَّرت علاقةً موثوقة وخاصة مع صديقتنا الجميلة. يا لك من فتًى ماكر وداهية يا جيرفيس!»

أجبت: «إنها تتميز بالصراحة ولين المعشر.»

«أجل. إنها فتاة صالحة وفطنة، كما أنها جميلة. أظن أنه لا توجَد ضرورة لأن أقترح عليك أن تأخذ حذرك، أليس كذلك؟»

فأجبته عابسًا: «على أي حال، لا ينبغي بي أن أنتزِعَها من رجلٍ واقع في ورطة.»

«بالطبع لا ينبغي أن تفعل، ومن ثمَّ أنت بحاجةٍ إلى أن تحترس. هل تحقَّقتَ من العلاقة الحقيقية بين الآنسة جيبسون وروبين هورنبي؟»

أجبت: «كلَّا.»

فقال ثورندايك: «قد يكون من الجدير أن نعرف ذلك»، ثم عاد إلى صمته.

الفصل السادس

الإحالة للمحاكمة

نزل عليَّ تلميح ثورندايك بالخطر المُحتمَل الذي تُنبئ به مودتي المتزايدة مع جولييت جيبسون نزول الصاعقة، وقد كرهتُ ذلك منه حقًّا لأنني رأيت ذلك فظاظةً من جانبه. رغم هذا، مثَّل لي هذا التلميح مادةً خصبةً للتأمُّل والتفكُّر، وسرعان ما بدأتُ أشك في أن عين صديقي المُنتبهة ربما تكون قد رأت في أسلوبي تجاه الآنسة جيبسون شيئًا يُوحي بوجود مشاعر لم أكن قد انتبهتُ لها.

بالطبع سيكون من العبث والسخافة أن نفترِض إمكانية أن تنشأ أي مشاعر حقيقية في ظلِّ مُدة التعارف القصيرة للغاية هذه. فلم أكن قد التقيتُ الفتاة إلا ثلاث مرات، وبخلاف الأمور العملية، لم أستحقَّ أكثر من مجرد انحناءة تقديرٍ واحترام من جانبها. ومع ذلك، حين نظرتُ في الأمر بموضوعية ودون تحيُّز وتحقَّقت من سريرتي، لم يتسنَّ لي سوى أن أُقِرَّ بأنها أيقظت بداخلي اهتمامًا لا علاقة له بالدور الذي كانت قد لَعِبَته في الأحداث المُثيرة التي كانت تتكشَّف شيئًا فشيئًا. كانت حقًّا في غاية الجمال، وجمالها من نوعٍ يروق لي بصفةٍ خاصة؛ فهي مفعمة بالاحترام والحظوة، الأمر الذي يُبشِّر بكهولةٍ بهيجة ومتألِّقة. ولم تكن شخصيتها أقل جاذبيةً بأي حالٍ من الأحوال؛ لأنها كانت تتَّسم بالصراحة والانفتاح، والمرح والذكاء، ورغم أنه كان جليًّا أنها كانت تعتمِد على ذاتها إلى حدٍّ بعيد، لم تكن تفتقر إلى تلك النعومة الأنثوية التي تجتذِب تعاطف الرجال.

باختصار، أدركتُ أنه لولا وجود روبين هورنبي، كنتُ سأنظر إليها باهتمامٍ غير عادي.

لكن، لسوء الحظ، كان روبين هورنبي حقيقةً لا لبس فيها، وعلاوةً على ذلك، كانت الصعوبات التي ينطوي عليها موقفه تُخوِّله الحق في أن تكون له اعتبارات خاصة جدًّا

من جانب أي رجلٍ شريف. صحيح أن الآنسة جيبسون نفت أي مشاعر تجاهه غير مشاعر الصداقة الحميمة؛ لكن الشابَّات اليافعات لا يستطعنَ دومًا إصدار أحكامٍ مُحايِدة على مشاعرهن، وحيث إنني رجل ذو خبرة حياتية، فلم أملك إلا أن يكون لي رأيٌ في هذه المسألة؛ رأي اعتقدتُ أن ثورندايك كان يشاركني إياه. وخلاصة ما أوصلني إليه تفكيري هو الآتي: أولًا، أنني أحمق وأناني، وثانيًا، أن علاقتي بالآنسة جيبسون هي علاقة عمل فقط ويجِب أن تجري في المستقبل على هذا الأساس، مع مراعاة أنني في الوقت الراهن الوكيل المؤتمَن لروبين هورنبي، وأنني مُلزَم بحكم الشرف أن أضع مصالِحَه في المقام الأعلى والأهم.

قال ثورندايك وهو يمدُّ لي يدَه ليأخذ كوب الشاي: «آمُل أن تأمُّلاتك العميقة هذه ذات صِلة بمسألة آل هورنبي؛ وفي هذه الحالة ينبغي أن أتوقَّع أن أسمع أنك قد وجدتَ حلًّا لهذا اللغز وأن الغموض قد انكشف.»

فسألته، وقد شعرتُ أن وجهي احمرَّ بعض الشيء لَمَّا وقعَتْ عيني في عينِه المُتلألئة: «ولماذا تتوقَّع هذا؟» كان ثمة شيء مزعج نوعًا ما، وجدتُه في ابتسامته الجافة والساخرة وفي فكرة أنني كنتُ تحت ملاحظته، وشعرت بحرَج شديد وكأني برغوث ماء واعٍ بذاته، وجد نفسه على منصةٍ مضيئة لمجهر مُكبِّر.

فقال ثورندايك: «يا صديقي العزيز، أنت لم تنطق بكلمةٍ واحدة طيلة ربع الساعة المنصرمة؛ وقد التهمتَ طعامك التهامًا وكأنك آلة نقانق، وبين الحين والآخر، كنتَ تُبدي تعبيراتٍ غير سارة تمامًا وأنت تنظر إلى إناء القهوة ... وإن كنتُ أراهن أن إناء القهوة كان يُبادلك التعبيرات نفسها، وذلك إن جاز لي الاستناد إلى الصورة التي يعرضها الإناء لوجهي أنا.»

أيقظتُ نفسي من حالة أحلام اليقظة التي كنتُ فيها بضحكةٍ على فكرة ثورندايك الغريبة وبنظرة إلى انعكاس وجهي المُشوَّه بشكل يدعو للسخرية على الإناء الفضي اللامع.

وقلت مُقرًّا بنبرة اعتذار: «أخشى ما أخشاه أنني كنتُ رفيقًا مُضجرًا هذا الصباح.»

فردَّ ثورندايك مُبتسمًا: «على الإطلاق. بل على العكس، لقد وجدتك مُسليًا ومُعينًا، ولم أتحدَّث إليك إلا بعدما كنتُ قد أجهزتُ على قدراتك في أن تؤنِسَني بِصمْتِك.»

فقلت: «يروق لك أن تكون فَكِهًا على حسابي.»

أجاب: «لم تكن التكلفة مرتفعة. فأنا لم أستهلك إلا منتجًا عارضًا لنشاطك الفكري ... مرحى! لقد وصل أُنِسْتي بالفعل.»

كان سبب هتافه هذا طرقة غريبة على الباب الخارجي، على الأرجح أنها من صنع عصًا للمشي، وعندما نهض ثورندايك وفتح الباب، جاء صوت صافٍ ورنان، أعلنت إيقاعاته المُعتدلة أنه خطيب متمرِّس.

صاح صاحب الصوت: «مرحبًا، أخي العزيز! هل أتيتُ في وقتٍ غير ملائم وعكَّرتُ صفو أعمالك؟» وهنا دخل زائرنا الغرفة ونظر في أرجائها بجدية. ثم قال: «يبدو الأمر كذلك. يبدو أن الكيمياء الفسيولوجية وتطبيقاتها العملية هي موضوع اليوم. تحقيق كيميائي فسيولوجي في خصائص اللحم المُقدَّد والبيض المَقلي. هل هذا أخٌ علَّامة آخر؟»

ثم حدَّق فيَّ بإمعانٍ من وراء نظارته العديمة الإطار، وحملقتُ فيه بشيءٍ من الحرج.

فقال ثورندايك: «هذا صديقي جيرفيس، الذي سمعتني أتحدَّث عنه. إنه يعمل معنا في هذه القضية.»

فقال أنِسْتي وهو يمدُّ يدَه ليصافحني: «أصداء شهرتك وصلتني يا سيدي. أنا فخور بالتعرُّف إليك. كان ينبغي بي أن أتعرَّف إليك على الفور من صورة عمِّك المأسوف عليه في مستشفى جرينتش.»

فقال ثورندايك: «أنستي رجل فَكِه كما تفهم، لكنه أحيانًا يكون جادًّا. سيصير إلى ذلك قريبًا إن تحلَّينا بالصبر.»

فقال زائرنا الغريب الأطوار ناخرًا: «الصبر! إنني أنا من يحتاج إلى الصبر حين أُجَرجَر إلى المحاكم الشُّرَطِيَّة وبؤر الظلم الأخرى لأقدِّم الالتماسات من أجل اللصوص والنشَّالين وكأنني مُحامٍ من كيننجتون لين.»

فقال ثورندايك: «أفهم من هذا أنك تحدَّثت إلى لولي.»

«أجل، وأخبرني أن موقفنا ميئوس منه.»

«كلَّا، علينا أن نُفكِّر بطرُق غير تقليدية، كما ينبغي برجال العلم والثقافة. لكن لولي لا يعرف شيئًا عن القضية.»

فقال أنستي: «إنه يظن أنه يعرف كل شيءٍ عنها.»

فردَّ ثورندايك: «هذه هي حال معظم الحمقى. فهم يصِلون إلى تلك المعرفة بالحدس؛ وهذا طريق سهل ورحلته غير مُكلفة. أما نحن فنحتفظ بحُججنا وأدلَّة دفاعنا الرئيسية حتى اللحظة الأكثر ملاءمة ... أظن أنك مُتفق على هذا، أليس كذلك؟»

«بلى. لا شك في أن القاضي سيُحوِّله إلى المحكمة إلا إن كان لديك إثبات قوي بأنه كان في مكانٍ آخر وقت وقوع الجريمة.»

«سنسير في هذا الطريق، لكننا لا نعتمِد عليه اعتمادًا تامًّا.»

فقال أنستي: «إذن، من الأفضل أن نحتفظ بحُججنا وأدلَّة دفاعنا الرئيسية؛ وقد حان الوقت لنبدأ رحلتنا الطويلة؛ فنحن على موعدٍ في مكتب لولي في تمام العاشرة والنصف. هل جيرفيس قادم معنا؟»

فقال ثورندايك: «نعم، من الأفضل أن تأتي يا جيرفيس. هذه جلسة الاستماع المؤجَّلة لقضية المسكين هورنبي. لن نفعل شيئًا من جانبنا، لكن قد نتمكَّن من الْتقاط إشارةٍ ما من جهة الادعاء.»

فقلت: «أرغب في أن أسمع ما سيحدُث على أي حال»، ثمَّ انطلقنا معًا في اتجاه لينكولن إن، الذي يقع مكتب السيد لولي في الجهة الشمالية منها.

قال المحامي بينما كنا ندخل المكتب: «آه! يسرُّني حضوركم؛ إذ كنتُ بدأت أشعر بالقلق ... فليس من المناسب أن يتأخر المرء في هذه المناسبات كما تعرفون. لنشرع بالأمر، هل تعرفون السيد والتر هورنبي؟ لا أظنُّ ذلك.» ثم قدَّم ثورندايك وقدَّمني إلى ابن عم موكِّلنا، وبينما كنا نتصافح، راح كلٌّ منَّا يُطالع الآخر باهتمامٍ متبادل كبير.

قال والتر، وهو يُوجِّه خطابه لي بالأخص: «لقد سمعت عنكما من عمتي. يبدو أنها تَعُدُّكما ساحرَين في الميدان القانوني مثل ماسكيلين وكوك. وآمُل من أجل مصلحة ابن عمي أن تتمكَّنا من الإتيان بالأعاجيب والمعجزات التي تتوقَّعها منكما. يا له من مسكين! يبدو موقفه سيئًا للغاية، أليس كذلك؟»

رمقتُ روبين بنظرةٍ خاطفة، وكان في تلك اللحظة يتحدث مع ثورندايك، ولَّما وقعت عينُه في عيني، مدَّ يدَه ليُسلم علي بودٍّ وجدته مثيرًا جدًّا للشفقة. إذ بدا وكأنه تقدَّم في العمر دهرًا منذ آخر مرةٍ رأيته فيها، وكان شاحبًا وأكثر نحولًا، لكنه كان رابط الجأش وبدا لي أنه يتحمَّل كربَه برمَّته جيدًا.

أعلن أحد الموظفين: «عربة الأجرة عند الباب، يا سيدي.»

فكرَّر وهو ينظر إليَّ بريب: «عربة أجرة؛ نحن في حاجة إلى حافلة.»

فقال والتر هورنبي مقترحًا: «بإمكاني أنا والدكتور جيرفيس أن نسير. سنصِل في وقت وصولكم نفسه على الأرجح، ولا يُهم إن لم نفعل.»

فقال السيد لولي: «حسنٌ، هذا سيفي بالغرَض؛ فلتسيرا معًا إذن. والآن لنذهب نحن.»

خرج جمعُنا إلى الرصيف، وكانت هناك عربة بأربع عجلات مصفوفة إلى جواره، وبينما كان الآخرون يدلفون إليها، وقف ثورندايك بالقُرب مني لحظة.

وقال بنبرة خفيضة ومن دون أن ينظر إليَّ: «لا تدعه يستنزف المعلومات منك»؛ ثم دخل بسرعة إلى عربة الأجرة وأغلق الباب بقوة.

علَّق والتر، بعد أن سِرنا صامتَين لدقيقةٍ أو نحو ذلك: «يا لها من قضية غير عادية؛ مسألة فظيعة للغاية. لا بد أن أُقرَّ بأنني لا أفهم أي شيءٍ منها.»

فسألته: «وكيف هذا؟»

«يبدو أنه لا يوجَد إلا تفسيران لهذه الجريمة، وكلٌّ منهما يبدو غير مُتصوَّر. الأول هو أن يكون روبين ذو الشرف الرفيع — بقدْر معرفتي به — قد ارتكب جريمة السرقة الوضيعة والخسيسة هذه من دون معرفة دافعٍ له في ذلك؛ لأنه ليس فقيرًا ولا يمرُّ بضائقةٍ مالية ولا يتَّسِم بالجشع. على الجانب الآخر، لدَينا بصمة إبهامه التي ترقى، في رأي الخبراء، إلى رتبة شاهد عيان بأنه هو من ارتكب السرقة. هذا الأمر مُحيِّر جدًّا. ألَا تظن ذلك؟»

فأجبته: «القضية مُحيِّرة للغاية كما قلتَ.»

فألحَّ بسؤالٍ لم يُخفِ فيه لهفته: «لكن بأي طريقةٍ أخرى يمكنك أن ترى الأمر؟»

«في رأيي، إن كان روبين كما تعتقد، فإن هذه القضية غامضة للغاية.»

فوافقني قائلًا: «هي كذلك حقًّا»، مع أنه كان بلا شك خائب الأمل من إجاباتي الفاترة.

شرع والتر يسير لبضع دقائق في صمت، ثم قال: «أظن أن من غير الإنصاف أن أسألك إن كنتَ ترى مخرجًا من هذا المأزق؟ فنحن جميعًا، بطبيعة الحال، قلِقون بشأن ما ستئول إليه المسألة، بالنظر إلى موقف روبين المسكين فيها.»

«بطبيعة الحال. لكنني في الواقع لا أعرف عن هذه المسألة أكثر مما تعرف أنت، وفيما يخصُّ ثورندايك، فلن يجدي إن سألته؛ فهو كتوم مثل سكان وايتستيبل.»

«أجل، هذا ما فهمته من جولييت. لكنني ظننتُ أنك ربما تكون قد استخلصتَ فكرةً ما عن استراتيجية الدفاع من خلال عملكما في المعمل؛ بالميكروسكوب وبالصور الفوتوغرافية أقصد.»

«لم أدخل قَط إلى المعمل حتى ليلة أمس، حين أخذني ثورندايك مع عمتك والآنسة جيبسون؛ ومساعد ثورندايك هو من أنجز العمل، ومعرفته بالقضية لا تتجاوز معرفة القائم على سباكة حروف الطباعة بالكتب التي يساعد في طباعتها. كلَّا؛ ثورندايك رجلٌ لا يلعب إلا منفردًا، ولا أحد يعرف البطاقات التي بحوزته حتى يضعها على الطاولة.»

فكَّر رفيقي في هذه الجُملة في صمتٍ بينما هنَّأتُ نفسي أنني تصدَّيت بمهارة كبيرة لسؤال غير مريح بقدْر كبير. لكنني سرعان ما سأُعاتب نفسي عتابًا مريرًا على أنني كنتُ بهذا القدْر من الصراحة والحسم.

فقد تابع والتر بعد أن سكت برهة: «إن حالة عمي الراهنة مُزرية، بعد أن أُضيفت هذه المسألة الفظيعة إلى قائمة همومه الشخصية.»

فسألته: «هل يُجابه أي مشكلاتٍ خاصة إلى جانب هذه؟»

«عجبًا، ألم تسمع بالأمر؟ ظننتُ أنك تعرف، وإلا ما تحدَّثت ... ليس لأن في الأمر سرًّا بأي شكل؛ فهو شائع في المدينة. الحقيقة أن أحواله المادية صعبة بعض الشيء في الوقت الراهن.»

فقلتُ متعجبًا، ومذهولًا جدًّا من هذا التطوُّر الجديد: «حقًّا؟!»

«أجل، لقد اتخذت الأمور منعطفًا حرِجًا، وإن كنتُ أظنُّ أنه سيخرج من هذه المشكلة سالمًا. فهذا هو المعتاد كما تعلم ... في مجال الاستثمارات، أو ربما يجدُر بالمرء أن يقول المضاربات. يبدو أنه وضع قدرًا كبيرًا من رأس المال في المناجم؛ إذ كان يظنُّ أنه «مطَّلع على بواطن الأمور»، وليس هذا غريبًا عليه؛ ولكن يبدو أنه لم يكن كذلك في نهاية المطاف، وقد ساءت الأمور، فانتهى به الحال إلى أنه أصبح يُجازف بقدر من المال أكبر مما يُمكنه تحمُّله وإلى إمكانية تعرُّضه لخسارة فادحة إن لم تُدِرَّ الاستثمارات أرباحًا. ثم هناك مسألة الألماس اللعين هذا. هو غير مسئول أخلاقيًّا كما نعلم؛ لكن المشكلة تكمن فيما إذا كان مسئولًا قانونيًا، وإن كان المحامون يظنون أنه لا تطاله أي مسئولية قانونية. على كل حال، سيُعقد اجتماع للدائنين غدًا.»

«وماذا تظنُّهم فاعِلين؟»

«أوه، على الأرجح سيُترَك لحال سبيله في الوقت الراهن؛ لكن بالطبع إن اعتُبِر مسئولًا عن الألماس فسوف «يمر بفترة عصيبة»، كما قال الخبير المالي.»

«هل كان الألماس بقيمةٍ عالية إذن؟»

«باختفاء ذلك الطرد، اختفى ما يتراوح بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف جنيه إسترليني.»

فأطلقتُ صافرةً تعجبًا. كان هذا المبلغ أكبر بكثيرٍ مما تصورت، وكنت أتساءل إن كان ثورندايك قد أدرك حجم السرقة حين وصلنا إلى المحكمة الشُّرَطِيَّة.

قال والتر: «أظن أن زملاءنا قد دخلوا. لا بد أنهم وصلوا قبلنا.»

أكَّد هذه الفرضية شرطيٌّ سألناه، ووجَّهَنا إلى مدخل المحكمة. ولَّما اجتزنا الممر ونحن نشق طريقنا بصعوبة بين حشد المتسكعين، توجَّهنا إلى مقصورة المحامين، وما كدنا نجلس حتى نودي على القضية.

كانت الإجراءات القضائية القصيرة التي تلت ذلك كئيبةً ومُحبطة بقدرٍ لا يوصف، وأوحت بصورةٍ مروِّعة بعجز رجل بريء وقع تحت طائلة القانون ودارت عليه آلته التي لا ترحم.

غمس القاضي رئيسُ المحكمة، الجاف والعديم المشاعر، قلَمَه في الحبر بينما كان روبين، الذي سلَّم نفسه طبقًا لاتفاق الكفالة، يُودَع في قفص الاتهام وتُتلى عليه التهمة. وقدَّم المستشار القانوني المُمثل للشرطة مُلخَّصًا للقضية بأسلوبٍ عملي وكأنه وكيل عقارات يصِف عقارًا مناسبًا. وبعد ذلك، وحين ردَّ المُدَّعى عليه بأنه «غير مذنب»، استُدعِيَ الشهود. لم يكن هناك سوى شاهدَين اثنَين، وحين نودِيَ على اسم الأول، جون هورنبي، نظرتُ نحو منصَّة الشهود بفضولٍ كبير.

حتى تلك اللحظة لم أكن قد التقيتُ السيد هورنبي، ولَّما دلف إلى منصة الشهود، رأيتُ رجلًا مُسنًّا طويل البنية ومتورِّد الخدَّين ومحافظًا على صحته، لكنه متوتر وتعبيراته جامحة وكان يُعبِّر عن انزعاجه الخارج عن السيطرة بحركاتٍ عصبية مُستمرة تتعارَض تعارضًا مثيرًا للفضول مع سلوك المُتهم الهادئ الرصين. ومع ذلك أدلى بشهادته بطريقةٍ مترابطة تمامًا، فحكى الوقائع المرتبطة باكتشاف الجريمة تقريبًا بالكلمات نفسها التي سمعت السيد لولي يستخدِمها، رغم أنه كان بالفعل أكثر حزمًا منه فيما يتعلق بشخصية السجين الممتازة والرائعة.

وبعده جاء السيد سينجلتون من قسم البصمات في سكوتلانديارد، والذي استمعتُ لشهادته باهتمامٍ شديد. فأخرج الورقة التي تحمل بصمة الإبهام بالدم (والتي كان السيد هورنبي قد تعرَّف إليها سابقًا) وورقةً تحمل البصمة التي أخذها هو بنفسه للإبهام اليسرى للسجين. وقال إن البصمتين متطابقتان من كل الجوانب.

سأله القاضي بنبرة جافة وعملية: «وهل تعتقد أن البصمة على الورقة التي وُجِدَت في خزينة السيد هورنبي هي بصمة الإبهام اليسرى للسجين؟»

«أنا واثق من ذلك.»

«هل تعتقد أنه لا يُحتَمَل وجود خطأ؟»

«لا وجود لخطأ مُحتمَل، يا سعادة القاضي. هذا أمر مؤكد.»

نظر القاضي إلى أنِسْتي مُستفهمًا، وحينها نهض المحامي.

«نحن نحتفظ بحقِّنا في تقديم حُجج الدفاع في موعدٍ لاحق، يا سعادة القاضي.»

حينها وبالنبرة العملية نفسها، حكم القاضي بتحويل السجين إلى المحاكمة في المحكمة الجنائية المركزية، ورفض إطلاق سراحه بكفالة، وبينما كان روبين يُقتاد خارج القفص، نودي على القضية التالية.

وبتفضُّلٍ خاص من السلطات، سُمِح لروبين أن يقطع رحلته إلى هولواي في عربة أجرة، ومن ثمَّ سينجو بنفسه من أهوال شاحنة السجن القذِرة، وبينما كان يجري ترتيب ذلك، سُمِحَ لأصدقائه بتوديعه.

وقال ثورندايك حين تُرِكْنا وحدَنا نحن الثلاثة بعيدًا عن الآخرين لبضع لحظات: «هذه تجربة صعبة يا هورنبي»؛ وبينما كان يتكلَّم تسلل من بين ملامحه الجامدة دفء طبيعته المتعاطفة بحق. وأردف: «لكن ابتهج؛ لقد اقتنعتُ ببراءتك وأعقدُ آمالًا كبيرة بأن أُقنِع العالَم بها ... لكن ما أقوله هذا لك أنت وحدك، فلا تحدِّث به أحدًا آخر.»

هزَّ روبين يد «صديق وقت الضيق» هذا، وشدَّ عليها لكنه لم يكن يستطيع الكلام في اللحظة الراهنة؛ ولمَّا وصلت قدرته على ضبط نفسه إلى نقطة الانهيار، ودَّعه ثورندايك بسرعةٍ بغريزة الرجال الطبيعية، وتأبط ذراعي والتفت مبتعدًا.

وهتف بأسًى بينما كنَّا نسير في الشارع: «أتمنَّى لو كان بالإمكان إنقاذ هذا المسكين من طول أمَد إجراءات التقاضي، وخاصةً مِن المهانة التي ينطوي عليها سجنه.»

فأجبته لكن من دون اقتناع: «لا شك أن مجرد الاتهام بجريمةٍ لا يحطُّ من قدْر المرء. فقد يحدُث هذا لأفضلنا؛ كما أنه لا يزال رجلًا بريئًا في نظر القانون.»

فردَّ عليَّ: «أنت تعرف يا عزيزي جيرفيس كما أعرف أنا تمامًا أن هذه مجرد سفسطة قانونية. فالقانون يزعم أنه يَعتبر الرجل غير المُدان بريئًا؛ لكن كيف يُعامله في الواقع؟ سمعتَ كيف خاطب القاضي صديقنا؛ خارج المحكمة كان ليُنادي عليه بالسيد هورنبي. أنت تعرف ما سيحدث مع روبين في سجن هولواي. سيتلقى الأوامر من السجَّانين، وسيكون له علامة مُرقَّمة مثبتة على معطفه، وسيُحبَس في زنزانة بها ثُقب في الباب للتجسُّس عليه، ويمكن لأي غريبٍ عابر أن يتلصَّص عليه ويُراقبه من هذا الثقب؛ سيتناول طعامه في طبقٍ من الصفيح بسكينٍ وملعقة من الصفيح؛ وسيُستدعى إلى خارج زنزانته بين الحين والآخر ويُساق إلى ساحة التدريب مع جماعة تتألف في معظمها من صعاليك الأحياء الفقيرة والعشوائية في لندن. فإن بُرِّئت ساحته، سيُطلَق سراحه من دون

أي إشارةٍ إلى تعويض أو اعتذار عن هذه الإهانات أو الخسائر التي ربما تكون قد لحِقت به أثناء احتجازه.»

فقلت: «ما زلتُ أرى أن لا مفرَّ من هذه الشرور.»

فردَّ قائلًا: «هذا قد يكون صحيحًا وقد لا يكون كذلك. ما أريد قوله هو أن افتراض البراءة محض خيال؛ وأن معاملة المُتهم منذ لحظة القبض عليه هي المعاملة نفسها التي يتلقَّاها المجرم.» واختتم حديثه وهو يُنادي على عربة أجرة مارة: «ومع ذلك، لا بد من تأجيل هذه المناقشة وإلا سأتأخَّر على المستشفى. ماذا ستفعل؟»

«سأتناول غداءً ثم أعرِّج على الآنسة جيبسون لأُطلِعها على حقيقة الوضع.»

«أجل، سيكون لطيفًا منك أن تفعل ذلك، على ما أظن؛ إذ يمكن للأخبار أن تبدوَ مقلِقةً إلى حدٍّ كبير إذا ما أُبلِغَت بفجاجة. كنت أفكِّر في أن أُسقِط الدعوى في المحكمة الشُّرَطِيَّة، لكن هذا ما كان سيُصبح موثوقًا. فعلى الأغلب كان سيذهب للمحاكمة في نهاية المطاف، وحينها سنكون قد كشفنا أوراقنا لجهة الادعاء.»

ثم قفز إلى داخل العربة وسرعان ما ابتلعه الزحام، في حين استدرتُ أنا عائدًا إلى المحكمة الشُّرَطِيَّة لأسأل بشأن قواعد الزيارة في سجن هولواي. وعند الباب التقيتُ المفتش اللطيف الذي قابلناه في سكوتلانديارد، فقدَّم لي المعلومات التي كنتُ أحتاجها، وحيث إنه كان في ذهني مطعم فرنسي ذو جو هادئ، توجَّهت صوب منطقة سوهو.

الفصل السابع

مياه ضحلة ورمال متحركة

حين وصلت إلى إندسلي جاردنز، كانت الآنسة جيبسون في المنزل، وشعرتُ بفرحة عارمة لأن السيدة هورنبي لم تكن موجودة. كنت أوقِّر الصفات الأخلاقية لتلك السيدة توقيرًا كبيرًا، لكن حديثها كان يقودني إلى حافة الجنون ... جنون لا يخلو من أفكارٍ ونزعات للقتل.

قالت الآنسة جيبسون باندفاع ونحن نتصافح: «لطيف منك أن تأتي ... وإن كنتُ توقعت أن تفعل. لقد كنتما في غاية التعاطف والإنسانية ... أنت والدكتور ثورندايك ... كما كنتما بعيدَين كل البُعد عن الجمود الخاص بالرسميَّات والمِهنية. لقد ذهبَت العمة لترى السيد لولي بعد أن تلقَّينا برقية والتر مباشرة.»

فقلت: «أشعر بالشفقة تجاهها»، (وكنت على وشك أن أقول «وتجاهه» لكن لحُسن الحظ ألجمتني ومضة من الإدراك)؛ فأضفت: «ستجده جافًّا بما يكفي.»

«أجل؛ إنه لا يروق لي البتة. أتعرف أنه بلغت به الوقاحة أن يُشير على روبين أن يُقر بأنه مُذنب بارتكاب الجريمة؟»

«لقد أخبرَنا بأنه فعل، وقد نال ما يستحق من التوبيخ والازدراء من ثورندايك، جزاءً وفاقًا.»

فردت بشراسة: «يسرُّني ذلك كثيرًا. لكن أخبِرني بما حدث. قال والتر فقط إنه «نُقل إلى محكمة أعلى درجة»، وهو ما يعني أنه «أُحيل للمحاكمة». فهل أخفق الدفاع عنه؟ وأين روبين؟»

«حق الدفاع محفوظ لحينٍ آخر. إذ رأى الدكتور ثورندايك أن الأرجحية الكبرى تتمثَّل في أن يُحال روبين للمحاكمة، وعلى هذا قرَّر أن من الضروري أن يُبقي جهة الادعاء

في جهالة عن استراتيجية الدفاع. فكما تعلمين، إن عرف رجال الشرطة ماهية دفاعنا، سيُعيدون مراجعة خُططهم طبقًا لذلك.»

فقالت بإحباط: «فهمت هذا، لكنني مُحبطة للغاية. كنت آمُل أن يتمكن الدكتور ثورندايك من إسقاط الدعوى. ماذا حدث لروبين؟»

كان هذا هو السؤال الذي أخشاه، والآن وقد صار من الضروري أن أجيب، تنحنحتُ وأطرقتُ إلى الأرض.

وقلت بعد أن سكتُّ سكوتًا غير مريح لبرهة من الوقت: «لقد رفض القاضي قَبول الكفالة.»

«وماذا بعد؟»

«ومن ثمَّ صار روبين ... رهن الاحتجاز.»

فصاحت وهي تشهق: «أتقصد أنهم أرسلوه إلى السجن؟»

«ليس كمُدانٍ، كما تعلمين. إنما هو مجرد مُحتجز في انتظار محاكمته.»

«لكنه في السجن؟»

كنتُ مجبرًا على الإقرار: «أجل، في سجن هولواي.»

نظرت الآنسة جيبسون إلى وجهي مصعوقةً لبضع ثوانٍ، وكانت شاحبةً وعيناها مُتسعتان، لكنها كانت صامتة؛ ثم وبتلاحُقٍ مفاجئ في أنفاسها، التفتت مشيحةً بوجهها ووضعت إحدى يدَيها على حافة رف المدفأة وأرخت رأسها على ذراعها وانخرطت تنتحب نحيبًا حارًّا.

أنا، في عموم الأمر، لستُ رجلًا عاطفيًّا، ولست كذلك من المُندفعين؛ لكنني أيضًا لست صنمًا أو حجرًا أو تمثالًا من الخشب؛ لا بد وأنني كنت سأكون هكذا بكل تأكيد لو كان بوسعي أن أنظر إلى هذه المرأة الطبيعية المُضحِّية والقوية والشجاعة والبارَّة من دون أن أتأثر تأثُّرًا عميقًا بحُزنها. وفي واقع الأمر، اقتربتُ منها وأخذت يدَها الأخرى المتدلِّية بهدوء ولطف في يدي، وغمغمت لها بكلمات مواساة غير متَّسقة وبصوت مبحوح.

بعد قليل تمالكَت نفسها قليلًا وسحبَت يدَها بنعومةٍ من يدي بينما كانت تلتفِت إليَّ وتُكفكف عينَيها.

وقالت: «سامحني على ما سبَّبت لك من أسًى، كما أخشى أن أكون قد فعلت؛ فأنت في غاية اللطف، وأشعر أنك صديقي بحقٍّ وصديق لروبين كذلك.»

فأجبتها: «أنا كذلك حقًّا، يا عزيزتي الآنسة جيبسون، وأؤكِّد لكِ أن زميلي صديقٌ لكما أيضًا.»

فردَّت: «أنا واثقة من هذا. لكنني كنتُ حقًّا غير مستعدة لهذا ... لا يسعني معرفة سبب لذلك سوى أنني كنت أثق في الدكتور ثورندايك تمام الثقة ... وما حدث فظيع للغاية، لا سيما أنه يكشف وبشكلٍ مريع عما يمكن أن يحدث. حتى الآن كان الأمر برمَّته يبدو ككابوس مريع، لكنه غير حقيقي. لكن الآن وحيث إنه في السجن حقًّا، تحوَّل الكابوس إلى واقعٍ فظيع ومرير، وأشعر بالرعب يغمرني. أوه! يا له من مسكين! ماذا سيحلُّ به؟ أرجوك لأجل خاطري يا دكتور جيرفيس، أخبرني بما سيحدث.»

ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ كنت قد سمعت كلمات ثورندايك المُشجِّعة لروبين، وكنت أعرف زميلي معرفةً كافية لأن أشعر بالثقة في أنه كان يقصد كلَّ ما قال. لا شك في أن المسار المناسب لي هو أن أحتفظ بآرائي لنفسي وأن أُماطل الآنسة جيبسون بعباراتٍ غامضة وحذِرة. لكنني لم أستطع؛ كانت تستحق ثقةً أكبر من ذلك.

قلت لها: «لا داعي للقلق المُفرط بشأن المستقبل. لقد فهمت من الدكتور ثورندايك أنه مقتنع ببراءة روبين، ويأمُل في أن يستطيع إثبات ذلك للعالم.» ثم أضفت بقليل من تأنيب الضمير: «لكني لم أكن مخوَّلًا بأن أُفشي هذا.»

فقالت بنبرة ناعمة: «أعرف هذا، وأشكرك من صميم قلبي.»

أردفتُ: «أما بشأن المِحنة الراهنة، فلا تدعيها تؤرقكِ أكثر من اللازم. حاولي أن تُفكِّري في الأمر كما لو كان عمليةً جراحية، هي في حدِّ ذاتها شيء رهيب، لكنها تُصبح مقبولةً عوضًا عن شيء آخر أكثر ترويعًا بقدْرٍ لا يوصف.»

فأجابتني بوداعة: «سأحاول أن أفعل ما تُخبرني به، لكن من الصادم أن أفكِّر في أنَّ شابًّا نبيلًا ومُهذبًا مثل روبين يُزَج به مع اللصوص والقتلة ويُحبس في قفص وكأنه حيوان بري. فكِّر فيما في ذلك من ذلٍّ ومهانة!»

فقلت: «ليس ثمة ذلٌّ في أن يُتَّهم المرء ظلمًا»، وأعترف أني شعرت بالذنب قليلًا؛ فقد عاودتني كلمات ثورندايك بكامل قوتها. لكني أكملتُ بغض النظر: «تبرئة ساحته ستُعيده إلى مكانته وبسمعةٍ غير ملطَّخة، ولن يتبقى من هذا الأمر شيء يُذكر سوى ضيق عابر.»

كفكفت دمعها مرةً أخيرة، وأبعدت منديلها بعزم.

وقالت: «لقد أعدتَ إليَّ شجاعتي وبدَّدت خوفي. لا يسعني أن أخبرك عن مدى شعوري بطيبتك، ولا أملك شيئًا لأشكرك به، سوى وعدٍ بأن أكون شجاعةً وأن أتحلَّى بالصبر من الآن فصاعدًا، وأن أثق بك ثقةً تامة.»

قالت مقولتها هذه بابتسامةٍ مُمتنَّة للغاية، وبدا وجهها شديد اللطف والأنوثة حتى إنني وقعت أسير رغبةٍ جامحة في أن آخُذها بين ذراعَي. عوضًا عن ذلك، قلت لها بضعف مقصود: «أنا مُمتن للغاية لأني استطعتُ أن أُمِدَّكِ بالشجاعة؛ التي ينبغي أن تتذكَّري أنني في نهاية المطاف لستُ مصدرها المباشر. فجميعنا نتطلَّع إلى الدكتور ثورندايك آمِلين في أن تأتي الحرية على يديه.»

«أعرف هذا. لكن أنت من أتيتَ لتُعزيني في محنتي، فينبغي أن يكون التكريم مقسومًا بينكما ... وأخشى أنه لن يكون مقسومًا بالتساوي؛ لأن النساء مخلوقات غير عقلانية، كما أنبأَتْك، ولا شكَّ، خبراتُك التي مررتَ بها. أظن أنني أسمع صوت عمتي؛ لذا من الأفضل أن تهرب قبل أن تقطع عليك طريق الرجعة. لكن قبل أن تذهب، ينبغي أن تُخبرني متى وكيف أستطيع رؤية روبين. أريد أن أراه في أول فرصةٍ ممكنة. يا للمسكين! يجب ألَّا ندعه يشعر بأن أصدقاءه نسوه ولو للحظة واحدة.»

فقلت: «يُمكنكِ رؤيته غدًا إن أردتِ»؛ وضاربًا بقراراتي الجيدة عُرض الحائط، أردفت: «سأذهب لرؤيته بنفسي، وربما سيذهب الدكتور ثورندايك أيضًا.»

«هلَّا سمحتما لي أن آتي إلى منطقة تيمبل وأن أذهب معكما؟ هل سأكون عائقًا كبيرًا؟ أجد من المُخيف أن أذهب إلى السجن وحدي.»

فأجبتُها: «هذا غير وارد. عرِّجي على منطقة تيمبل فالطريق إلى السجن يمر بنا، ويمكننا الذهاب معًا إلى سجن هولواي. هل عقدتِ العزم على الذهاب؟ سيكون الأمر مزعجًا بعض الشيء، كما تعلمين على الأرجح.»

«لقد عزمت أمري. متى ينبغي أن آتي إلى منطقة تيمبل؟»

«حوالي الساعة الثانية، إن كان ذلك مناسبًا لكِ.»

«ممتاز. سآتي في الموعد؛ والآن عليك أن تذهب وإلا وقعتَ في قبضتها.»

ثم دفعتني برفقٍ نحو الباب، ومدَّت لي يدَها لتصافحني، وقالت:

«لم أشكرك بما يكفي، ولن أستطيع أن أوفِّيك الشكر أبدًا. إلى اللقاء!»

غادَرَتْ وكنتُ واقفًا في الشارع وحدي، وكانت سحابات من الضباب مائلة للصفرة قد بدأت تتدفَّق. لقد كان الجو صافيًا ومشرقًا إلى حدٍّ كبير حين دلفت إلى المنزل، لكن

السماء الآن كانت تتَّخذ لونًا رماديًّا باهتًا، وكان الضوء آخذًا في الخفوت، والبيوت تتضاءل شيئًا فشيئًا إلى أشكالٍ غير حقيقية تختفي عند نصف ارتفاعها. ومع ذلك خرجتُ بنشاط وواصلت السير بوتيرة سريعة نوعًا ما، كما يفعل شابٌّ حين يكون عقله في حالة من الإثارة. في واقع الأمر، كان هناك الكثير من الأشياء التي تشغل ذهني، وكما يحدُث غالبًا مع الناس، كبيرهم وصغيرهم على حدٍّ سواء، كانت الأشياء التي تؤثِّر تأثيرًا مباشرًا على حياتي وآفاقي المستقبلية هي أول ما تَلقى انتباهي.

ما نوع العلاقة التي تتنامى بيني وبين جولييت جيبسون؟ وما وضعي فيها؟ فيما يخصُّها، بدا الأمر واضحًا بما يكفي؛ كانت مهتمةً كثيرًا بروبين هورنبي، وكنتُ أنا صديقها المقرَّب لأنني كنت صديقًا مقرَّبًا له. لكن فيما يخصُّني، لم يكن ثمة مجال لإخفاء حقيقة أنني بدأتُ أهتم بها بما لا يُبشِّر بالخير فيما يتعلَّق براحة بالي.

لم أكن قد التقيتُ من قبل بامرأةٍ يتجسَّد فيها كل ما كنت أرى أن المرأة ينبغي أن تكون عليه، ولا كنت قد التقيتُ من قبلُ بامرأة تمارس هذا القدْر الهائل من السحر والجاذبية علي. كانت قوتها وكبرياؤها ونعومتها وانقيادها، ناهيك بجمالها، بمثابة أسلحةٍ ضرورية لتحقيق خضوعي التام لها. وكنت خاضعًا تمامًا لها؛ لم يكن ثمة طائل من إنكار هذه الحقيقة، وإن كنتُ أدركتُ حقًّا أنه سيأتي عما قريب وقت لن تعود لها فيَّ رغبة، ولن يبقى لي أي علاج سوى أن أبتعِد وأحاول نسيانها.

لكن هل تصرُّفاتي هذه تصرفات رجل شريف؟ شعرت أن باستطاعتي الإجابة بـ «نعم» على هذا السؤال؛ لأنني لم أكن أفعل سوى واجبي، ولم يكن بوسعي أن أتصرَّف بشكلٍ مُغاير إن رغبتُ في ذلك. علاوةً على ذلك، لم أكن أُعرِّض سعادة أحدٍ للخطر سوى سعادتي أنا، وبإمكان المرء التصرُّف في سعادته كما يحلو له. كلَّا؛ ما كان ثورندايك نفسه ليستطيع اتهامي بأني آتي بسلوكيات شائنة.

بعد ذلك اتخذَت أفكاري منعطفًا جديدًا وبدأت أتدبَّر ما سمعته بشأن السيد هورنبي. كان ما سمعته يُمثِّل تطوُّرًا مدهشًا حقًّا، وتساءلت عن الفارق الذي سيُحدثه هذا في فرضية ثورندايك عن الجريمة. لم أكن قادرًا مُطلقًا على أن أُخمِّن فرضيته، لكن بينما كنت أتقدَّم عبر الضباب الذي تتزايد كثافته، حاولتُ وضْع هذه المعلومة الجديدة وسط ما جمَعْنا من معلومات، وحاولتُ تحديد تأثيرها وأهميتها.

وأخفقتُ في هذا إخفاقًا تامًّا، لبعض الوقت. كانت بصمة الإبهام الحمراء تشغل كل تفكيري لدرجة إقصاء أي شيءٍ آخر. كانت هذه البصمة تُمثِّل لي، وكذلك للجميع ما عدا

ثورندايك، حقيقةً نهائية، وتُشير إلى استنتاجٍ دامغ. لكن بينما رحت أُقلِّب في ذهني قصة هذه الجريمة مرةً تلوَ مرة، واتتني بعد قليل فكرة حرَّكت سلسلةً من الأفكار الجديدة والمُثيرة جدًّا للدهشة.

هل يمكن أن يكون السيد هورنبي نفسه هو اللص؟ بدا إخفاقه مفاجئًا للعالم، لكن لا بد أنه رأى الصعوبات تلوح في الأفق. كانت هناك، حقًّا، تلك البصمة الحمراء على الورقة التي كان قد نزعها من دفتر ملحوظاته الصغير. أجل! لكن من رآه وهو ينزعها؟ لا أحد. وكانت الحقيقة تستند على تصريحه هذا المجرَّد عن أي دليل.

لكن ماذا بشأن البصمة؟ كان من المُمكن أن تكون البصمة صُنِعت مصادفةً في وقت سابق ونسِيَها روبين، أو لم يلاحظها حتى؛ وإن كان هذا من غير المرجَّح، ولكن لا يزال الاحتمال قائمًا. وكان السيد هورنبي قد رأى سجلَّ بصمات الإبهام، بل إن السجلَّ يحمل بصمته، ومن ثمَّ انتبه إلى أهمية البصمات في تحديد الهُوية. ربما ظلَّ محتفظًا بالورقة التي تحمِل البصمة حتى يجد لها استخدامًا في المستقبل، ووقت وقوع السرقة، كتب تاريخ اليوم على الورقة، ودسَّها في الخزينة باعتبارها وسيلةً مضمونة لتحويل الشكوك عنه. كان كل هذا غير مُرجَّح إلى أقصى درجة، لكن كل تفسير آخر لوقوع الجريمة كان غير مرجَّح بالمثل؛ وفيما يتعلق بوضاعة الفعل نفسه، ما أوضع ما يمكن أن يفعله مُقامر يمر بضائقةٍ وصعوبات؟

كنت أشعر بإثارةٍ وغبطة شديدتَين لإبداعي في تشكيل فرضية جليَّة ومعقولة عن الجريمة، حتى إنني صرتُ مُتلهِّفًا للوصول إلى البيت حتى أنقل ما لديَّ من أخبارٍ إلى ثورندايك وأرى كيف سيكون وقعُها عليه. لكن وبينما كنت أقترب من وسط المدينة، ازدادت كثافة الضباب كثيرًا حتى إنني كنتُ في حاجةٍ لتركيز كل انتباهي في اجتياز حركة المرور بسلام؛ وكان الضباب يُضفي جوانب غريبةً وخادعة على الأشياء المألوفة ويمحو معالم المدينة، فجعل تقدُّمي بطيئًا لدرجة أن الساعة كانت قد تجاوزت السادسة بالفعل حين تحسَّستُ طريقي في ميدل تيمبل لين وانسللت عبر كراون أوفيس رو باتجاه مقرِّ زميلي.

وعند عتبة الباب وجدتُ بولتون يُحدِّق بوجهٍ يعتريه القلق في الضباب الأصفر المُمتد الفارغ.

قال بولتون: «لقد تأخَّر الطبيب يا سيدي. أعاقه الضباب بحسب ما أعتقد. لا بد وأنه كثيف للغاية في المدينة.»

(سأذكر هنا أن بولتون كان يرى أن ثورندايك هو الطبيب. وأن هناك بالفعل مخلوقات أخرى أدنى منزلةً يتَّصفون بهذا اللقب؛ لكنهم كانوا لا يُعتَد بهم في رأي بولتون. كانت الألقاب العائلية لهؤلاء كافيةً للإشارة إليهم.)

فأجبته: «أجل، هذا صحيح، بالنظر إلى حالة شارع ستراند.»

دخلتُ وصعدت الدرج، مسرورًا جدًّا بمنظر الغرفة الدافئة والجيدة الإضاءة بعد مسيري الشاق في الشوارع الحالكة، وتبِعني بولتون في شيءٍ من التردُّد بعد أن ألقى نظرةً أخيرة على الممشى في كلتا الجهتَين.

ثم قال وهو يُدخلني (رغم أنني الآن كنت أملك مفتاحًا): «أظن أنك ترغب في القليل من الشاي، صحيح؟»

فكَّرت أنني في حاجة إلى الشاي، ومن ثمَّ شرع في تحضيره بطريقته البارعة والرشيقة، لكنه كان ذاهلًا على نحوٍ غير معتاد منه.

ثم علَّق، وهو يضع إبريق الشاي على صينية التقديم: «قال الطبيب إنه سيكون في المنزل بحلول الخامسة.»

فأجبته: «إذن فقد تأخَّر. سنُعاقبه على ذلك بأن نُخفِّف شايه بالماء.»

فأردف بولتون يقول: «الطبيب، يا سيدي، رجل رائع دقيق في مواعيده. فهو غالبًا ما يحافظ على المواعيد بالدقيقة.»

«لا يمكن للمرء أن يلتزم بمواعيده في «لندن الضبابية»»، هكذا قلتُ بشيءٍ من نفاد الصبر؛ إذ كنت أرغب في أن أكون وحيدًا لأفكِّر في بعض الأمور، وكان اهتياج بولتون وعصبيته يُزعجانني. كان أشبه بمُدبِّرات المنازل في قلقه.

وعلى ما يبدو أن الرجل الضئيل الحجم أدرك حالتي الذهنية؛ فقد انسلَّ بعيدًا في صمتٍ وتركني أشعر بالندم والخجل، وعرفت لمَّا وقفتُ أنظر من النافذة أنه ذهب ليُكمل مراقبته عند عتبة الباب. ثم عاد بعد برهة من نقطة المراقبة تلك ليحمِل أغراض الشاي؛ وبعد ذلك، ومع أن الجو الآن كان حالكًا وضبابيًّا، فإنني سمعته يتسلَّل كَمدًا على الدرج صعودًا وهبوطًا، حتى إنني صرتُ في نهاية المطاف في حالة من القلق والتخوُّف مثله تمامًا.

الفصل الثامن

واقعة مُريبة

أعلنت ساعة منطقة تيمبل بدقات معتدلة ومكتومة أن الساعة السابعة إلا الربع، وأيدَتها بدقَّات قوية زميلتها التي علَّقناها على رفٍّ الموقد، ومع ذلك لم يكن هناك أي أثر لثورندايك. كان الأمر حقًّا غريبًا بعض الشيء؛ لأن الرجل كان شديد الالتزام بمواعيده، وعلاوةً على ذلك، كانت التزاماته من النوع الذي يجعل الالتزام بالمواعيد أمرًا مُمكنًا. وكنت أتحرَّق شوقًا لأن أنقل إليه أخباري، فتسبَّب هذا، بالإضافة إلى تصرفات بولتون من تسلل ومراقبة، بأن وصلتُ إلى حالة من توتر الأعصاب جعلَت كلًّا من الاسترخاء والتفكير من المُستحيلات. نظرتُ من النافذة إلى المصباح في الشارع، والذي راح يُضيء بتوهُّجٍ عبر الضباب، ثم فتحت الباب وخرجتُ إلى فاصل الدرج لأستمع.

في تلك اللحظة، ظهر بولتون في صمتٍ على الدرج المؤدي إلى المُختبر، فجفلت لذلك قليلًا؛ وكنت على وشك أن أعود إلى الغرفة حين التقطَتْ أذني رنين عربة أجرة تقترب من ناحية بيبر بيلدِنجز.

أخذَت العربة تقترب، وأخيرًا توقفت أمام المنزل، فانزلق بولتون على الدرَج بمرونةِ المُهرجين. وبعد لحظات قليلة، جاء صوته يصعد السُّلَّم من الرواق:

«آمُل ألَّا تكون قد تأذيتَ بشدة يا سيدي.»

ركضتُ نزولًا على الدرج والتقيتُ ثورندايك وهو يصعد ببطءٍ ويده اليُمنى على كتف بولتون. كانت ملابسه موحلة، وذراعه اليسرى مربوطة في حمَّالة، وأخفى منديلٌ أسود تحت قُبعته ضمَّادة.

أجابه ثورندايك بنبرة مرحة: «لم أُصَب بأي أذًى، وإن كان مظهري مُزريًا.» ثم أضاف لمَّا لاحظ أني فزع وحائر: «سقطتُ رأسًا على عقب في الطين يا جيرفيس فحسب. أكثر ما أحتاجُه الآن هو العشاء وفرشاةً لتنظيف ملابسي.» رغم هذا، بدا ثورندايك شاحبًا

ومُضطربًا حين أصبح تحت الإضاءة على منبسط الدرج، وقد غاص في كرسيِّه الوثير بشكلٍ يوحي بأنه إمَّا في غاية الضعف وإما في غاية الإنهاك.

«كيف حدث ذلك؟» هكذا تساءلتُ لَمَّا تسلَّل بولتون خارجًا على أطراف أصابع قدمَيه ليُعِدَّ العشاء.

نظر ثورندايك حوله ليتأكد أن تابِعه الأمين قد خرج، وقال:

«حدث أمر عجيب يا جيرفيس؛ ما جرى غريب حقًّا. كنتُ في طريق خروجي من مبنى البلدية وأتقدَّم بحذَر شديد عبر الطريق بسبب الطين الزلق، وما كدتُ أصل إلى سفح جسر لندن حتى سمعت عربة نقل ثقيلة تنزل منحدر الجسر بسرعةٍ كبيرة جدًّا، أخذًا في الاعتبار أنه كان من المُستحيل أن يتجاوز مدى الرؤية عشر ياردات، فتوقَّفتُ على الرصيف حتى أراها تمرُّ بسلام. وبمجرد أن برزَت جياد العربة من وسط الضباب، جاء رجل من خلفي ومال عليَّ بعُنف، والغريب أنه في اللحظة ذاتها وضع قدمَه أمام قدمي. وبالطبع ارتميتُ على الطريق أمام العربة القادمة. وأقبلَت الجياد وهي تضرب الأرض بحوافرها وتنزلق نحوي مباشرة، وقبل أن أتمكن من التملُّص من أمامها، ضرب حافر أحدِها قُبعتي ضربةً شديدة كادت تُفقدني الوعي؛ تلك القبعة التي أتيت أرتديها هي قبعة جديدة. ثم ارتطم رأسي بالعجلة القريبة منِّي فجُرحتُ جرحًا صغيرًا وقذرًا في فروة رأسي، وعلق كُمِّي فيها فلم أستطع أن أجذب ذراعي بعيدًا، ومن ثمَّ جُرحت بشدة بأكملها. كان موتي وشيكًا يا جيرفيس؛ مجرد بوصةٍ واحدة أو نحو ذلك وكنت سأُسحَق وأصبح جثةً هامدة.»

فسألته: «وماذا حلَّ بالرجل؟»، وأنا أتمنَّى لو كان بوسعي أن ألتقي به لقاءً قصيرًا.

«غاب عن ناظري تمامًا لكني ما زلتُ أذكره: لقد اختفى وكأنه مُشعِل قناديل الشوارع. ثم ساعدتني على النهوض امرأة ثملة تبيع التفاح في الشارع، وصحبتني إلى المُستشفى.» ثم أضاف بابتسامةٍ جافة لَمَّا تذكَّر: «لا بد وأن المنظر كان مؤثِّرًا.»

«وأبقَوك في المُستشفى لبعض الوقت حتى تستعيد عافيتك، أليس كذلك؟»

«بلى؛ أخذوني إلى مكانٍ للتقييم الطبي والرعاية في غرفة المرضى الخارجيين، وأصرَّ لانجديل العجوز على أن أستريح ساعةً أو نحو ذلك لعلَّ أحد أعراض الإصابة بارتجاجٍ تظهر عليَّ. لكنني كنتُ مُضطربًا قليلًا ومشوَّشًا وحسب. ومع ذلك كانت مسألةً غريبة.»

«تقصد أن يدفعك الرجل هكذا؟»

«أجل؛ لا أدري كيف أصبحت قدمُه أمام قدمي.»

فقلت: «أتظن أن الأمر كان مقصودًا؟»

«كلَّا، بالطبع لا»، هكذا أجاب، لكن من دون قناعة راسخة كما بدا لي؛ وكنتُ على وشك أن أخوض في الأمر أكثر حين ظهر بولتون، فغيَّر صديقي موضوع الحديث فجأة.

وبعد العَشاء قصصتُ عليه محادثتي مع والتر هورنبي، وأخذت أنظر إلى وجه صديقي بشيءٍ من التلهُّف لأرى أثر هذه المعلومات الجديدة عليه. وكانت النتيجة، في العموم، مُخيِّبةً للآمال. كان صديقي مُهتمًّا بالأمر، بل شديد الاهتمام، لكنه لم يُظهر أي علامةٍ على الحماس.

قال ثورندايك لَمَّا انتهيت: «إذن كان جون هورنبي متورِّطًا في مضارباتٍ في عمليات التعدين، صحيح؟ ينبغي أن يكون أكثر خبرةً وحرصًا في سنِّه هذه. هل علمتَ كم مضى عليه وهو يواجِه صعوبات؟»

«كلَّا. لكن من المُستبعَد أن الأمر كان مفاجئًا وغير متوقع.»

فوافقني ثورندايك قائلًا: «أجل، لا أظن أنه كان كذلك. إن هبوطًا مفاجئًا في الأسعار عادةً ما يكون كارثيًّا على المقامرين في البورصة، الذين يدفعون فروقًا على كمياتٍ كبيرة من الأسهم غير المدفوعة. لكن يبدو أن هورنبي كان قد اشترى هذه المناجم بالفعل ودفع ثمنها، فعاملَها معاملة الاستثمارات لا المُضاربات، وفي تلك الحال، لم يكن انخفاض القيمة ليؤثِّر عليه بالشكل نفسه. سيكون من المُهم أن نتيقَّن من هذا الأمر.»

«يمكن لهذا الأمر أن يكون ذا أثرٍ كبير على الحالة الراهنة، أليس كذلك؟»

فقال ثورندايك: «بلى، بلا أدنى شك. يمكن أن يكون له آثار على القضية بأكثر من طريقة. لكني أرى أن لديك نظرية معيَّنة.»

«أجل. كنتُ أفكِّر لو أن هذه الضوائق المالية كانت آخذةً في التزايد لبعض الوقت، فربما تكون قد صارت عصيبةً حقًّا وقت وقوع السرقة.»

فقال زميلي: «تلك ملاحظة مدروسة جيدًّا. لكن ما أثر ذلك على القضية تحديدًا، بافتراض أن الأمر كان على هذا النحو؟»

فأجبته: «طبقًا لهذا الافتراض، أن السيد هورنبي كان يعاني صعوباتٍ ماليةً فِعلية وقت وقوع السرقة، يبدو لي أن من الممكن تشكيل فرضية حول هُوية السارق.»

فقال ثورندايك وهو ينتبِه وينظر إليَّ باهتمامٍ ويقظة: «أود أن أسمع فرضيتك.»

بدأتُ حديثي بخجَل طبيعي من فكرة أنني أُعبِّر عن أفكاري أمام هذا الخبير في المنهج الاستقرائي، فقلت: «هذه فرضية بعيدة الاحتمال، بل تبدو أقرب إلى الخيال في واقع الأمر.»

فردَّ عليَّ: «لا عليك من ذلك. فالمُفكِّر الرصين يضع في اعتباره على قدم المساواة ما هو مُحتمَل وما هو بعيد الاحتمال.»

شجَّعني كلامه هذا، فشرعت أعرض عليه نظرية الجريمة كما رأيتها وأنا في طريقي وسط الضباب، وكنتُ مُستمتعًا بملاحظتي لاهتمامه الشديد وهو يستمع إلي، وبإيماءاته الصغيرة التي تنمُّ عن موافقته على كل نقطةٍ أثرتها.

وحين انتهيت، ظلَّ صامتًا برهة، وكان ينظر إلى النار وهو غارق في التفكير في الكيفية التي تتلاءم بها نظريتي والمعلومات الجديدة التي تستنِد عليها مع بقية ما لدَينا من بياناتٍ ومعلومات. ثم في الأخير تحدَّث، لكن من دون أن يرفع عينه عن الجمرات الحمراء:

«نظريتُك هذه يا جيرفيس تدلُّ على شدة مهارتك الإبداعية. ويُمكننا أن نصرف النظر عن بُعدِ احتمالها؛ لأن كل البدائل تكاد تكون مساويةً لها في ذلك، والحقيقة التي تبرُز هنا وتُبهجني بأكثر ممَّا يُمكنني أن أصِف لك، هو أنك تتمتَّع بموهبة في التخيُّل العلمي جيدة بما يكفي لإنشاء سلسلةٍ ممكنة من الأحداث. في الواقع، إن بُعد الاحتمال — مقترنًا بالإمكانية بطبيعة الحال — يُضيف حقًّا إلى الإنجاز؛ لأن بإمكان أكثر العقول بلادةً أن يُدرك ما هو واضح؛ مثل أهمية بصمة الإصبع. لقد أنجزتَ أمرًا عظيمًا حقًّا، وأُهنئك على هذا؛ لأنك حرَّرتَ نفسك — بدرجةٍ ما على الأقل — من الهوس الكبير ببصمة الإصبع، وهو الأمر الذي استحوذ على الفكر القانوني منذ نشر جالتون رسالته العلمية التي أحدثت ثورةً في عالَمنا وصنعت عالَمًا جديدًا. أذكر أنه قال في تلك الرسالة إن بصمة الإصبع تُشكِّل دليلًا لا يحتاج إلى إثباتٍ وتأييد — وهي جُملة في غاية الخطورة والتضليل، تلقَّفها رجال الشرطة وركَّزوا عليها أيَّما تركيز؛ فقد كانوا مسرورين بطبيعة الحال بحصولهم على معيارٍ سحري يوفِّر عليهم عناء التحقيق. لكن لا وجود لشيءٍ أو حقيقة واحدة «تُشكِّل دليلًا لا يحتاج إلى إثبات». كما قد يتوقَّع المرء أن يصِل إلى قياسٍ منطقي من خلال مُقدِّمة واحدة.»

فقلت ضاحكًا: «لا أظنُّ أنهم سيصِلون إلى هذا الحد.»

فأقرَّ يقول: «نعم. لكن نوع القياس المنطقي الذي يصِلون إليه هو الآتي:

الجريمة ارتكبها شخص ترك هذه البصمة.

لكن جون سميث هو الشخص الذي ترك هذه البصمة.

من ثمَّ يكون جون سميث هو من ارتكب الجريمة.»

فسألته: «هذا قياس منطقي مثالي، صحيح؟»

فأجابني: «تمامًا. لكن كما ترى، هذا القياس يطرح سؤالًا هو: «هل الشخص الذي ترك هذه البصمة هو من ارتكب الجريمة؟» هنا نحتاج إلى دليل وإثبات.»

«عمليًّا، هذا السؤال يجعل التحقيق في الجريمة بمنأًى عن الإشارة إلى البصمة، ومن ثمَّ تصبح البصمة من دون أهمية.»

فرد ثورندايك: «على الإطلاق؛ البصمة تُمثِّل دليلًا ثمينًا للغاية، ما دُمنا لا نُبالغ في قيمتها الاستدلالية. خذ القضية التي بين أيدينا الآن مثالًا على ذلك. من دون البصمة، يمكن أن يكون مُرتكب الجريمة أي أحد؛ فلا وجود لدليلٍ على الإطلاق. لكن وجود البصمة يُضيِّق نطاق البحث إلى روبين أو شخص آخر لدَيه قدرة الوصول إلى بصمته.»

«أجل، فهمت. إذن أنت ترى أن نظريتي عن جون هورنبي باعتباره مُرتكب جريمة السرقة نظرية مقبولة ومعقولة؟»

أجاب ثورندايك: «إلى حدٍّ كبير. لقد فكَّرتُ فيها منذ البداية؛ والمعلومات الجديدة التي جمعتَها تزيد من أرجحيتها. أنت تذكر أنني قلتُ إن ثمة أربع فرضيات مُمكنة: أن السرقة ارتكبها إما روبين أو والتر أو جون هورنبي أو شخص آخر. والآن، لن ننظر في فرضية «الشخص الآخر» إلا حين تفشل الفرضيات الثلاث الأخرى، فيتبقَّى لنا روبين ووالتر وجون. لكن إن أخرجنا البصمة من المعادلة، فإن الاحتمالات تُشير بلا شكٍّ إلى جون هورنبي؛ لأنه وباعتراف الجميع كان يتمتَّع بقدرة على الوصول إلى الألماس، في حين أنه لا يوجَد شيء يُشير إلى أن الآخرين كانوا يتمتَّعون بذلك. لكن البصمة توجِّه الشك إلى روبين؛ غير أنها، كما تُبيِّن نظريتك، لا تبرِّئ ساحة جون هورنبي تبرئةً تامة. في الوضع الحالي للقضية، يمكن صياغة توازن الاحتمالات على النحو التالي: لا شك في أن جون هورنبي كان يملك قدرةً على الوصول إلى الألماس، ومن ثم ربما يكون قد سرقها. لكن إذا كانت البصمة قد وُضِعت بعد أن أغلق الخزينة وقبل أن يفتحها مجددًا، فلا بد وأن شخصًا آخر كان يملك قدرةً على الوصول إلى الألماس، وعلى الأرجح كان هو السارق.»

وتابع: «والبصمة تعود لروبين هورنبي، وهذه معلومة تضع احتماليةً «ظاهرة الوجاهة» لأن يكون هو من سرق الألماس. لكن لا وجود لدليل يقول إنه كان يملك قدرةً على الوصول إليها، وإن لم يكن يملك تلك القدرة، لا يمكن أن يكون هو من وضع البصمة بالطريقة وفي الوقت المذكورَين.»

وأضاف: «لكن ربما كان لجون هورنبي إمكانية الوصول إلى بصمة الإبهام الخاصة بروبين والتي صُنِعَت مسبقًا، ومن المرجَّح أنه حصل عليها؛ وفي هذه الحال، يكون من شِبه المؤكَّد أنه هو اللص.»

واستطرد: «أما بشأن والتر هورنبي، فربما كان يملك وسيلةً للحصول على بصمة الإبهام؛ لكن لا دليل على أنه كان يستطيع الوصول إلى الألماس أو إلى مفكِّرة السيد هورنبي. من ثمَّ نجد أن الاحتمالات «الظاهرة الوجاهة» في حالته ضئيلة وطفيفة للغاية.»

فقلت: «إذن فالنقطتان الفعليَّتان قيد البحث هما ما إن كان روبين يملك وسيلةً لفتح الخزينة، وما إن كان السيد هورنبي يملك فرصةً للحصول على بصمة إبهام روبين بالدم على مفكِّرته.»

أجاب ثورندايك: «أجل. هاتان هما النقطتان — إلى جانب نقاط أخرى — وعلى الأرجح ستظلَّان دون حل. فقد فتَّشت الشرطة شقة روبين، ولم يجدوا أي نُسَخ لمفاتيح أو شيئًا مخبَّئًا؛ لكن هذا لا يُثبت شيئًا؛ لأنه من المُحتمَل أن يكون قد تخلَّص منها حين سمع أنه عُثِر على بصمة الإبهام. أما فيما يتعلق بالأمر الآخر، فقد سألت روبين، وهو لا يذكر أنه ترك بصمةً لإبهامه بالدم من قبل قط. هذا أقصى ما وصلنا إليه في الوقت الحاضر.»

«وماذا عن مسئولية السيد هورنبي المتعلقة بالألماس؟»

أجابني ثورندايك: «أعتقد أن بإمكاننا صرف نظرنا عن هذا. فهو لم يضطلع بأي مسئولية ولم يكن هناك إهمال. لن يكون مسئولًا في نظر القانون.»

بعد أن خلد زميلي إلى النوم مبكِّرًا، جلستُ لوقتٍ طويل أفكِّر في هذه القضية الفريدة التي وجدتُ نفسي منخرطًا فيها. وكلما زدت التفكير، زادت حيرتي. إن كان ثورندايك لا يملك تفسيرًا قاطعًا أكثر مما أمدَّني به في هذه الأمسية، سيكون الدفاع أمرًا ميئوسًا منه؛ لأن من غير المرجَّح أن تقبل المحكمة بتقديره للقيمة الدلالية للبصمات. ومع ذلك، كان قد قال لروبين شيئًا يرقى إلى تأكيدٍ إيجابي بأنه سيكون هناك دفاع مناسب، وقد عبَّر عن قناعته الإيجابية ببراءة المُتهم. لكن ثورندايك ليس بالرجل الذي يصِل إلى هذه القناعات من خلال مجرد اعتباراتٍ عاطفية. كان الاستنتاج الحتمي أنه يملك شيئًا في جعبته؛ أنه كان قد توصَّل إلى معلوماتٍ فاتتني؛ ولمَّا وصلت إلى هذا الاستنتاج، تركت غليوني من يدي وخلدت إلى الفراش.

الفصل التاسع

السجين

في صباح اليوم التالي وبينما كنتُ أخرج من غرفتي، التقيت ببولتون قادمًا يحمِل صينية (كانت غرفتا نومنا في طابق العليَّة فوق المُختبر والورشة)، ثمَّ تبعته إلى غرفة صديقي.

قال ثورندايك: «لن أخرج من المنزل اليوم، لكنني سأنزل بعد قليل. هذا الأمر يُزعجني كثيرًا، لكن ينبغي على المرء أن يتقبَّل المحتوم. لقد أُصِبت في رأسي، وعلى الرغم من أنني أشعر أنني لستُ في حالةٍ سيئة، لا بد أن أتخذ الاحتياطات اللازمة — أن أستريح وأتناول طعامًا قليلًا — حتى أرى أن الأمر لن تكون له تبعات. أيمكنك تولِّي أمر الجرح في رأسي وأن ترسِل الخطابات الضرورية؟»

عبَّرتُ عن استعدادي لفعل كل ما يلزم وأثنيتُ على قدرة صديقي على ضبط نفسه ومنطقه السليم؛ بالطبع لم أستطع منع نفسي من مقارنة سلوك هذا الرجل، الكثير الانشغال والذي لا يعرف الكلل ومع ذلك يركن إلى السكون وهو أشدُّ ما يكره، بسلوك المرضى العاديين الذين ربما لا يكون لديهم ما هو مُهم ليفعلوه، ومع ذلك يكونون سريعي الاهتياج وبالكاد يمكن السيطرة عليهم من أجل أن يرتاحوا، بغضِّ النظر عن مدى حاجتهم إلى الراحة. هكذا تناولتُ الإفطار وحيدًا وقضيتُ ساعات الصباح في كتابة الرسائل وإرسالها إلى من يتوقَّعون زيارةً من زميلي إليهم.

وبعد وقتٍ قصير من تناول طعام الغداء (الذي كان شحيحًا جدًّا بالمناسبة؛ إذ بدا أن بولتون ضمَّنني في المُخطط لتناول طعام قليل)، التقطت أذني المترقِّبة صوت رنين عربة تقترِب من جهة كراون أوفيس رو.

قال ثورندايك، الذي كنتُ قد أطلعته على ترتيباتي: «ها قد وصلت رفيقتك الجميلة. أخبر هورنبي نقلًا عني أن يحافظ على رَباطة جأشه، وفيما يخصُّك، ضع ما حذَّرتُك منه

في ذهنك. سيُؤسِفني جدًّا إن أنت رأيت يومًا سببًا لأن تندم على مساعدتك القيمة جدًّا لي، وأنا مَدين لك لقاء صنيعك. إلى اللقاء؛ لا تدعها تنتظر.»

ركضتُ نزولًا على الدرج وخرجتُ من المبنى في الوقت نفسه الذي كان سائق العربة يتوقف فيه ويفتح الباب.

فقلت وأنا أضع قدمي على موطئ القدم: «سجن هولواي ... البوابة الرئيسية.»

فأجابني الرجل وهو يضحك: «لا يوجَد له باب خلفي يا سيدي»؛ وسُررت لَمَّا رأيتُ أن رفيقتي الراكبة لم تلاحِظ إجابته وضحكته.

وقلت: «أنتِ دقيقة جدًّا في المواعيد يا آنسة جيبسون. لم تتجاوز الساعة الواحدة والنصف بعد.»

«أجل؛ فكَّرت في أنني أرغب في أن أكون هناك بحلول الثانية تمامًا؛ لكي أقضي معه وقتًا طويلًا قدْر الإمكان من دون أن أجتزئ من وقت لقائك به.»

تأملتُ رفيقتي. كانت مُتأنقةً أكثر من المعتاد، وبدت في واقع الأمر في غاية الجمال. وقد تسبَّب ما لاحظته في البداية في اندهاشي ثم في قَبولٍ محسوم شعرت معه ببعض الانزعاج في نفسي، حيث كان لديَّ في ذهني صورة واضحة ومستهجَنة للغاية لترتيبات زيارة سجنٍ محلي في إحدى المقاطعات، والذي كنت قد عملتُ فيه مؤقتًا مسئولًا طبيًّا.

قلتُ لها في النهاية: «أظن أنه لا حاجة لأن أعيد فتح مسألة مدى ملاءمة زيارتكِ للسجن؟»

فأجابتني بنبرةٍ حازمة: «لا حاجة لذلك إطلاقًا، وإن كنت أتفهَّم قصدك من فعل هذا وأُقدِّره.»

فقلت: «إن كنتِ عازمة حقًّا، فينبغي عليَّ إذن أن أُعِدَّكِ لهذه البليَّة. إذ أخشى أنها ستُسبِّب لكِ صدمةً كبيرة.»

فقالت: «حقًّا؟ هل الأمر في غاية السوء؟ أخبرني كيف سيكون.»

أجبتُها: «في المقام الأول، ينبغي أن تضعي في اعتبارك الغاية من سجنٍ مثل سجن هولواي. نحن ذاهبان لرؤية رجل بريء ... رجل محترم ومُثقف. لكن النزلاء في سجن هولواي ليسوا رجالًا أبرياء؛ فمعظم حالات الحبس الاحتياطي للرجال هناك هي لمُجرمين عتيدين في الإجرام، أما النساء فهنَّ إما مِمَّن ارتكبنَ جرائم صغيرة أو مُدمنات على الكحول. معظم النزلاء من الزبائن المعتادين على السجن — فالنظام القانوني مَعيب بشكلٍ لا يصدَّق — الذين يدخلون إلى حجرة الاستقبال كالمسافرين الذين يدخلون فندقًا مألوفًا

لهم، ويخاطبون ضبَّاط السجن بأسمائهم ويطالبون بالحصول على الامتيازات المُعتادة ووسائل الراحة الإضافية؛ «المخمورون» على سبيل المثال عادةً ما يطلبون جرعةً من الشراب لتهدئة أعصابهم ويطلبون أن تكون زنزانتهم مضاءة لكيلا تُطاردهم الخيالات المُخيفة. وحيث إن هذه هي شخصيات النزلاء في السجن، فإن أصدقاءهم الذين يزورونهم بطبيعة الحال من النوعية نفسها … فهم أوضع ما تلفظه الأحياء الفقيرة؛ وليس من المُستغرَب أن تجِدي الترتيبات والتدابير مُصممةً لتُناسب هؤلاء النزلاء المعتادين. ونسبة الأبرياء في السجن لا تُذكر، إذن فلا تدابير مُصمَّمة لتتناسب معهم أو مع زوَّارهم.»

فسألتني الآنسة جيبسون: «لكن ألن يأخذونا إلى زنزانة روبين؟»

أجبتُها: «بحقكِ! كلَّا»؛ وكنت مُصممًا على ذِكر كل دافع يجعلها تُغيِّر رأيها، فأردفتُ أقول: «سأذكر لكِ الأمر كما رأيته؛ وقد وجدته منظرًا مريعًا وصادمًا بحق، صدِّقيني في هذا. حدثت لي هذه التجربة حين كنت أعمل طبيبًا للسجن في ميدلاندز. كنت أؤدِّي جولتي ذات صباح، وبينما كنت أمرُّ في ممر، سمعت هديرًا غريبًا ومكتومًا على الجانب الآخر من الحائط.

فسألت الحارس الذي كان معي: «ما هذه الضوضاء؟»

أجاب: «أصدقاء السجناء يزورونهم. أتودُّ إلقاء نظرة عليهم يا سيدي؟»

فتح الحارس قفل باب صغير، وعندما فتح الباب، صار الصوت القصيُّ والمكتوم هديرًا يُصِم الآذان. دلفتُ من الباب ووجدتُ نفسي في مجازٍ ضيق وفي أحد أطرافه هناك حارس جالس. على كِلا جانبي المجاز كانت توجَد أقفاص هائلة الحجم وبها قضبان سلكية قوية، أحد جانبي هذه الأقفاص مُخصَّص للسجناء والآخر مُخصَّص للزوَّار؛ ووقفت الوجوه والأيادي مصطفَّة في كل قفص، وكلها يتحرك باستمرار، الوجوه تتكلَّم وتتلوَّى قسماتها، والأيادي تقبض باضطرابٍ على القضبان. كانت الأصوات في غاية الصخب لدرجة أنه لا يمكن تمييز ولو صوت واحد حتى، رغم أن كل واحدٍ من الحاضرين كان يصرخ بأعلى ما يُمكنه ليصير صوته مسموعًا فوق هذا الضجيج الذي يملأ المكان. وكانت النتيجة منظرًا في غاية الغرابة والبشاعة؛ فقد بدا أنه لا أحد يتكلَّم على الإطلاق، وأن الضوضاء آتية من الخارج، وأن كل وجهٍ من الوجوه الوضيعة والوحشية في معظمها يكشِّر في صمتٍ ويتمتم ويتحرك فكَّاه ويحدِّق بغضب في شاغلي القفص المُقابل. كان المنظر بغيضًا ومروِّعًا. لم أستطع أن أتخيَّل شيئًا أُشبِّهه به سوى بيت القردة في حديقة الحيوان. بدا وكأنه يتعيَّن عليَّ أن أسير في هذا المجاز وأوزِّع عليهم بعضًا من المكسرات وقطع من الورق ليُمزقوها إرْبًا.»

هتفت الآنسة جيبسون: «كم هذا مريع! هل تقصد أن تقول إنهم سيتركوننا في أحد هذه الأقفاص مع حشدٍ من زوَّار آخرين؟»

«كلَّا. في السجن، لا يُترك المرء أبدًا. ما سيحدث هو الآتي: كل قفص مقسَّمٌ إلى أكشاك أو مقصورات صغيرة تحمِل أرقامًا. يُحبَس السجين في إحدى المقصورات وزائره في المقصورة المقابلة لها حسب الترقيم. وبذا يكونان متواجِهَين، وبينهما عرض المجاز؛ يمكن لأحدهما رؤية الآخر والتحدُّث إليه لكن لا يُمكنهما تمرير الأشياء الممنوعة بينهما ... ولا حاجة طبعًا لأن أذكر أن هذا من التدابير الضرورية للغاية.»

«أجل، أظن أن هذا ضروري، لكنه أمرٌ مريع للأشخاص المحترمين. لا شك في أنهم قادرون على التفريق بين المُجرمين والمحترمين.»

«لماذا لا تستسلمين وتُحَمِّليننني رسالةً إلى روبين؟ سيكون متفهِّمًا وسيشكرني على إقناعكِ بالعدول عن الزيارة.»

فردَّت بسرعة: «كلَّا، لن أفعل؛ كلما بدا الأمر مقيتًا أكثر، زادت ضرورة ذهابي. لا ينبغي أن نسمح له بأن يشعر أن عائقًا بسيطًا أو مذلَّةً كهذه كافية لإخافة أصدقائه. ما هذا المبنى الذي أمامنا؟»

كنَّا قد خرجنا من فورنا من طريق كاليدونيان إلى شارع هادئ وذي مظهر جميل، في نهايته كان يقِف مُنتصبًا برج لمبنًى مُحصَّن.

أجبتها: «هذا هو السجن. نحن ننظر إليه من أكثر زاوية مناسبة؛ فإن نظرنا إليه من الخلف فسنجده أقلَّ جاذبيةً بكثير، وخاصةً لو نظرنا إليه من الداخل.»

لم نتحدَّث بعد ذلك حتى دلفت بنا العربة إلى الباحة ونزلنا خارج البوابات الأمامية الكبيرة. وبعد أن طلبتُ من السائق انتظارنا، دققتُ الجرس فأدخلونا بسرعةٍ عبر بوابة صغيرة (أُغلِقَت وأُوصِدَت مباشرةً بعد دخولنا) إلى باحة مُغطَّاة لها بوابة ثانية، ومن خلال قضبان هذه البوابة استطعنا رؤية الباحة الداخلية والمدخل الفعلي للسجن. هنا، وبينما كنَّا ننتهي من الإجراءات الرسمية اللازمة، وجدنا نفسَينا جزءًا من جماعةٍ كبيرة ومتنوعة من الناس؛ ذلك أن حشدًا كبيرًا من أصدقاء المساجين كانوا بانتظار لحظة إدخالهم. ولاحظتُ أن رفيقتي كانت تُطالع زملاءنا من الزوَّار بفضولٍ يشوبه الرَّوع، وقد حاولَتْ جاهدةً أن تُخفي ذلك لكنها لم تفلح؛ ومن المؤكَّد أن مظهر الأغلبية من الناس كان يُمثِّل شهادةً بليغة على فشل الجريمة في أن تكون وسيلةً لتحقيق التقدُّم أو الترقي في هذه الحياة. وكان الوضع الراهن لهؤلاء الناس يُشير إلى تنوُّع عواطفهم؛ فبعضهم كانوا

صامتين ومكروبين من الحزن؛ ومجموعة أخرى أكبر كانت طلِقة اللسان ومتحمسة، في حين كان الابتهاج باديًا على مجموعةٍ كبيرة، بل إنها كانت حتى تميل إلى الفكاهة والمزاح.

وفي الأخير فُتِحَت البوابة الحديدية الكبيرة وجاءنا حارس يتولَّى مسئوليتنا، فتوجَّه بنا إلى جزءٍ من المبنى يُعرَف باسم «الجناح»؛ وبينما نحن نتقدَّم، لم أستطع منْع نفسي من ملاحظة التأثير العميق الذي خَلَّفَته على رفيقتي فكرة أن كل باب نمرُّ به لا بد أن يُفتح قفلُه من أجل أن نمرَّ ثم يوصد بالقفل مرةً أخرى بمجرد أن ندلف منه.

قلتُ لها لَمَّا اقتربنا من وجهتنا: «يبدو لي أن من الأفضل لو تركتني لألتقِيَ أولًا بروبين؛ ليس لديَّ الكثير لأقوله له، ولن أدعكِ تنتظرين طويلًا.»

فسألتني وقد انتابها شيء من الشك: «لماذا تظنُّ ذلك؟»

أجبتُها: «في الواقع، أظن أن هذه المقابلة ستُزعجكِ قليلًا، وسأرغب في أن آخُذكِ إلى العربة بمجرد أن ننتهي.»

فقالت: «أجل، لعلك مُحق، ولطفٌ منك أن تكون مراعيًا لي لهذه الدرجة.»

وفقًا لذلك، وجدت نفسي في غضون دقيقةٍ حبيس مقصورة ضيِّقة، كتلك التي يستخدِمها المُرابون مع عملائهم الأكثر خجلًا، ويسودها رائحة قذارة مُماثلة لكنها أكثر حدة. وكانت المشغولات الخشبية فيها مصقولةً حتى صارت زلقةً بفعل احتكاك الأيدي والملابس القذرة بها، وجعلني المظهر العام للمقصورة — المظهر الذي التقطَته عيني بلمحةٍ واحدة لَمَّا دخلت — أدسُّ يدَي في جيبي وأجتهد في تجنُّب ملامسة أي جزءٍ منها سوى الأرض. أما طرف المقصورة المقابل للباب فكان مغلقًا بشبكةٍ من أسلاك قوية، باستثناء ثلاث أقدام من الأسفل كانت مصنوعةً من الخشب، ولَمَّا نظرت من خلال الأسلاك وجدتُ على الجانب المقابل، وخلف شبكةٍ ثانية، روبين هورنبي واقفًا في وضعٍ مُماثل. كان يرتدي ثيابه المعتادة ومتأنقًا كالمعتاد، لكن وجهه لم يكن حليقًا وكان يرتدي علامةً دائرية تحمِل الرمز «بي ٣١» معلقةً في أحد ثقوب الأزرار؛ هذان التغييران في مظهره حَملا إشارةً طفيفة بقدْر ما هي غير سارة، وجعلاني أشعر بالأسف على إصرار الآنسة جيبسون على المجيء.

قال روبين بنبرة ودود: «لُطف بالغ منك يا دكتور جيرفيس أن تأتي لزيارتي»، وما أثار اندهاشي أنه لم يجد صعوبةً في أن يجعل صوته مسموعًا فوق ضجيج المقصورات المجاورة؛ وأردف: «لكنني لم أتوقَّع مجيئك هنا. قيل لي إن بإمكاني رؤية محاميَّ في مقصورة المُحامين.»

فأجبته: «بإمكانك ذلك حقًّا. لكنني أتيتُ إلى هنا باختياري لأنني أحضرتُ معي الآنسة جيبسون.»

فقال باستنكار واضح: «يؤسِفني هذا؛ ما كان ينبغي لها أن تأتي وسط هؤلاء الرعاع.»

«قلتُ لها ذلك، كما قلتُ لها إنك لن يروق لك مجيئها، لكنها أصرَّت.»

فقال روبين: «أعرف. هذا أسوأ ما في النساء ... أنهن يُثِرن ضجةً كبيرةً ويُضحِّين بأنفسهن في الوقت الذي لا يَطلُب فيه منهنَّ أحد هذا. لكن لا ينبغي أن أكون ناكرًا للجميل؛ فهي تفعل هذا من صميم قلبها، وهي من الطيِّبين الكرام.»

فقلت وقد شعرتُ باستياء من نبرته الهادئة غير المُمتنَّة: «هي كذلك حقًّا؛ إنها في غاية النُّبل، وإخلاصها لك قوي وينمُّ عن شجاعة.»

ظهرت على وجهه أضعف ابتسامة يمكن رؤيتها من خلال الحاجز المزدوج؛ ولدى ذلك شعرت برغبةٍ في شدِّ أنفه ... إلا إنني كنت سأحتاج لكماشةٍ ذات تصميم خاص من أجل ذلك الغرَض.

أجاب بهدوء: «أجل، لقد كنَّا دومًا صديقَين مقربَين جدًّا.»

كان ثمة رد على شفتاي من أقسى الردود وأكثرها حدة. تبًّا لهذا الشاب! ماذا يقصد بحديثه بهذه النبرة المُتعجرفة عن ألطف وأرق نساء الأرض؟ لكن في نهاية المطاف، لا يمكن للمرء أن يقسو على شابٍّ مسكين حُبِس ظلمًا وبتهمة باطلة، مهما كان الاستفزاز كبيرًا. أخذتُ نفسًا عميقًا، وبعد أن استعدتُ رباطة جأشي، ولو ظاهريًّا على الأقل، قلت:

«آمُل ألَّا تجد الأوضاع هنا لا تُطاق.»

فأجابني: «كلَّا. الأوضاع مُزرية إلى حدٍّ بغيض بالطبع، لكنها يمكن بسهولة أن تزداد سوءًا. لا أُمانع إن كان هذا سيستمر لأسبوعٍ أو أسبوعَين؛ وقد تشجَّعت بالكلام الذي قاله الدكتور ثورندايك. آمُل أنه لم يقل ذلك لمجرد التخفيف عني.»

«يمكنك أن تُعوِّل على أنه لم يفعل. أنا واثق من أنه كان يعني ما قال. أنت تعرف بالطبع أنني لستُ كاتمًا لأسراره — لا أحد كذلك — لكني أعرف أنه راضٍ عن الدفاع الذي يُعِدُّه.»

فقال روبين: «إن كان راضيًا، فأنا مرتاح، وعلى أي حال، أنا أدين له بقدْر هائل من الامتنان لأنه وقف إلى جانبي وآمن ببراءتي في الوقت الذي أدانني فيه العالم بأكمله ... عدا عمَّتي وجولييت.»

ثم أخذ يسرد عليَّ بعض التفاصيل بشأن حياته في السجن، وبعدما أمضى ربع ساعة أو نحو ذلك في الحديث، ودَّعته وغادرت لأترك وقتًا للآنسة جيبسون.

لم يكن لقاؤها به طويلًا كما توقعت، وإن كان من المؤكَّد أن الظروف لم تكن مناسبةً لتبادُل الأسرار ولا للأحاديث العاطفية. فوعي المرء بأن محادثته يمكن لكلِّ مَن في المقصورات المجاورة سماعها يُدمِّر كل إحساسٍ بالخصوصية، ناهيك عن ذكر التأثير المُزعج للحارس الموجود بالمجاز.

وحين عادت الآنسة جيبسون، كان أسلوبها ينمُّ عن ذهولٍ واكتئاب شديدَين، وقد أخذتُ أُفكِّر في هذا كثيرًا بينما كنا نتقدَّم في طريقنا صامتَين نحو المدخل الرئيسي للسجن. هل وَجَدَتْ روبين باردًا وواقعيًّا كما وجدتُه؟ لا شك في أنه كان حبيبًا في غاية الهدوء والاتزان، ومن المُحتمَل أن استقباله للفتاة — التي كانت في حالة من الانفعال الشديد — كان استقبالًا صادمًا ومُخيبًا للآمال. وكان ثمة سؤال آخر، هل من المُحتمَل أن الشعور كان من جانبها هي فقط؟ هل مِن الممكن أن تكون جوهرة حُبها المكنونة قد وقعت في يد شخصٍ «حقير وجاحد»؟! شعرت برغبة شديدة في استخدام هذه الألفاظ العامية الشاذة. لم يكن بإمكاني تصور هذا الأمر، لكنني شعرت برغبة في تأمُّله؛ لأن الرجل حين يقع في الحب — ما عدت أستطيع مُداراة حالي عن نفسي — فإنه ينزع لأن يكون متواضعًا، وأن يكون شاكرًا لحصوله على الكنز الذي رفضه غيرُه.

قطع أفكاري صوت رنين القفل في البوابة الحديدية الكبرى. دخلنا معًا إلى الدهليز المُظلم، وبعد لحظةٍ خرجنا من باب صغير إلى الباحة؛ ولَمَّا جاء صوت القفل من خلفنا، تنهَّدنا معًا في آنٍ واحد تعبيرًا عن ارتياحنا أننا أصبحنا خارج حرم السجن، بعيدًا عن القضبان والمزاليج.

وكنت قد اطمأننت على استقرار الآنسة جيبسون في العربة وأعطيتُ السائق عنوانها حين لاحظتُ أنها تنظر إليَّ بأسًى، كما تراءى لي.

قالت، ردًّا على نظرة استفهامٍ وجدَتْها مني: «ألَا يُمكنني أن أوصلك إلى أي مكان؟»

فاغتنمت الفرصة شاكرًا وأجبتها:

«يمكنك أن توصليني إلى منطقة كينجز كروس، إن كان هذا لن يؤخِّرك»؛ وبعد أن أبلَغْت السائق، ركبتُ إلى جوارها بينما تحركت العربة ودخلت شاحنة من شاحنات السجن المطلية باللون الأسود إلى الفناء بحمولتها من البؤس والقذارة.

بعد قليلٍ قالت الآنسة جيبسون: «لا أظنُّ أن روبين كان مسرورًا جدًّا بلقائي، لكنني سآتي مرةً أخرى على أي حال. هذا واجبي تجاهه وتجاه نفسي.»

شعرت أن عليَّ أن أُحاول ثنْيَها عن هذا، لكنني لما فكَّرت في أن زياراتها تكاد تُحتِّم وجودي ورفقتي، فترَت رغبتي في ذلك. كنتُ أقترب بسرعة من حالة الافتتان والشغف بها.

وأردَفَت: «شعرت بالامتنان كثيرًا لأنك أعددتني للأمر. كانت تجربةً سيئة، أن أرى المسكين وهو محبوس كالحيوانات البرية، وتلك العلامة البغيضة تتدلَّى من معطفه؛ لكن هذه التجربة كانت ستُصبح كاسحةً لو لم أعرف ما ينبغي توقُّعه.»

ومع مواصلتنا لمسيرنا، انتعشت روحها قليلًا، وبلُطف منها أرجَعَت سبب هذا إلى رفقتي التي لها تأثير مُنعش ومبهج؛ ثم أخبرتُها عن الحادث المؤسِف الذي وقع لزميلي.

هتفت تقول باهتمام بالغ: «يا له من أمر شنيع! إنها صدفة تامة أنه لم يلقَ حتفه من فوره. هل أصابه أذًى بالغ؟ وفي رأيك، هل سيُمانع لو أني عرَّجت لأطمئن عليه؟»

قلت لها إنني واثق من أنه سيُسَر بذلك (كنت في واقع الحال غير مبالٍ تمامًا برأيه حول موضوع سعادتي باقتراحها هذا)، ولَّما نزلتُ من العربة عند كينجز كروس لأكمل طريقي نحو المنزل، لاح أمامي احتمال استئناف هذه الرفقة الحلوة المُرَّة والشديدة الخطورة يوم غد.

الفصل العاشر

بولتون في حيرة شديدة

كانت مدة يومَين كافيةً لإثبات أن الحادث الذي وقع لثورندايك لن يتسبَّب في أي عواقب مَرَضِيَّة دائمة؛ إذ أخذت جروحه تلتئم واستطاع استئناف أعمالِه وهواياته المعتادة.

كانت زيارة الآنسة جيبسون — ولكن لماذا أُشير إليها بهذه الطريقة الرسمية؟ فيما يخصُّني، حين أفكِّر فيها، وهذا يحدث كثيرًا، أرى أنها جولييت، ربما مع إضافة صفةٍ ما؛ سأشير إليها من الآن وصاعدًا بجولييت (لكن من دون الصفة)؛ حيث لا أريد أن أخفي شيئًا عليك يا عزيزي القارئ — أقول كانت زيارة جولييت تُمثِّل نجاحًا كبيرًا؛ لأن زميلي كان مسرورًا بما حظِي به من اهتمام، وتصرَّف بودٍّ وهدوء ملأ زائرتنا بإحساسٍ بالابتهاج والسرور.

تحدَّث كثيرًا عن روبين، واستطعت أن أرى أنه كان يُحاول أن يبتَّ في المسألة العويصة والمُحيرة المُتمثلة في علاقتها بموكلنا التعيس الحظ ومشاعرها تجاهه؛ لكنني لم أستطع أن أكتشف ما توصَّل إليه من استنتاجات؛ لأنه كان مُتحفِّظًا في الكلام بعد أن غادرت جولييت. ولم يحدث كذلك أن كرَّرت جولييت الزيارة، الأمر الذي أصابني بحسرةٍ كبيرة، فكما قلت، كان زميلي قادرًا في غضون يومَين على استئناف حياته بصورة طبيعية.

كان أول الأدلة التي رأيتها على تجدُّد نشاطه وعافيته حين عدتُ إلى مقرِّه في حوالي الحادية عشرة صباحًا، ووجدت بولتون يحوم حزينًا في أرجاء غرفة الجلوس؛ إذ كان على ما يبدو يحاول «التنظيف» قدْر ما يسمح به سكن شخصٍ أعزب.

قلت: «مرحبًا بولتون! هل خطَّطتَ للانفصال عن المُختبر لساعة أو نحو ذلك؟»

فأجابني متجهمًا: «كلَّا يا سيدي. المُختبر هو الذي انفصل عني.»

سألته: «ماذا تقصد؟»

«لقد أغلق الطبيب الباب على نفسه وأخبرني ألَّا أُزعجه. سيكون غداؤنا اليوم من بقايا طعام أمس.»

فسألته: «ماذا يفعل في المختبر؟»

فقال بولتون: «آه! هذا بالضبط ما أريد معرفته! لقد أعياني الفضول. إنه يُجري بعض التجارب ذات الصِّلة ببعض قضاياه، وحين يُغلق الطبيب على نفسه ليُجري التجارب، عادةً ما يتبع ذلك شيءٌ مُثير. أود أن أعرف ما سيحدث هذه المرة.»

اقترحت مبتسمًا: «أليس هناك ثقب للمفتاح في باب المختبر؟»

صاح بسخط: «سيدي! لقد خاب ظنِّي فيك أيها الدكتور جيرفيس.» ثم حين لاحظ أنني كنتُ أسخر، ابتسم وأضاف: «لكن ثمة ثقب للمفتاح إن كنت ترغب في تجربته، وإن كنتُ على استعدادٍ لأن أراهن أن الطبيب سيراك أكثر مما ستراه أنت.»

فقلت: «أنتما كتومان للغاية بشأن ما تفعلان، أنت والطبيب.»

فأجاب: «أجل. مهنة الطبيب هذه مهنة غير مألوفة، وتنطوي على أسرارٍ عجيبة. على سبيل المثال، ما رأيك في هذا؟»

أخرج من جيبه محفظةً جلدية، واستخرج منها قطعةً من الورق وأعطانيها. على الورقة كان يوجَد رسم دقيق ومُفصَّل لما بدا أنه بيدق من بيادق الشطرنج، وعلى حواف الورقة كُتبت أبعاد القطعة.

فقلت: «تبدو كبيدق — على نمط ستونتون.»

«هذا ما ظننتُه بالضبط؛ لكنه ليس كذلك. لقد تعين عليَّ أن أصنع منه أربعًا وعشرين قطعة، ولا أعرف على الإطلاق ماذا سيصنع الطبيب بها.»

فقلت ساخرًا: «لعله ابتكر لعبةً جديدة.»

«دائمًا ما يبتكِر ألعابًا جديدة ويلعبها في ساحات المحاكم، وحينها غالبًا ما يخسر اللاعبون الآخرون. لكن الأمر هذه المرة مُحيِّر تمامًا ولا شك. سأُسلِّم أربعةً وعشرين قطعةً من هذه بعد صناعتها من أفضل أخشاب البقس المُجفَّفة! ما الغرض منها؟ شيء له علاقة بالتجارب التي يُجريها في هذه اللحظة في الطابق العلوي، حسبما أتوقع.» ثم هزَّ رأسه، وبعد أن أعاد الرسم بحِرص إلى دفتره، قال بنبرة جادة: «سيدي، ثمة أوقات يكاد فيها الفضول يقتلني لمعرفة ما يفعله الطبيب. وهذا هو أحد هذه الأوقات.»

رغم أنني لم أكن أعاني من فضولٍ حاد كمثل الذي كان يعاني منه بولتون، وجدت نفسي أتكهَّن بين الحين والحين بشأن طبيعة التجارب التي يُجريها زميلي وبشأن الغاية

المرجوة من تلك الأشياء الصغيرة المُميزة التي كان قد طلب أن تُصنع لأجله؛ لكنني لم أكن على عِلم بأي قضيةٍ من القضايا الأخرى التي كان ضالعًا فيها، عدا قضية روبين هورنبي، ولم أستطع أن أجد رابطًا بينها وبين مجموعةٍ مكوَّنة من أربعة وعشرين بيدقًا مصنوعِين من خشب البقس. علاوةً على ذلك، في هذا اليوم، كان من المُفترَض أن أرافق جولييت في زيارتها الثانية إلى سجن هولواي، وقد انشغل ذهني بهذا الأمر انشغالًا من نوعٍ آخر.

وعلى الغداء، كان ثورندايك نشيطًا وكثير الكلام لكنه لم يكن غير مُتحفظ. قال إنه كان لدَيه «بعض الأعمال التي يجب أن يُنجزها بنفسه في المختبر»، لكنه لم يُشِر ولو من بعيدٍ إلى طبيعتها؛ وبمجرد أن انتهَينا من غدائنا، عاد إلى أعماله، تاركًا إياي أذرَع الممر جيئةً وذهابًا، أتسمع بشغفٍ شديد منتظرًا صوت العربة التي ستنقلني إلى النعيم، وبالتبعية إلى سجن هولواي.

حين عدت إلى منطقة تيمبل، كانت غرفة الجلوس فارغةً ومُرتبة ترتيبًا مُفرطًا، نتيجة جهود بولتون في تنظيفها تنظيفًا شاملًا. كان من الواضح أن زميلي كان لا يزال يعمل في المختبر، ولَمَّا رأيتُ أن عُدة الشاي كانت موضوعةً على الطاولة وأن هناك غلايةً بها ماء وجاهزة للاستعمال موضوعة على شعلة الغاز بالقُرب من المدفأة، عرفت أن بولتون مُنشغل هو الآخر ولا يرغب في أن يُزعجه أحد.

ثمَّ أشعلتُ الشعلة وأعددتُ الشاي لنفسي، مؤنسًا وحدتي بأن أخذت أقلِّب في ذهني أحداث عصر اليوم.

كانت جولييت فاتنة — كعادتها — ومنفتحةً وودودة ومسرورة من دون تكلُّف برفقتي لها. بدا جليًّا أنني أروق لها ولم تكن تُخفي هذا — ولماذا يتعيَّن عليها أن تفعل ذلك؟ — لكنها كانت تُعاملني بحريَّة وبما يكاد أن يكون حنوًّا، وكأنني أخٌ مفضَّل لديها، الأمر الذي كان يبعث على البهجة والسرور، وكانت العلاقة ستُصبح مبهجةً أكثر لو استطعتُ أن أتقبَّلها على هذا النحو. أما بشأن مشاعرها تجاهي، فلم يكن لديَّ أدنى شك، ومن ثمَّ كان ضميري صافيًا ومرتاحًا؛ فجولييت بريئة كالأطفال، وبراءتها تعود لطبيعتها البسيطة والمباشرة التي لا تأتي على فعل سوءٍ ولا تبحث عن الدوافع الشريرة عند الآخرين. أما أنا، فكنت قد وصلت إلى مرحلة ميئوسٍ منها. كنت قد وقعت في حبها ولا بد أن أدفع الثمن فيما بعد، قانعًا بأنني لم أكن قد أخطأتُ بحقِّ أحدٍ سوى نفسي. كانت علاقةً تعيسة، وكانت تُبشِّر بأنني سأكابد آلامًا جمَّة في الأيام الموحشة المقبلة، حين أكون قد ودَّعت منطقة تيمبل وعدتُ إلى حياة عدم الاستقرار القديمة؛ ومع ذلك، ما كنت لأُغيِّر

من الأمر شيئًا لو كان ذلك بيدي؛ ما كنت لأستبدل بذكرياتي الحلوة المُرَّة معها سلوانًا كليلًا.

لكن حدثت أمور أخرى أثناء رحلتنا غير تلك التي بدت لي كبيرةً بفعل أنانية حُبي. كنا قد تحدثنا عن السيد هورنبي وعن أموره، ومن حديثنا برزت معلومات مُعينة كانت ذات أهمية كبيرة للتحقيق الذي كنتُ ضالعًا فيه.

كانت جوليت قد علَّقت بقولها: «المصائب لا تأتي فُرادى»، في إشارة إلى عمِّها الذي تبنَّاها. وأردفت: «ثمة مشاكل تواجهها العائلة في المدينة، وكأن مأساة روبين لم تكن كافية. ربما تكون قد سمعتَ بما حدث.»

فأجبتُها بأن والتر كان قد أتى على ذكر الأمر لي.

فردَّت بضراوة: «أجل؛ لست واثقةً بشأن الدور الذي لعبه ذلك السيد المحترم في هذه المسألة. فقد اتَّضح، عرَضًا، أنه هو نفسه كان يملك حصةً كبيرة في المناجم، لكن يبدو أنه «أوقف نزيف خسائره» على حدِّ تعبيره، ونجا بنفسه؛ رغم أننا لا نستطيع أن نفهم كيف تمكَّن من دفع تلك الفروق المالية الكبيرة. نظنُّ أنه لا بد أن يكون قد جمع المال بطريقةٍ ما من أجل أن يفعل ذلك.»

فسألتها: «هل تعرفين متى بدأت المناجم تفقد قيمتها؟»

«أجل، كان الأمر مفاجئًا إلى حدٍّ كبير — ما يطلِق عليه والتر «انهيارًا» — وحدث قبل بضعة أيام فقط من وقوع السرقة. وقد أخبرني السيد هورنبي عن الأمر يوم أمس فقط، وقد ذكره لي في سياق حديثه عن حادثةٍ غريبة وقعت في ذلك اليوم.»

فسألتها: «ماذا كانت تلك الحادثة؟»

فأجابت بضحكة خفيفة غلب عليها الخجل: «جُرِحت إصبعي وكدت أفقد الوعي. وكان الجرح سيئًا إلى حدٍّ ما، لكنني لم ألاحظه إلا حين أصبحت يدي كلها مضرَّجةً بالدم. حينها خارت قوتي فجأة وتعيَّن عليَّ أن أرقد على الأرض على بساط الموقد؛ حدث ذلك في مكتب السيد هورنبي، الذي كنت أُنظِّفه وأُرتِّبه في ذلك الوقت. وجدني روبين حينها، وللوهلة الأولى ارتاع لَمَّا رآني؛ ثم مزَّق منديله لكي يربط على جرح إصبعي، ولا يمكن أن تُصدِّق كيف تلطَّخت يداه بالدماء. كان يمكن أن يُلقى القبض على ذلك المسكين بتُهمة القتل بسبب الحالة التي كان فيها. وربما يُثير استياءك باعتبارك مهنيًّا لو أخبرتُك أنه ربط على الضمَّادة المرتجلة التي ضمَّد بها إصبعي بشريطٍ أحمر حصل عليه من على طاولة الكتابة، بعد أن أخذ يعبث بلا هوادة بالأوراق الخاصة بالسيد هورنبي وبأشيائه.

وحين غادر حاولت أن أعيد ترتيب الأشياء على الطاولة، ولو رأيت الوضع حينها لظننتَ أن جريمةً شنيعة قد وقعت بالمكان؛ فقد كانت كل المظاريف والأوراق ملطخةً بالدم وتحمل علامات أصابع دامية. تذكَّرت هذه الحادثة بعد ذلك حين تعرَّفت الشرطة على بصمة إبهام روبين، وظننتُ أن أحد الأوراق ربما وقع في الخزينة بطريق المصادفة؛ لكن السيد هورنبي أخبرني أن هذا مُستحيل؛ فقد مزَّق الورقة من دفتره الخاص في الوقت الذي وضع فيه الألماس في الخزينة.»

كانت تلك هي خلاصة المحادثة التي جرت بيننا، فيما كانت العربة تخترق الشوارع في طريقنا إلى السجن؛ وكانت بلا شك تنطوي على أمور مُهمة بحيث تستقطب أفكاري بعيدًا عن أي مواضيع أخرى سائغة أكثر، لكنها أقلُّ صلةً بالقضية. ولما تذكَّرت فجأةً مهام عملي، أخرجت مفكرتي وكنت أُدوِّن ما جرى بيننا من حديث، حين دخل ثورندايك الغرفة.

وقال: «لا أريد أن أقاطعك يا جيرفيس. سأصنع لنفسي كوبًا من الشاي بينما تنتهي من الكتابة، وحينها يمكنك أن تعرض عليَّ صيدك اليوم وتفرد شباكك لتجف.»

لم أستغرق وقتًا للانتهاء من تدوين ملحوظاتي؛ لأنني كنتُ متلهفًا لأن أسمع تعليقات ثورندايك على آخر إضافاتي لمخزون معلوماتنا. فبحلول الوقت الذي وصلت فيه غلاية الماء إلى مرحلة الغليان، شرعتُ على الفور أسرد على زميلي مقتطفاتٍ من محادثتي مع جولييت والتي كنتُ قد دوَّنتها الآن.

استمع ثورندايك كعادته باهتمامٍ وانتباهٍ عميقَين.

وقال حين انتهيت: «ما تقوله مُثيرٌ للاهتمام ومهم جدًّا؛ حقًّا يا جيرفيس، أنت معاون بالِغ القيمة والأهمية. يبدو أن المعلومات التي كانت ستُحجب بصرامةٍ عن جوركينز المُتجهم تتسرَّب بحرية ودون إكراه إلى أذن سبينلو اللطيف (جوركينز وسبينلو شخصيتان في رواية تشارلز ديكنز الشهيرة، «ديفيد كوبرفيلد»). والآن أظن أنك تعتبر أن فرضيتك وَجَدَتْ تأكيدًا حقيقيًّا ومُهمًّا، صحيح؟»

«بالتأكيد، هذا ما أراه.»

«وهذا مُبرَّر جدًّا. أنت ترى الآن كم كنتَ مُحقًّا حين سمحت لنفسك أن تُفكر في هذه النظرية عن الجريمة رغم كونها مستبعدةً ظاهريًّا. لقد أصبحت نظريتك، في ظلِّ هذه المعلومات الجديدة، تفسيرًا مُمكنًا ومُحتملًا للمسألة برمَّتها، ولو أمكن إثبات أن مُفكِّرة السيد هورنبي كانت بين الأوراق على الطاولة، فإن هذا التفسير سيرقى إلى درجة عالية

من الاحتمال. والدرس المُستفاد والواضح الذي نتعلَّمه هنا هو ألَّا نغضَّ الطرف أبدًا عما هو بعيد الاحتمال. بالمناسبة، من الغريب ألَّا يتذكَّر روبين هذه الحادثة حين استجوبتُه. بالطبع، لم تُكتَشَف البصمات الدامية إلا بعد أن انصرف، لكن المرء كان سيتوقَّع منه أن يتذكَّر هذا الحادث حين سألتُه، وبالأخص، سؤالي عما إن كان قد خلَّف من قبلُ أي بصماتٍ دامية على أي أوراق.»

قلت له: «يتعيَّن عليَّ أن أحاول اكتشاف إن كانت مفكِّرة السيد هورنبي على الطاولة وبين الأوراق التي طالتها البصمات الدامية.»

فأجابني: «أجل، سيكون من الحكمة فعل هذا، وإن كنتُ أظن أن المعلومات لن تكون متيسِّرة.»

أصابني أسلوب زميلي بالإحباط إلى حدٍّ كبير. كان قد استمع إلى إفادتي باهتمام بالغ، وناقشني فيها مناقشةً متحمسة، لكن بدا أنه كان يولِي اهتمامًا أكاديميًّا وليس عمليًّا بالمعلومات الجديدة البالِغة الأهمية، كما بدت لي. بالطبع، يمكن أن يكون هدوءُه مصطنعًا؛ لكن هذا بدا مُستبعدًا؛ لأن جون ثورندايك كان أكثر صدقًا ووقارًا من أن يلجأ في حياته الخاصة إلى حِيَل المُمثلين. كان عادةً ما يظهر للغرباء بمظهرٍ هادئ وجامد بالفعل؛ لكن هذا كان من طبيعته، ولم يكن سوى دليل ظاهر على حالته الذهنية التي تتميَّز بالتحفُّظ والحصافة.

كلَّا؛ لم يكن هناك شكٌّ في أن الأخبار المُذهلة التي أتيتُ بها لم تؤثر فيه، ولا بد أن هذا يرجع لأحدِ سببَين: إما أنه كان يعرف بالفعل كل ما أخبرتُه به (وهذا جائز تمامًا)، أو أنه كان يملك وسيلةً أخرى أفضل لتفسير الجريمة. كنتُ أُفكِّر في هذين البديلَين وزميلي اليقِظ يُراقبني حين دلف بولتون إلى الحجرة؛ وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وعلى يدِه كان يحمل لوحة رسمٍ وكأنها صينية، عليها أربعة وعشرون قطعةً خشبية مصنوعة بمهارة شديدة من خشب البقس.

على الفور فهم ثورندايك دعابة مرءوسه التي بدت على مُحيَّاه وانخرط فيها.

فقال: «ها قد أتى بولتون ومعه لك مسألة يا جيرفيس. إنه يفترض أنني ابتكرتُ لعبة صالونات جديدة، وكان يحاول أن يعرف الحركات التي تنطوي عليها اللعبة. هل أفلحتَ في شيءٍ يا بولتون؟»

«كلَّا يا سيدي، لم أُفلح؛ لكنني أظنُّ أن أحد اللاعبين سيكون رجلًا يضع شعرًا مُستعارًا ويرتدي عباءة.»

فقال ثورندايك: «ربما تكون مُحقًّا؛ لكن هذا لا يكشف اللغز. دعنا نسمع ما لدى الدكتور جيرفيس.»

فأجبتُه: «لا أستطيع أن أُخمِّن شيئًا منها. لقد أراني بولتون الرسم هذا الصباح، ثم أُصيب بالذعر مخافة أن يكون قد انتهك سرًّا من أسرارك، ومنذ ذلك الحين وأنا أُحاول، دون جدوى، أن أُخمِّن ما يمكن أن تُستخدَم فيه هذه المشغولات الخشبية.»

غمغم ثورندايك وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا وكوب الشاي في يده، ثم قال: «تُخَمِّن؟ لا يروق لي أن تخرج هذه الكلمة من فمِ رجلِ علم. ماذا تقصد بقولك «أُخمِّن»؟»

كان أسلوبه في الحديث ساخرًا، لكنني أبديتُ أنني آخُذ سؤاله على مَحمل الجد، فأجبته:

«هذه الكلمة تعني الوصول إلى استنتاجٍ ما من دون معلومات.»

فهتف بنبرة صارمة وساخرة: «مُستحيل! لا يمكن لأحد أن يصِل إلى استنتاجٍ من دون معلومات إلا إن كان أحمق.»

أجبت: «إذن سأُراجع تعريفي على الفور. لنقل إن التخمين هو استنتاج تصِل إليه من دون معلومات كافية.»

فقال: «هذا أفضل؛ لكن ربما لا يزال من الأفضل أن نقول إن التخمين هو استنتاج مُحدَّد ومعيَّن نستخلِصه من حقائق لا تُنتِج إلا استنتاجًا عامًّا وغير مُحدد.» وأردف يقول: «لنضرب مثالًا على هذا. بالنظر من النافذة، أرى رجلًا يسير حول بيبر بيلدنجز. لنفترِض الآن أنني قلت، على غرار ما قد يقول المحقق الملهَم في الروايات: «هذا الرجل يعمل ناظر محطة، أو مفتشًا»، سيكون هذا تخمينًا. الحقائق المرصودة لا تؤدي إلى هذا الاستنتاج، وإن كانت تُشير إلى استنتاج أقلَّ تحديدًا وأكثر عمومية.»

صاح بولتون، الذي كان قد تقدَّم معي لنتفحص الرجل الغافل عنا موضوع التجربة: «ستكون مُحقًّا يا سيدي! هذا الرجل كان ناظر محطة كامبرويل. أنا أتذكَّره جيدًا.»

كان الرجل الضئيل الحجم مذهولًا بشكلٍ واضح.

فقال ثورندايك: «يتصادف أنني مُحق؛ لكنني بالسهولة نفسها كان يمكن أن أكون مخطئًا.»

قال بولتون: «لكنك لم تكن مخطئًا يا سيدي. لقد ميَّزته من نظرة واحدة.»

وفي خضمِّ إعجاب بولتون بالنتيجة، لم يهتم مطلقًا بصحة الوسائل التي توصَّل بها ثورندايك إليها.

تابع ثورندايك، متجاهلًا تعليق مساعده: «والآن لماذا أقترح أنه ناظر محطة؟»

أجبته: «أظن أنك كنت تنظر إلى قدمَيه. يبدو أنني قد لاحظت أن نُظَّار المحطات لهم تلك المشية الغريبة التي تكون فيها أقدامهم مسطحة، على ذكر ما قلت.»

«الأمر كذلك إلى حدٍّ بعيد. لقد وشى به أخمص قدمه؛ أصبحت الأربطة الأخمصية مُمتدة، كما أن عضلات باطن الساق العميقة ضَعُفَت. لذا، حيث إن انثناء القوس الضعيف يُسبِّب عدم الراحة، اتجهت القدمان إلى جهة الخارج، وبذا يقل انثناء القدم إلى الحد الأدنى؛ وحيث إن القدم اليُسرى هي الأكثر تسطُّحًا، فإنها متجهة جهة الخارج أكثر من القدم اليُمنى. إذن توجُّه أصابع القدم نحو الخارج يجعل الساقين تتفلطحان نحو الخارج من عند الركبة ونزولًا — وهي حالة واضحة جدًّا في رجل طويل القامة كهذا الرجل — كما تلاحظ أن الساق اليُسرى مفلطحة جهة الخارج أكثر من اليُمنى.

لكننا نعلم أن انخفاض أخمص القدم سببه الوقوف لفتراتٍ طويلة. فالضغط المُستمر على هيكل حي يُضعفه، في حين أن الضغط المتقطِّع يُقوِّيه؛ لذا تجد الرجل الذي يقِف على قدمَيه باستمرار يُصاب بتفلطح في مشط القدم وضعف في باطن الساق، في حين يتمتَّع الراقصون والعدَّاءون بمشط قدم مُرتفع وباطن قدم قوي. والآن ثمة مِهن كثيرة تتضمَّن الوقوف لفتراتٍ طويلة بما يسمح بحدوث حالات تفلطح القدم؛ ومن هذه المِهن: النُّدُل والحمَّالون والباعة الجائلون، ورجال الشرطة ومشرفو المتاجر ومسئولو المبيعات ومسئولو المحطات. لكن مشية النادل مميزة — فهي مشية سريعة ويُجرجر فيها قدمَيه ممَّا يُمكِّنه من حمل السوائل من دون إهراقها. أما هذا الرجل فيسير بخطواتٍ طويلة ومتأرجحة؛ من الواضح أنه ليس بنادل. ومن ملبسه ومظهره العام يُستبعَد أن يكون بائعًا جائلًا أو حتى حمَّالًا؛ كما أنه رجل ذو بنية جسدية ضعيفة، فلا يمكن أن يكون شرطيًّا. ومشرفو المتاجر أو مسئولو المبيعات معتادون على الحركة في مساحات محدودة نسبيًّا، من ثم تجد خطواتهم قصيرةً ونشيطة، كما أن ملابس هؤلاء تميل لأن تعكس مظهرًا أنيقًا؛ أما مسئولو المحطات فيجولون على أرصفة طويلة، وعادةً ما تكون جولاتهم بخطواتٍ سريعة، من ثمَّ ينزعون إلى أن تكون خطواتهم أطول، كما تكون ملابسهم فخمةً وليست مزخرفة. ترى الآن أن السِّمات التي ذكرتها في آخر كلامي تظهر في موضوع تحليلنا؛ فهو يتوافق مع الوصف العام لناظر محطة. لكنَّنا إذا ما خلصنا بِناءً على ذلك إلى أنه ناظر محطة، فإننا نَسقُط في المُغالطة التقليدية المُسمَّاة الحد الأوسط غير المُستغرق؛ وهي المُغالطة التي تلازم كل الحازرين البارعين، ومن ضِمنهم

المُفتشون، لا في الروايات وحدَها، ولكن الذين يكونون في الحياة الواقعية أيضًا. فكل ما تشير إليه الحقائق المرصودة ويمكن استنتاجه بصورةٍ مبرَّرة هو أن هذا الرجل يعترك الحياة على نحو يستوجِب أن يقف لقدْر كبير من الوقت؛ أما بقية ذلك فهو مجرد تخمين.»

فقال بولتون وهو ينظر إلى الرجل الذي كان قد ابتعد: «هذا مدهش، مذهل بكل المقاييس. ما كنت لأعرف مطلقًا أنه ناظر محطة.» وبعد أن أدلى بهذا التعليق غادر وهو ينظر إلى ربِّ عمله نظرةً تنمُّ عن إعجابٍ عميق.

فقال ثورندايك بابتسامة: «ستلاحظ أيضًا أن تخمينًا محظوظًا غالبًا ما يعود عليك بقدْر من الثناء أكبر ممَّا يعود عليك به استنتاج منطقي نتيجته أقل إثارةً للدهشة.»

«أجل، من المؤسف أن هذه هي الحال، وهي صحيحة بالتأكيد في الحالة التي بين أيدينا. فيما يخصُّ بولتون، سُمعتك الآن أصبحت راسخةً حتى ولو لم تكن كذلك من قبل. أنت الآن في نظره عرَّاف عبقري لا يخفى عليه شيء. لكن لنعد إلى هذه القطع الصغيرة، ويتعين أن أُسمِّيها كذلك؛ لأنني لا أجد لها اسمًا أفضل. لا أستطيع أن أضع فرضيةً بشأن استخدامها. إذ لا يبدو أنني أرى نقطة «انطلاق» — كما تقول العبارة — أبدأ منها بحثي. أنا حتى لا أملك ما يكفي لأن أحزر وأُخمِّن. فهل ينبغي لي أن أكون قادرًا على التوصُّل إلى أي رأيٍ حول هذا الموضوع؟»

التقط ثورندايك إحدى القِطَع وقلَّبها بين أصابعه برقة وفَحَصَ بعينٍ ناقدة قاعدتها المستوية التي تقف عليها، ثم أخذ يتفكَّر لبضع لحظات.

قال أخيرًا: «من السهل تتبُّع الصِّلة حين يكون المرء على علمٍ بكل الوقائع والمعلومات، لكن يبدو لي أنك تملك ما يكفي لأن تتوصَّل إلى تخمين. ربما أكون مخطئًا، لكنني أظنُّ أنك ستجد نفسك قادرًا على حلِّ مشكلةٍ من هذا النوع حين تكون قد اكتسبت مزيدًا من الخبرة. يتطلب الأمر مُخيِّلةً بنَّاءة وانضباطًا صارمًا في التفكير المنطقي. والآن أنت تُفكِّر بمنطق سليم، وقد برهنت لي مؤخرًا على أنك تملك المُخيِّلة اللازمة؛ أنت تفتقر فقط إلى الخبرة في استخدام هذه الإمكانات. حين تعلم غايتي من صنع هذه الأشياء — وهذا ما ستعرفه عما قريب — على الأرجح سيُدهشك أنه لم يخطر على بالك بصورةٍ بديهية استخدامها. والآن لنذهب ونمارس المشيَ قليلًا لنُعيد لأنفسنا الحيوية والنشاط (أو ربما كان بالأحرى أن أتحدَّث عن نفسي) بعد ما أنجزناه اليوم من عمل.»

الفصل الحادي عشر

الفخ

بعد ذلك بيوم أو نحو ذلك، قال ثورندايك: «سأطلب منك المعاونة في قضية أخرى. ظاهر الأمر أنها حالة انتحار، لكن محامي مكتب «جريفين» قد طلبوا مني أن أذهب إلى المكان، الذي يقع في ضاحية بارنيت، وأن أحضر «تشريح الجثة» والتحقيق. لقد تدبَّروا أمر إجراء التحقيق بعد التشريح مباشرة؛ حتى نتمكن من أداء المهمة كلها في زيارة واحدة.»

فسألته: «هل في القضية أي تعقيد؟»

فأجابني: «لا أظن هذا. تبدو كحالة انتحارٍ عادية؛ لكن لا يسع المرء مطلقًا أن يعرف يقينًا. تبرُز أهمية القضية في الوقت الراهن من مسألة التأمين الكبير؛ فإصدار حُكم بأنها حالة انتحار من شأنه أن يعني مكسبًا قيمته عشرة آلاف جنيه لمكتب «جريفين»؛ لذا من الطبيعي أن يكون مديرو المكتب حريصين على تسوية القضية وغير ميَّالين إلى الاعتراض على تكلفة قليلة.»

فقلت: «بطبيعة الحال.» ثم سألته: «ومتى سننطلِق في رحلتنا؟»

«تحدَّد موعد التحقيق بحيث يكون غدًا؛ ما الأمر؟ هل ذلك يتعارَض مع أي ترتيبات لديك؟»

أجبتُه بسرعة: «كلا، ليس شيئًا مهمًّا»، وشعرت بخجلٍ عميق من تغيُّر ملامحي للحظة؛ الأمر الذي سرعان ما لاحظه صديقي.

فألحَّ في سؤاله: «قل لي، ما الأمر؟ ثمة شيء ما.»

«لا شيء ذا بال، صدِّقني، بل هو أمر يُمكنني تدبُّره بسهولة ليتلاءم مع خططك.»

تساءل ثورندايك بنبرة خفيضة وبابتسامة مُستفزة: «أهو ما أفكِّر فيه؟»

فأجبته، وقد احمرَّ وجهي من شدة الخجل: «نعم؛ سأخبرك بما أنك شديد الفضول إلى هذا الحد. أرسلَت لي الآنسة جيبسون، نيابةً عن السيدة هورنبي، تدعوني إلى تناول العشاء مع العائلة مساء يوم غد، وقد أرسلتُ ردِّي بالموافقة قبل ساعة.»

فهتف ثورندايك متعجبًا: «وتقول إن هذا «ليس ذا بال»! ويا للأسف! وبالمثل وا حسرتاه (وهو تعبير مرادف تقريبًا للأول)! لقد ولَّى، حقًّا، زمن الشهامة. بالطبع لا بد أن تفي بالتزامك بموعدك؛ يُمكنني تدبُّر أمري وحدي.»

«أظن أننا لن نعود في وقتٍ مبكر بما يسمح لي بأن أذهب إلى كينزنجتن من المحطة، صحيح؟»

«كلا؛ بالطبع لن نفعل. من وجهة نظري القطارات غير ملائمة على الإطلاق؛ لن نصِل إلى كينجز كروس إلا بحلول الواحدة صباحًا.»

«في هذه الحال إذن، سأرسل إلى الآنسة جيبسون وأعتذِر لهم.»

فقال ثورندايك: «ما كنتُ لأفعل هذا؛ هذا سيُصيبهم بالإحباط، والأمر ليس حقًّا ضروريًّا.»

فقلت بنبرة حاسمة: «سأرسل لها على الفور؛ لذا من فضلك لا تحاول ثنيي. لقد كنتُ أشعر بعدم ارتياح لفكرة أنني، طوال الوقت الذي كنت فيه موظفًا لديك، لم أفعل شيئًا سوى التسكُّع والاستمتاع بوقتي. إن فرصة إنجاز شيءٍ ملموس لقاء أجري هي فرصة أغلى من أن أفوِّتها.»

ضحك ثورندايك بمودة وتساهُل. وقال: «افعل ما يطيب لك يا فتاي العزيز؛ لكن لا تتصوَّر أنك لم تكن تعمل لقاء ما تأخذ من أجر. فحين ترى حلَّ قضية هورنبي هذه بالتفصيل، ستندهِش من الدور الكبير الذي لعبتَه في حلِّها. لقد كانت قيمتك عندي تفوق بكثير أجرك البسيط والقليل، وأؤكِّد لك ذلك.»

فقلت: «من اللطيف منك أن تقول هذا»، وأنا ممتن للغاية لأن أعرف أنني ذو نفع وفائدة، ولستُ محل إحسان وإكرام، كما كنتُ قد بدأت أظن.

فأجابني: «هذا صحيح وحقيقي تمامًا؛ والآن وبما أنك ستساعدني في هذه القضية، سأُملي عليك مهمتك. القضية، كما قلتُ، تبدو بسيطةً إلى حدٍّ كبير، لكن لا ينبغي أبدًا أن نركن إلى بساطتها. ها هو الخطاب الذي وصل من المحامين ويقصُّ الوقائع كما هي معروفة حتى وقتنا الراهن. وعلى الأرفف هناك ستجد كتبًا لكاسبر، وتايلور، وجاي وفيرير، ومؤلفين آخرين في مجال الطب الشرعي، وسأُخرِج لك كتابًا أو كتابَين آخرَين قد تجدهما نافعَين. أريد منك أن تستخرج كل شيءٍ يمكن أن يكون له علاقة بهذه القضية وتُصنِّفه في ملاحظات. لا بد أن نذهب ونحن مستعدُّون لمجابهة أي احتمالٍ يمكن أن

يطرأ. هذه عادتي دومًا، وحتى إن تبيَّن أن القضية بسيطة وسهلة، فإن العمل الذي تؤدِّيه لن يضيع هباءً؛ لأنه سيُكسبك الكثير من الخبرات.»

فقلت معترضًا: «لكن مؤلفات كاسبر وتايلور عتيقة إلى حدٍّ بعيد، أليس كذلك؟»

أجاب بنبرة جافة: «وكذلك الانتحار. من الأخطاء الفادحة أن تُهمِل المؤلِّفين القدامى وتستخف بهم. لقد كان هناك رجال أقوياء قبل أجاممنون، وبعضهم كانوا أقوياء لدرجة غير معهودة. أعطِ أفضل ما لديك من اهتمام لكاسبر الجليل وتايلور العتيق، ولن تضيع عليك مثوبة عملك.»

نتيجةً لهذه الوصايا، كرَّستُ ما تبقى من اليوم لبحث الطرائق المختلفة التي يسعى من خلالها الإنسان للخروج من مسرح أنشطة الحياة البشرية. وقد وجدتها دراسةً مُمتعة للغاية، وما زاد اهتمامي بها ترقُّب المشكلة التي تنتظر حلَّها يوم غد؛ لكن دراستي هذه لم تكن مُمتعةً بالدرجة التي تشغلني عن تخصيص وقتٍ لكتابة خطابٍ طويل وحميم وتفسيري دقيق إلى الآنسة جيبسون، ذكرت فيه حتى ساعة عودتنا لأريها استحالة أن أفي بموعدي. ولم أخشَ في ذلك ولو بقدْر ضئيل أن تشعر الآنسة جيبسون أنني أُسيء إليها؛ لأن دليل احترامي وتقديري لها هو أنني ألغيتُ الموعد من دون أن يُساورني الشك ولو للحظةٍ أنها لن تُؤيِّد تصرُّفي؛ لكن كان من دوافع السرور أن أكتب لها وأُسهب في الكتابة وأن أشعر بحميمية أنني أُبقيها مُطلعةً على تفاصيل حياتي.

ولَمَّا ذهبنا نتحرَّى القضية في الوقت والمكان المُحدَّدَين، تبيَّن أنها حالة انتحار من النوع الذي لا يقبل الجدل؛ الأمر الذي أصابنا أنا وثورندايك، على ما أظن، بقليل من خيبة الأمل؛ وكان الباعث على خيبة أمل ثورندايك أنه لم يفعل إلا القليل لقاء أتعابٍ كبيرة، أمَّا أنا فلأنني لم أحظَ بفرصة لتطبيق معرفتي التي عزَّزتها حديثًا.

قال زميلي بينما كنا نُدثِّر أنفسنا في دُثُرنا في زوايا متجاورة في عربة القطار: «أجل، كانت مسألةً بسيطة، وكان بإمكان المُحامين المحليين تدبُّر الأمر برمَّته. لكنها لم تكن هدرًا للوقت في نهاية المطاف؛ لأنني وكما ترى، كثيرًا ما أُنجز أعمالًا لا أتلقَّى عليها أجرًا ولا تقديرًا؛ لذا لا تجدني أتذمَّر إن وجدتُ نفسي بين الحين والآخر أتلقَّى أجرًا أكبر مما قدَّمتُ من خدمات. وفيما يخصُّك، أظنُّ أنك اكتسبت قدرًا لا بأس به من المعرفة القيِّمة في موضوع الانتحار، والمعرفة قوة، كما قال الراحل اللورد بيكون في مقولته الحقة والصادقة أكثر من كونها مبتكرة.»

لم أردَّ على قوله هذا؛ إذ كنتُ قد أشعلت غليوني الآن، وكنت أشعر بالنعاس بصورةٍ لم أعهدها؛ ولَمَّا فعل زميلي مثلما فعلت، أخذنا نُدخِّن في صمت، فزاد إحساسي بالنعاس، وذلك حتى توقف القطار في المحطة وخرجنا منه إلى الرصيف ونحن نتثاءب ونرتجف.

صاح ثورندايك وهو يشدُّ دثاره إلى كتفيه: «سحقًا! البرد شديد في هذه الساعة؛ إنها الواحدة والربع. انظر كم يبدو كل هؤلاء الركَّاب المساكين بردانين وبائسين. هل نستقلُّ عربة أجرة أم نسير؟»

فأجبته: «أظن أن المشي السريع سيُنشط دورتنا الدموية بعد أن قضينا هذه المدة الكبيرة مكوَّمَين في عربة القطار.»

قال ثورندايك: «وأنا أيضًا أظن ذلك، إذن هيا بنا! لننطلق! بل قد أقول هَلُمَّ بنا! يبدو أن ذلك السيد النبيل يُفضِّل الحياة الشاقة، إن جاز للمرء أن يحكُم من حجم عجلتِه المُسنَّنة.»

ثم أشار إلى دراجة كانت مركونةً إلى حيز الرصيف عند بداية الشارع؛ دراجة من النوع المُستخدَم في السباقات، لها عجلة مُسننة ضخمة، تُشير إلى ترسٍ مُعدَّلُه تسعون على الأقل.

فقلت: «ربما كان متسابقًا أو هاوي سباقات، يستغل فرصة قيادة الدراجة على الأرصفة الخشبية حين تكون الشوارع خاوية.» ونظرت حولي لأرى إن كنتُ أستطيع رؤية مالك الدراجة، لكن بدا في الوقت الراهن أن الدراجة وحدَها.

حي كينجز كروس هو أحد تلك الأحياء التي يسهر قاطنوها حتى ساعة متأخرة من الليل، وحتى في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل، لم تكن الشوارع خاليةً تمامًا. فهنا وهناك، كان يلوح ضوء خافت من أحد مصابيح الشوارع أو ينبعِث شعاع قوي من عمود إنارة طويل وبعيد فيكشف عن أحد المُتجولين ليلًا والمُتسلِّلين بخفَّة القطط، أو من يندفع فجأة — مثل القطط أيضًا — في غناء لا لحن له. ولَمَّا لم تكن لدينا رغبة في الاختلاط بمجتمع العرابدة هذا، عبرنا الطريق بسرعةٍ من المحطة وإلى طريق جرايز إن، الذي كان في ذلك الوقت ساكنًا وكئيبًا في مظهره، ورُحنا نشقُّ طريقنا على طول الجانب الغربي. وكنا قد الْتففنا مع انحناءة الطريق وكنا نعبر شارع مانشستر حين عرفنا من خلال سلسلةٍ من الصيحات الآتية من أمامنا أن هناك مجموعة من المخمورين، الذين لم يكن باستطاعتنا رؤيتهم بعد؛ لأن الليلة كانت حالكة الظُّلمة بصورةٍ استثنائية؛ لكن أصوات المرح ظلَّت تعلو بينما كنا نتقدَّم في السير، حتى جاوزنا شارع سيدمث فرأيناهم.

كان عددهم يُقارب نصف دزينة، وكانوا خشنين من النوع الدموي والمشاغب، ولا شكَّ في أنهم كانوا في حالةٍ من العربدة والصخب؛ لأنهم توقَّفوا لدى مرورهم بمدخل مستشفى رويال فري وأخذوا يقرعون على البوابة قرعًا شديدًا. وبعد أن فرغوا من فعلتهم هذه عبروا الطريق إلى الجانب الذي كنا نسير فيه، وحينها أمسك ثورندايك بذراعي وأبطأ من سرعة خطوِه.

وقال: «دعهم يتقدَّمون عنا. من الحكمة والاحتياط أن تترك مساحةً كبيرة بينك وبين عصابات المُشاغبين في هذا الوقت من الليل. من الأفضل أن ندلف شارع هيثكوت ونجتاز ميدان ميكلنبورج.»

استمرَرْنا في السير بسرعةٍ بطيئة حتى وصلنا إلى شارع هيثكوت، فانعطفنا فيه ومن ثمَّ إلى ميدان ميكلنبورج حيث عدلنا سرعتنا مرةً أخرى.

استطرد ثورندايك، بينما كنَّا نجتاز الميدان الخامد بخطوات سريعة: «تقترف عصابات المُشاغبين عددًا من الآثام والخطايا تتراوح بين السرقة بالإكراه على الطرق السريعة وقطعها والاغتيال مقابل أجر (الذي يُسمَّى عمليًّا بـ «الاعتداء العنيف») وحتى استغفال القاضي الرحيم الذي يظنُّ أن وظيفته في النظام الطبيعي هي تأمين النجاة لغير الأصلح. ثمة راكب دراجة يسير بها في شارع جيلدفورد. أتساءل إن كان هذا هو صديقنا القوي الذي رأينا دراجته عند المحطة. إن كان هو، فقد انسلَّ متجاوزًا عصابات المُشاغبين.»

وكنا ندخل الآن شارع دوتي، وبينما كان ثورندايك يتحدَّث، استطعتُ للحظة أن أرى رجلًا يركب دراجةً عند تقاطُع الشارعَين. وحين وصلنا إلى شارع جيلدفورد، نظر كلانا إلى الأفق الطويل المضاء بالمصابيح، لكن راكب الدراجة كان قد اختفى.

وقال ثورندايك: «من الأفضل أن نُكمل المسير مباشرةً إلى شارع ثيوبالد»، ثمَّ تابعنا طريقنا في الشارع القديم والجميل، وقد أصبح لوقع أقدامِنا صدًى بفعل طول المباني فيه، فبدا وكأن رفقةً خفية تتبعنا، حتى وصلنا إلى ذلك الجزء الذي يتغيَّر فيه اسم الشارع بصورةٍ غير مفهومة أو مبرَّرة ليصبح شارع جون.

فقال ثورندايك: «دائمًا ما يبدو لي أن هناك شيئًا مثيرًا للشفقة في شوارع بلومزبيري العتيقة هذه، بفخامتها المتلاشية ورثاثتها الجليلة. تُذكِّرني هذه الشوارع بامرأة نبيلة ومُسنَّة وأنيقة ومُتزمتة تعيش في ظروف مُزرية ... سحقًا! ماذا كان هذا؟»

كان صوت خافت وحاد ومكتوم قد أتى من خلفنا وتبِعه على الفور صوت تهشُّم زجاج نافذة في الطابق الأرضي أمامنا.

تجمَّد كلانا في مكانه وظَلِلنا نُحدِّق لثانيتَين أو نحو ذلك في الظلمة التي جاء منها الصوت الأول؛ ثم انطلق ثورندايك كالسهم عبر الشارع وتبعتُه أنا على الفور.

في اللحظة التي صدر فيها الصوت كنا قد قطعنا قُرابة أربعين ياردةً في شارع جون؛ أي من المكان الذي يتقاطع فيه شارع هنري معه، وكنا الآن نركض بأقصى سرعة عبر الشارع إلى الزاوية البعيدة من شارع هنري. لكن لَمَّا وصلنا إليها، كان الشارع الصغير فارغًا، وقد توقَّفنا قليلًا لكن لم يكن هناك أي صوتٍ ينمُّ عن خطواتٍ متراجعة يشقُّ صمت الشارع.

قال ثورندايك: «لا شك في أن الطلقة أتت من هنا! هلمَّ بنا»، ثم انطلق يجري مرةً أخرى. وعلى بُعد بضع ياردات في الشارع كان شارع صغير ينعطف يسارًا، فدخل صديقي في هذا الشارع، وهو يُشير لي بأن أُكمل الجري مباشرة، ففعلت، وبعد عدة خطوات وصلتُ إلى طرف الشارع. عند طرف الشارع كان ممرٌّ صغير ضيِّق له رصيف واسع مرصوف ينعطف يسارًا، فكان موازيًا للشارع الصغير الذي دلفه صديقي، ولَمَّا وصلت إلى زاوية الشارع ونظرتُ في الشارع الصغير، رأيتُ رجلًا يركب دراجةً ويسير بسرعة وصمت صوب شارع ليتل جيمس.

صِحْتُ صيحةً عظيمة، قائلًا: «أوقفوا اللص!» وانطلقت في مطاردة حثيثة، ولكن رغم أن قدمَي الرجل كانتا تتحرَّكان على بدَّال الدراجة بتمهُّل، كان يتقدَّم بسرعةٍ مُذهلة، رغم جهودي للحاق به؛ ثم اتضح لي أن دوران قدمَيه ببطءٍ كان في واقع الأمر بسبب أن الترس في الدراجة التي يركبها كبير بصورةٍ غير معهودة. فلمَّا أدركت هذا، وتذكَّرت في اللحظة نفسها الدراجة التي رأيناها عند المحطة، انعطف الرجل الهارب ودلف إلى شارع ليتل جيمس واختفى.

كانت السرعة التي يتقدَّم بها الرجل تجعل الاستمرار في مطاردته عديم الفائدة تمامًا؛ لذا التفتُّ وقفلت راجعًا، وكنت ألهث وأتعرَّق بشدة من الجهد غير المعتاد الذي بذلته. وحين عدت إلى شارع هنري، برز ثورندايك من الشارع الصغير وتوقف لدى رؤيتي.

فسأل بإيجاز بينما أقترب منه: «درَّاج؟»

أجبته: «أجل، يقود دراجةً ترسُها يُقارب التسعين.»

قال ثورندايك: «آه! لا بد أنه تبعنا من المحطة. هل لاحظت إن كان يحمل أي شيء؟»

«كان معه عصَا للمشي في يدِه. لم أرَ شيئًا آخر.»

«عصا مشي من أي نوع؟»

«لم أستطع أن أتبيَّن. كانت عصًا قويَّة — أعتقد أنها عكاز مَلَقًّا، على الأرجح — وكان بها ما يُشبه مقبضًا على شكل قرن. رأيت هذا لما مرَّ بمصباحٍ في الشارع.»

«ما نوع المصباح الذي كان بدراجته؟»

«لم أتبيَّن؛ لكن بينما كان ينعطف عند الزاوية، لاحظتُ أن مصباحه كان خافتًا جدًّا.»

عَلَّقَ رفيقي: «تلطيخ زجاج المصباح بالقليل من الفازلين أو حتى بالزيت سيُقلِّل كثيرًا من وهج المصباح، خاصةً في طريق مغبر. ها! هذا هو مالك النافذة المكسورة. يريد أن يعرف ما حدث.»

كنا قد دلفنا مرةً أخرى إلى شارع جون ورأينا الآن رجلًا يقف على المدخل العريض للمنزل الذي به النافذة المكسورة، وكان ينظر بقلق في كلا الاتجاهَين في الشارع.

سأل الرجل، مشيرًا إلى النافذة المكسورة: «هل رأى أيٌّ منكما أيها السيدان أي شيءٍ ممَّا حدث هنا؟»

فقال ثورندايك: «نعم، تصادف أننا كنَّا نمرُّ من هنا لَمَّا وقع الأمر»؛ ثم أضاف: «في الواقع، أميل لأن أظنَّ أن المقذوف، أيًّا كان هو، كان مصوَّبًا باتجاهنا نحن.»

فقال الرجل: «أوه! من فعلها؟»

فأجاب ثورندايك: «هذا ما لا أعرفه. لكن أيًّا كان، فقد هرب على دراجة ولم نستطع الإمساك به.»

فقال الرجل مرةً أخرى، وهو ينظر إلينا بارتيابٍ متزايد: «أوه! على دراجة، مهلًا! هذه مزحة، صحيح؟ وبماذا فعل ما فعله؟»

فقال ثورندايك: «هذا ما أودُّ معرفته. أرى أن هذا المنزل فارغ.»

«أجل، هو كذلك؛ هو متاح للإيجار، على أي حال. أنا حارس العقار. لكن ما علاقة هذا بما حدث؟»

أجابه ثورندايك: «لا شيء سوى أن المقذوف — سواء كان حجرًا أو رصاصةً أو أيًّا كان — كان مُصوَّبًا نحوي، كما أعتقد، وأرغب في التحقُّق من طبيعته. فهلَّا سمحتَ لي أن أدخل لأبحث عنه؟»

كان من الواضح أن حارس العقار يميل إلى رفض هذا الطلب؛ لأنه أخذ يُقلِّب نظرَه بيني وبين رفيقي بارتياب، لكن في أخر الأمر، استدار الرجل نحو الباب المفتوح ودعانا إلى الدخول بفظاظة.

كان ثمة مصباح بارافين على الأرض في ركنٍ من الصالة، فالتقَطه الرجل بعدما أغلق باب الشارع.

وقال الرجل وهو يلفُّ المفتاح في الباب ويدفعه ليفتحه: «هذه هي الحجرة، يُطلقون عليها المكتبة، لكنها بصريح العبارة قاعة استقبال أمامية.» دلف الرجل إلى الحجرة، رافعًا المصباح فوق رأسه، وحَدَّقَ ببُغض إلى النافذة المكسورة.

مسح ثورندايك الأرض كلها بنظرة سريعة في الاتجاه الذي يمكن أن يكون المقذوف قد سلكه، ثم قال:

«هل ترى أي علامة على الجدار هناك؟»

وبينما كان يتحدث، أشار إلى الجدار المقابل للنافذة، والذي من الواضح أنه ما كان ليُصيبه مقذوف دخل الحجرة بهذه الدرجة من الانحراف؛ وكنت على وشك أن أشير إلى هذه المسألة عندما تذكَّرت لحُسن حظي فضيلة الصمت العظيمة.

اقترب صاحبنا من الجدار، وكان ما يزال يحمل المصباح، وأخذ يُدقِّق في سطح الجدار بانتباهٍ بالِغ؛ وبينما كان مشغولًا بهذا، لاحظت ثورندايك ينحني بسرعة ويلتقِط شيئًا وضعه في جيب معطفه بحرص ومن دون أي تعليق.

وقال الحارس وهو يُمرِّر يدَه على الجدار: «لا أرى أي خدش في أي مكان.»

فاقترح ثورندايك وهو يُشير إلى الجدار الذي كان في مرمى المقذوف حقًّا: «لعلَّه ارتطم بهذا الجدار إذن.» ثم أضاف: «أجل بالطبع، سيكون هذا الجدار؛ فقد أتى المقذوف من شارع هنري.»

اجتاز الحارس الغرفة وسلَّط ضوء المصباح على الجدار الذي أشار إليه رفيقي.

وهتف بارتياحٍ متجهِّم، وهو يُشير إلى نقرة صغيرة أُزيل بسببها ورق الحائط وأصبح الجص مكشوفًا: «آه! ها هي ذي! تبدو كعلامة خلَّفتها رصاصة، لكنك تقول إنك لم تسمع أي صوت عيارٍ ناري.»

فقال ثورندايك: «كلَّا، لم يكن هناك صوت لعيار ناري؛ لا بد أنها أُطلِقَت من مقلاع.»

وضع الحارس المصباح على الأرض وشرع يبحث في الأرض عن المقذوف، وساعدَه كِلانا في هذا؛ ولم أستطع أن أكبح ابتسامةً خافتة لمَّا لاحظت كيف ينظر ثورندايك في الأرض باهتمامٍ بحثًا عن المقذوف الذي كان مُستقرًّا في جيبه.

كنا مُتعمِّقَين في بحثنا عندما سمعنا طرقًا مزدوجًا بلا هوادة على باب الشارع، أعقبه دقات جرس عالية في الطابق السُّفلي.

غمغم الحارس يقول: «هذا بوبي على ما أظن. ها هي ضجة كبيرة على لا شيء يُذكَر.» ثم أمسك بالمصباح وخرج وتركنا في الظلام.

فقال ثورندايك لَمَّا أصبحنا وحدَنا: «لقد التقطتُ الرصاصة.»

فأجبته: «رأيتُك تفعل ذلك.»

فردَّ يقول: «حسن؛ أُحيِّيك على تكتُّمك.» وكان ما افترضه الحارس صحيحًا. فعندما عاد، كان بصحبته فرد شرطة ضخم الجثة، وقد حيَّانا بابتسامةٍ وأخذ ينظر في أرجاء الغرفة الفارغة بنظرات مرحة.

وقال، وهو يُشير إلى النافذة المكسورة: «أولئك الأولاد؛ إنهم يُحبُّون اللهو والدعابات. سمعتُ أنك كنت مارًّا لَمَّا حدث هذا، يا سيدي.»

أجابه ثورندايك: «أجل»؛ ثم قصَّ على فرد الشرطة ما حدث باقتضاب، وقد استمع الأخير إلى ما قال زميلي، ومفكرة في يدِه.

وقال حين انتهى صديقي من سرده: «حسن، إن كان هؤلاء الأولاد المشاغبون سيستخدمون المقاليع، فإنهم سيتسبَّبون في الكثير من المشكلات والفوضى في الحي.»

فقال الحارس: «يتعيَّن عليكم القبض على بعضهم.»

هتف الشرطي مُتعجبًا وبنبرة تنمُّ عن التبرُّم: «نقبض عليهم! أجل! وبعدَها سيطلب منهم القاضي أن يُحسِنوا التصرُّف ويعطيهم خمسة شلنات من صندوق الصدقات ليشتروا نسخًا مزوَّدة بالصور من الكتاب المقدَّس. سُحقًا لهم جميعًا، أولئك السفلة التافهون!»

ثم دسَّ مُفكِّرته بعُنف في جيبه وسار مغاضبًا خارجًا من الحجرة إلى الشارع، ونحن في إثره.

ثم قال وهو يلتفت إلى الحارس: «ستعثر على الرصاصة أو الحجر وأنت تكنس الغرفة، وعندها ينبغي عليك أن تُعطينا إيَّاها. طابت ليلتك، يا سيدي.»

ثم شرع يسير باتجاه شارع هنري، في حين أكملنا أنا وثورندايك مسيرتنا باتجاه الجنوب.

سألت صديقي ونحن نسير في الشارع: «لماذا كنت متكتمًا للغاية بشأن المقذوف؟»

فردَّ صديقي: «جزئيًّا لكي أتفادى الحديث مع الحارس، لكن في الأساس لأنه خطر لي أن من المُرجح أن يمرَّ شرطي بالمنزل حين يرى الإضاءة، وأنه سيدخل ويطرح الأسئلة.»

«وماذا في ذلك؟»

«حينها كان سيتعيَّن عليَّ أن أُسلِّمه المقذوف.»

«ولِمَ لا تفعل؟ هل لهذا المقذوف أهمية خاصة؟»

أجاب ثورندايك ضاحكًا: «له أهمية خاصة عندي في الوقت الراهن؛ لأنني لم أفحصه. عندي نظرية بشأن طبيعته، وأرغب في اختبارها قبل أن أُطلِع الشرطة على الأمر.»

فسألته: «وهل ستُطلعني على الأمر؟»

فأجابني: «حين نصِل إلى البيت، إن لم تكن تشعر بالنعاس.»

ولدى وصولنا إلى مقرِّه، أراد منِّي ثورندايك أن أُضيء أحد أطراف الطاولة وأن أُخليه بينما يذهب إلى الورشة ليُحضر بعض الأدوات. فقلبت غطاء الطاولة، وبعد أن عدَّلت ضوء المصباح الغازي ليُضيء هذا الجزء من الطاولة، انتظرت عودة زميلي بصبر فارغ. وفي غضون بضع دقائق عاد حاملًا فتيلةً صغيرة، ومنشارًا معدنيًّا، وزجاجةً لها فُوَّهة واسعة.

«ما هذا الذي في الزجاجة؟» هكذا سألته إذ رأيت بداخلها شيئًا معدنيًّا.

«هذا هو المقذوف، رأيت أن أنقعه في ماء مُقطَّر؛ لأسباب ستتبيَّن عمَّا قليل.»

ورجَّ الزجاجة برفق لدقيقةٍ أو نحو ذلك، ثم بِلقط تشريح أمسك بالمقذوف وثبَّته فوق سطح الماء ليجف، وبعد ذلك وضعَه على قطعةٍ من ورق التنشيف.

ملت على المقذوف وفحصتُه باهتمامٍ شديد، في حين وقف ثورندايك ينظر إليَّ بالقدْر نفسه من الاهتمام تقريبًا.

وقال، بعد أن أخذ يُراقبني في صمتٍ لبعض الوقت: «والآن، ماذا ترى؟»

فأجبتُه: «أرى مُجسَّمًا أسطوانيًّا نحاسيًّا صغيرًا، طوله حوالي بوصتَين، وسُمكه يتجاوز سمك قلم رصاص عادي. أحد طرفي المجسم مخروطي الشكل، وثمة ثُقب صغير عند رأسه يبدو أنه يحتوي على رأسٍ فولاذي؛ أما الطرف الآخر فمُسطَّح، لكن في وسطه نتوء صغير مربَّع الشكل يمكن أن يتناسَب مع مفتاح ساعة جيب. أُلاحظ أيضًا ثقبًا صغيرًا في جانب المُجسَّم الأسطواني بالقُرب من الطرف المسطَّح. يبدو المجسم كقذيفةٍ مصغَّرة، كما يبدو أجوف.»

قال ثورندايك: «إنه أجوف. لا بد أن تكون قد لاحظتَ هذا حين رفعته من الماء ليجف؛ فقد تسرَّب الماء عبر الثُّقب عند الطرف المُدبَّب.»

«أجل، لاحظت هذا.»

«والآن التقِطْه ورُجَّه.»

ففعلتُ وحينها شعرت بشيءٍ ثقيل يهتزُّ ويُحدِث صوتًا بداخله.

فقلت: «ثمة جسم مُتقلقل بداخله، هذا الجسم يتناسب بقدْر كبير مع حجم المُجسَّم الأسطواني من الداخل، حيث إنه لا يتحرك إلا على القُطر الطويل.»

«تمامًا؛ وصفُك ممتاز. والآن، ما طبيعة هذا المقذوف؟»

«أعتقد أنه مقذوف مصغَّر أو رصاصة متفجِّرة.»

فقال ثورندايك: «خطأ! هذا استنتاج طبيعي جدًّا، لكنه خاطئ.»

فسألته، وفضولي يتعاظم: «إذن ما هو هذا الشيء؟»

فأجابني: «سأريك. إنه شيء أكثر إتقانًا بكثيرٍ من رصاصة مُتفجِّرة — التي هي في الواقع أداة بسيطة — مُصَمَّمٌ بشكلٍ رائعٍ ومصنوعٌ بإتقان. إننا نتعامل مع رجلٍ عبقري وواسع الحيلة جدًّا.»

شعرت برغبة في أن أضحك من تقديره وتحمُّسه لطرائق وأساليب الرجل الذي يريد اغتياله، وحينها بدا أن روح الهزل في الموقف تتبادر إلى ذهنه، إذ قال بابتسامة آسفة:

«لا بد أن تفهم أنني لا أُعبِّر عن استحساني، وإنما فقط أُعبِّر عن إعجابي المِهني. فهذه الفئة من المُجرمين هي التي تخلق الحاجة إلى عملي. إن هذا الرجل وليُّ نعمتي، إن جاز التعبير؛ أو هو ربُّ عملي الأول والنهائي. وذلك لأن بإمكان رجل الشرطة العادي التعامُل بكفاءة مع المُجرمين العاديين!»

وبينما كان يتحدث، كان ثورندايك يثبِّت المُجسَّم الأسطواني الصغير بين منديلَين ورقيَّين في الفتيلة التي كان الآن يُحكِم إغلاقها على المُجسَّم. ثم باستخدام المِنشار المعدني الصغير، شَرَعَ يقطع المقذوف بالطول إلى نصفَين غير مُتساوِيَين قليلًا. استغرقت هذه العملية بعض الوقت، خاصةً أنه كان حريصًا على ألَّا يقطع الجسم المُتقلقل بداخل المُجسَّم، لكن في النهاية فرغ من القطع وأصبح الجزء الداخلي من المُجسَّم الأسطواني مكشوفًا، وحينها حرَّره ثورندايك من الفتيلة وأمسك به أمامي وقد اعتلى وجهَه تعبيرٌ ينمُّ عن الظفر والابتهاج.

وسألني: «والآن، ماذا ترى؟»

أخذتُ المُجسَّم في يدي وتأمَّلته عن كثَب، لكنني في بداية الأمر كنتُ مُتحيرًا أكثر من ذي قبل. رأيتُ الآن أن الجسم المُتقلقل هو عبارة عن أسطوانة من الرصاص طولها حوالي نصف بوصة، وكانت تُناسب تمامًا الحجم الداخلي للمُجسم لكنها حرة الحركة للأمام والخلف. وأما السنُّ الفولاذي الذي لاحظته في الثقب عند رأس المجسم الأسطواني في طرفه المخروطي فرأيت الآن أنه نهاية مُدبَّبة لقضيبٍ فولاذي رفيع يبرُز بالكامل بمقدار

بوصة واحدة داخل تجويف المُجسم الأسطواني، وكان الطرف المخروطي يُمثِّل كتلةً صلبة مصنوعة من الرصاص.

وتساءل ثورندايك لَمَّا رأى أنني ما زلتُ صامتًا: «ما قولك؟»

أجبته: «أخبرْتَني أنها ليست رصاصةً مُتفجِّرة، لولا هذا كنت سأُصبح الآن متأكدًا من ذلك الرأي. كان حَرِيًّا بي أن أقول إن كبسولة القدح كانت محمولةً بهذا المكبس الرصاصي، وأنها ضربت طرف هذا القضيب الفولاذي حين توقَّف طيران الرصاصة فجأة.»

فقال ثورندايك: «جيد جدًّا في الواقع. أنت مُحق حتى الآن في أن هذه الميكانيكية تعود في واقع الأمور لمقذوف مقدوح.»

وأضاف: «لكن انظر إلى هذا. ترى أن هذا القضيب الصغير اتخذ مسارًا له بداخل الرصاصة حين ضربت الحائط. لنُعِده إلى موضعه الأصلي.»

وضع طرف مِبرَد صغير مُسطَّح على طرف القضيب الصغير وضغط عليه بإحكام، وحينها انزلق القضيب عبر الثقب حتى برز بمقدار بوصةٍ من رأس المخروط. ثم أعطاني المقذوف.

وبنظرة واحدة إلى السنِّ المُدبب للقضيب الفولاذي تبيَّن لي الأمر كله، فأطلقتُ صافرةً تنمُّ عن فزعي لأن «القضيب» كان أنبوبًا دقيقًا له نهاية حادة ومُدببة.

فهتفت: «تبًّا لذلك الوغد اللعين! إنها حقنة مُعَدة للاستعمال تحت الجلد.»

«أجل. إنها حقنة بيطرية، لها تجويف كبير جدًّا. الآن صرتَ ترى ما في الأمر كله من دهاء وإبداع. لو كانت أُتيحت له فرصة معقولة، لنجح الرجل في مهمته بالتأكيد.»

فقلت وأنا أضحك ثانيةً من غرابة موقفه تجاه القاتل: «تتحدث بأسفٍ شديد.»

فأجاب: «كلَّا على الإطلاق. أنا أتمتع بشخصية مُستقلة، لكن حتى أكثر الرجال اعتمادًا على نفسه لا يستطيع إجراء «تشريح» على جُثته. إنما أُعبِّر عن تقديري وإعجابي بهذا التصميم الميكانيكي الذي نُفِّذ بكفاءةٍ عالية. لاحِظ كمال الأمر برمَّته، ولاحِظ الطريقة التي جرى بها توقُّع كل ما تنطوي عليه المسألة من أبعادٍ وكيف كان كل شيءٍ محسوبًا. لقد انطلق هذا المقذوف من بندقيةٍ هوائية قوية — اتخذت شكل عصا المشي — مُجهزة بمضخة دافعة ومفتاح. وكانت ماسورة تلك البندقية محزوزةً حلزونيًّا.»

سألته: «كيف تعرف هذا؟»

«أولًا، سيكون من غير المُجدي أن تضع حقنةً في المقذوف إلا إن كان المقذوف مجهزًا للانطلاق والإبرة في جهة الأمام؛ لكن ثمة دليل مباشر على أن ماسورة البندقية كانت

محزوزةً حلزونيًّا. أنت تلاحظ هذا النتوء المُربَّع الشكل على السطح الخلفي للمُجسَّم الأسطواني. من الواضح أن هذا النتوء صُنِعَ ليُلائم حلقةَ إحكام أو حشوةً ما؛ على الأرجح أنها شريحة رقيقة من المعدن المرِن تتحرَّك بفعل الضغط القادم من خلفها إلى الماسورة المحزوزة حلزونيًّا ومن ثمَّ تعطي للرصاصة حركةً مغزلية. وحين تنطلِق الرصاصة من الماسورة، تقع الحشوة تاركةً الرصاصة حرة الحركة.»

«فهمت. كنت أتساءل عن الحاجة للنتوء المُربع. إنه، كما تقول، عبقري جدًّا.»

فقال ثورندايك بحماس: «عبقري للغاية، وكذلك الأداة كلها. انظر كيف كانت ستؤدي وظيفتها بمثاليةٍ لولا الصدفة البحتة، والتعقيد الذي أحدثه وجودك. لنفترِض أنني كنتُ وحدي، بحيث كان سيستطيع الاقتراب لمسافةٍ أقصر. في تلك الحالة، ما كان سيخطئ هدفه، وكانت المُهمة ستتم. أظن أنك تعرف كيف كان ينوي إتمام المهمة، صحيح؟»

فأجبته: «أظن ذلك، لكنني أرغب في سماع روايتك عن العملية.»

«حسنًا، سيعرف في البداية أني عائد في قطار متأخر — الأمر الذي يبدو أنه حدث بالفعل — فينتظرني عند المحطة. في تلك الأثناء يملأ المُجسم الأسطواني بمحلولٍ من السمِّ القلوي القوي، ويمكنه فعل هذا بسهولة عن طريق غمس الإبرة في السائل وسحب الهواء من الثقب الصغير عند الطرف الخلفي، حينها يُسحَب المكبس ويتبعه السائل. وتُلاحظ أن الجزء العلوي من المكبس مُغطًّى بالفازلين — الذي وُضِعَ من خلال الثقب ولا شك — الذي من شأنه أن يمنع مرور السمِّ إلى الفم أثناء سحب الهواء، وأن يمنع تسرُّب أيٍّ منه خارج المجسم. ولدى وصولي، يتبعني الرجل على دراجته حتى أمرَّ بحيٍّ مُنعزل بما يكفي لأن يُنفِّذ عمليته. ثم يقترب منِّي أو يَمُر بي وينتظرني عند زاوية شارع، ويُطلق المقذوف من مسافةٍ قريبة جدًّا. لا يُهم الموضع الذي سأُصاب فيه من جسدي؛ فكل أجزاء الجسم حيوية؛ لذا يمكنه التصويب على ظهري. حينها تأتي الرصاصة وهي تدور وسنُّها المُدبب يشقُّ الهواء؛ تمر الإبرة عبر ملابسي وتخترق لحمي، وحين تتوقف الرصاصة فجأة، يتحرك المكبس الثقيل في مساره بفعل الزخم الكبير الذي كان يتحرك به فينفث السمَّ إلى داخل الأنسجة. حينها تنفصل الرصاصة وتقع على الأرض.»

وتابع: «في تلك الأثناء يكون صاحبنا قد ركب دراجته وانطلق مُبتعدًا، وحين أشعر بوخزة الإبرة، ألتفتُ ومن دون أن أبحث عن الرصاصة، أبدأ على الفور في مطاردته. بالطبع لن أستطيع اللحاق برجلٍ يركب مثل هذه الآلة السريعة، لكنني سأتبعه لمسافةٍ ما. حينها يبدأ مفعول السمِّ في الظهور — حيث سيتسارع مفعوله بفعل المجهود الشاق

الذي أبذله — وسرعان ما أخرُّ صريعًا. ولاحقًا، يُعثَر على جثتي. لن توجَد عليها علامات عنف، وعلى الأرجح ستمرُّ وخزة الإبرة دون ملاحظةٍ أثناء تشريح الجثة، وفي هذه الحالة سيكون القرار أن الوفاة سببها قصور في القلب. وحتى لو اكتُشِفَ السمُّ ووخزة الإبرة، لن يوجَد دليل على ذلك. فالرصاصة وقعت على بُعد عدة شوارع، وعلى الأرجح سيكون طفل أو أحد المارة قد التقطها ولم يستطع أن يفهم استخدامها، ولن يستطيع ربطها أبدًا بالرجل الذي عُثِر عليه ميتًا. يجب أن تُقِرَّ أن الخطة برمَّتها مرسومة بعناية وبُعد نظر مُدهشَين.»

أجبته: «صحيح، لا شكَّ في أن الرجل وغدٌ حاذق وشيطان لعين. هل لي أن أسألك إن كنتَ تملك أدنى فكرة عن هُويته؟»

فردَّ ثورندايك: «في الواقع، وكما أشار كارلايل، البارعون ليسوا كثيرين، ومن بين البارِعين الذين أعرفهم، حفنة قليلة منهم فقط هم من يريدون هلاكي، وباستطاعتي أن أخمِّن تخمينًا راجحًا إلى حدٍّ كبير.»

«وماذا تنوي أن تفعل؟»

«في الوقت الراهن، سأحافظ على سكوني بحذاقة، وسأتفادى مخاطر الخروج ليلًا.»

فهتفت: «لكن من المؤكد أنك ستَتَّخِذ بعض التدابير لتحمي نفسك من محاولاتٍ من هذا النوع. أعتقد أنه لم يعُد لديك شكٌّ الآن في أنَّ الحادث الذي وقع في الضباب كان بالفعل محاولةَ اغتيال.»

«في الواقع، لم أشكَّ في ذلك مطلقًا، رغم أنني كنت أوارب الأمر حينها. لكنني لا أملك ما يكفي من الأدلة ضد هذا الرجل في الوقت الحالي، ومن ثمَّ لا يسعني فعل شيء سوى أن أريه أنني أضعه محلَّ شك، وسيكون من الحماقة فعل هذا. في حين أنني لو تواريتُ قليلًا، فسيحدث أمر من اثنَين؛ إما أن الظرف الذي ينبغي التخلُّص منِّي فيه (وهو ظرف مؤقَّت) سيمر، أو أنه سيُظهِر نفسه؛ أي سيضع دليلًا حاسمًا في يدي. حينها سنجد البندقية الهوائية، والدراجة، وربما مخزونًا قليلًا من السم، وأشياء أخرى أرى أنه ينبغي أن تكون موجودة، الأمر الذي سيشكِّل دليلًا قاطعًا، وإن كانت كل هذه الأشياء غير كافية بحدِّ ذاتها. والآن، أظنُّ أن عليَّ حقًّا فضَّ هذا الاجتماع، وإلا لن ننجز شيئًا من الأعمال غدًا.»

الفصل الثاني عشر

فرصة ضائعة

نحن الآن قبل أسبوع من التاريخ الذي كان من المقرَّر أن تبدأ فيه المحاكمة. في غضون ثمانية أيام، من شِبه المؤكد أننا سنكون قد وجدنا حلًّا للغز (إن كان له حل)؛ لأنه كان من المُتوقَّع أن تكون المحاكمة قصيرة، وبعدَها سيكون روبين هورنبي إما مجرمًا مدانًا أو رجلًا طليقًا، مبرأ الساحة من وصمة الجريمة.

وعلى مدار عدة أيام مضت، كان ثورندايك لا يُبارح المختبر، في حين أن غرفته الصغيرة الخاصة والمُكرَّسة عادةً لدراسة البكتيريا والعمل المجهري كانت دائمًا موصدة؛ أدَّت هذه الحال إلى تدهور حال بولتون العصبية إلى أقصى حد، خاصةً — كما أخبرني بسخط — حين التقى السيد أنستي وهو خارج من «قدس الأقداس» يبتسِم ويفرك يدَيه ويُطلق تعبيراتٍ لطيفةً وغير تقليدية تُعبِّر عن ارتياحه وسروره.

كنتُ قد التقيتُ أنستي في عدة مناسبات في المدة المنصرمة، وفي كل مرةٍ كان يروق لي أكثر من التي سبقتها؛ لأن طريقته الغريبة والمرحة كانت تعكس — كما هي الحال غالبًا — طبيعةً جادةً ورصينة؛ ولم أجِده رجلًا واسع العلم وحسب، بل وجدتُه كذلك يتمتَّع بمستوًى عالٍ فيما يخصُّ السلوك والتصرفات. وكان إعجابه بثورندايك غير محدود، ورأيتُ أن كِلا الرجُلين كانا يتعاونان بأقصى درجات الانسجام والارتياح المتبادل.

لكن على الرغم من أنني كنت أتعامل مع السيد أنستي بأقصى مشاعر الصداقة الحميمة، لم أكن مسرورًا على الإطلاق عندما رأيتُه، في الصباح الذي أكتب فيه هذه الكلمات، من نافذة غرفة جلوسنا، قادمًا عبر الساحة المرصوفة بالحصى من ناحية كراون أوفيس رو، وكان من الواضح أنه يتَّجه صوب مَقرِّنا. وذلك في حقيقة الأمر لأنني كنتُ في انتظار وصول جولييت، وكنتُ أفضِّل كثيرًا أن أكون وحدي في تلك اللحظة، حيث كان ثورندايك قد غادر بالفعل. صحيح أنه لم يكن من المُقرَّر وصول سيدتي الجميلة قبل

نصف ساعة، لكن من كان يستطيع أن يتوقَّع المدة التي سيمكثها أنستي، أو ما يمكن أن يحدُث لي من ارتباكٍ وإحراج أثناء محاولاتي للهروب؟ من كل هذا يمكن إدراك أن مرَضي قد صار مُستفحلًا، وأنني لم أكن بارعًا في تكتيكات الكتمان والتمويه التي تُنسَب عادةً إلى النعامة.

أعلنَت طَرْقةٌ حادةٌ على قارعة الباب وصول مصدر همِّي وإزعاجي، وحين فتحتُ الباب، دلف أنستي إلى الداخل بأسلوب رجلٍ لا يضيره إن قضى ساعةً أو أكثر أو أقل قليلًا. صافحني بوقارٍ ساخر، وبعد أن جلس على حافة الطاولة، شرع يلفُّ لنفسه سيجارةً في تأنٍّ يُثير السخط.

وقال: «بوسعي أن أستنتج أن أخانا العلَّامة يُمارس تحرياته وأبحاثه السحرية في الطابق العلوي، أو ربما يكون قد خرج في جولة؟»

فأجبته: «لديه استشارة هذا الصباح. هل كان يتوقَّع قدومك؟»

«كلَّا البتة، وإلا لكان هنا. كلَّا، إنما عرجتُ لأسأل عن قضية صديقك هورنبي. أتعلم أن موعد المحاكمة الأسبوع المقبل؟»

«نعم؛ أخبرَني ثورندايك بذلك. ما رأيك في فُرَص هورنبي؟ هل سيُدان، أم ستُبرَّأ ساحتُه؟»

أجابني أنستي: «سيكون مستكينًا تمامًا، أما نحن ...»، وهنا ضرب على صدره بقوة، وأضاف: «... فسنكفل له أن تُبرَّأ ساحته. سيروق لك الأمر كثيرًا يا صديقي العالِم، وسيُصاب «أعداؤنا» بدهشة بالغة.» ثم راح يفحص السيجارة التي انتهى من لفِّها بعينٍ ناقدة وضحك ضحكةً هادئة.

فعلَّقت أقول: «تبدو واثقًا للغاية.»

أجاب: «صحيح، وإن كان ثورندايك يرى أن الفشل أمرٌ ممكن؛ وهو كذلك بالفعل، إن كانت منصة هيئة المُحلَّفين تعجُّ بحمقى وأغبياء وتُبيِّن أن القاضي غير قادر على فهم أبسط الأدلة الفنية. لكننا نأمل ألَّا يحدُث أيٌّ من هذا، فإن لم يحدُث فسنشعر بالاطمئنان إلى حدٍّ كبير. بالمناسبة، آمُل أنني لا أبوح بأي سرٍّ من أسرار ربِّ عملك؟»

فأجبتُه بابتسامة: «في الواقع، لقد أفشيتَ لي بأكثر ممَّا أفشى ثورندايك في أي وقتٍ مضى.»

فهتف بقلق مصطنع: «حقًّا؟ إذن لا بد أن أجعلك تُقسم على التكتُّم على الأمر. ثورندايك كتوم للغاية ... وهو مُحق في هذا أيضًا. لا يسعني أن أتوقَّف أبدًا عن الانبهار

بتكتيكاته في السماح للعدوِّ بتحصين وتأمين المَدخل الذي لا ينوي أبدًا مهاجمته. لكن أرى أنك مُنزعج من وجودي وترغب في أن أذهب ولو إلى الجحيم؛ لذا، أعطِني سيجارًا وسأذهب إلى حال سبيلي ... وإن كنتُ لن أذهب إلى الجحيم.»

فسألته بخُبث: «هل تقبل بواحدٍ من النوع الذي يُدخِّنه ثورندايك؟»

«ماذا! أقبل بواحدٍ من ذلك التبغ الهندي الكريه؟ إن ورق السجائر البُني موجود ومتاح في كل قرطاسيَّة؛ إنني لأُفضِّل أن أُدخِّن باروكتي!»

قدَّمتُ له علبة السيجار الخاصة بي، فاختار منها سيجارًا بعنايةٍ واستنشق رائحته كثيرًا؛ ثم ودَّعني بطريقةٍ رسمية ونزل الدَّرَجَ مغادرًا وهو يُدندن بلحنٍ من أحدث أوبرا كوميدية.

ولم تكد تمرُّ دقائق خمس على رحيله حتى جاء صوت قرعٍ رقيق على القارعة النحاسية الصغيرة جعل قلبي يثِب فرحًا. فجريتُ إلى الباب وفتحته، فظهرَت جولييت واقفةً أمامي على العتبة.

سألَت: «هل يُمكنني أن أدخل؟ أريد التحدُّث معك قليلًا قبل أن ننطلِق.»

نظرتُ إليها بشيءٍ من القلق؛ لأن الانزعاج كان جليًّا على ملامحها، وكانت يدُها التي مدَّتها لتُصافحني ترتجِف.

قالت جولييت، متجاهلةً الكرسي الذي كنت قد وضعتُه لها: «أنا في غاية الانزعاج يا دكتور جيرفيس. كان السيد لولي يُخبرنا برأيه عن قضية روبين المسكين، وأسلوبه أصابني بجزعٍ شديد.»

غمغمتُ قائلًا: «سحقًا للسيد لولي!» ثم أسرعت في تقديم اعتذاري. «لماذا ذهبتِ إليه يا آنسة جيبسون؟»

«لم أذهب إليه؛ بل هو من جاء إلينا. كان يتناول العشاء معنا ليلة أمس — هو ووالتر — وكان متشائمًا إلى أقصى حد. وبعد العشاء تنحَّى به والتر جانبًا وكنتُ معهما، وسأله عن رأيه بصراحة في القضية. كان شديد التشاؤم. إذ قال: «سيدي العزيز، النصيحة الوحيدة التي سأُقدِّمها لكم هي أن تُعِدوا أنفسكم قدْر استطاعتكم لاستقبال كارثة. من وجهة نظري أنه من شِبه المؤكَّد أن ابن عمومتكم سيُدان.» فقال له والتر: «لكن ماذا بشأن الدفاع؟ لقد فهمت أن ثمة على الأقل حجةً معقولة.» فهزَّ السيد لولي كتفَيه. وردَّ قائلًا: «لديَّ دفع بالغياب عن مسرح الجريمة لن يُجدي في شيء، لكنني لا أملك دليلًا أقدِّمه ردًّا على ما ستُقدِّمه جهة الادعاء، وليس لديَّ أي حُجة؛ ويُمكنني القول بكلِّ ثقةٍ

إنني لا أعتقد أن ثمة حجةً متاحة. لا أرى كيف يمكن أن تكون هناك حُجة، كما أنني لم أسمع شيئًا من الدكتور ثورندايك يجعلني أعتقد أنه توصَّل إلى شيءٍ بخصوص هذه المسألة.» هل هذا صحيح يا دكتور جيرفيس؟ أرجوك! أخبِرني بحقيقة الأمر! لقد أُصِبت ببؤس ورُعب منذ سمعتُ بهذا، وقد كنتُ قبلها مفعمةً بالأمل. أخبِرني، هل هذا صحيح؟ هل سيُزَج بروبين إلى السجن في نهاية المطاف؟»

وفي خِضمِّ اضطرابها، وضعت يدَها على ذراعي ونظرت إلى وجهي وعيناها الرماديَّتان مغرورقتان بالدموع، وكانت مثيرةً للشفقة كثيرًا وفي غاية البراءة، وكانت أيضًا فاتنةً لدرجة أذابت كل تحفُّظ لديَّ كما يذوب الثلج في شمس الصيف.

أجبتُها، وقد أخذتُ يدَيها في يدَيَّ ومتحدثًا بحُكم الضرورة بنبرةٍ خفيضة حتى لا تفضحني عواطفي: «هذا ليس صحيحًا. إن كان هذا صحيحًا، فذلك يعني أنني خدعتكِ عن سابق قصدٍ ونية، وأنني كنتُ خائنًا لصداقتنا؛ ولن يعرِف أحد أبدًا مقدار ما تَعنيه صداقتنا لي.»

فاقتربت منِّي أكثر وكلَّمتني بأسلوبٍ ينمُّ عن أوبةٍ وتملُّق في آنٍ واحد.

«لن تغضب منِّي، صحيح؟ كان من الحماقة أن أستمع إلى السيد لولي بعد كل ما أخبرتني، كما أعلم أن الأمر يبدو قلَّة ثقةٍ فيك. لكنك يتعيَّن على مَن في قوتك ورصانتك أن يكون متسامحًا مع امرأةٍ مثلي لا تملك هذه ولا تلك. إن الأمر فظيع للغاية لدرجة أنني أشعر بتوتُّر شديد؛ لكن أخبرني أنك غير مُستاء منِّي بحق؛ لأن هذا هو أكثر ما سيُؤلِمني.»

أواهٍ يا دليلتي! أودت تلك الضربة الأخيرة بكل شيء، وخلَّفتني فعليًّا بلا حول ولا قوة. ومنذ تلك اللحظة صرتُ تحت رحمتها، وكنتُ على استعدادٍ أن أُفشي كل أسرار رئيسي عن بكرتها دون تردُّد، لكن ذلك السيد النبيل كان قد وضعني في مكانةٍ لا تصِل إليها يد الغواية.

فأجبتُها: «فيما يخصُّ الغضب منكِ، فأنا لستُ ممَّن يحاولون تحقيق المُستحيل كثورندايك، وإن استطعتُ أن أغضب منكِ فسيؤلِمني هذا أكثر مما سيؤلِمكِ. لكن في واقع الأمر، لا يمكن أن أضع عليكِ أي لوم، وأنا قاسٍ وأناني. لا بد بالطبع أن تشعري بالانزعاج والقلق؛ هذا أمر طبيعي للغاية. لذا دَعيني أُخلصكِ الآن من هذه المخاوف وأعيد لك الثقة.

لقد أخبرتكِ أن ثورندايك قال لروبين إنه يرى أملًا كبيرًا في إثبات براءته أمام الجميع. كان ينبغي لهذا وحدَه أن يكون كافيًا.»

غمغمت جولييت بأسًى: «أعلم أنه كان ينبغي له أن يكون كذلك؛ أرجوك، اغفر لي قلة ثقتي.»

تابعتُ قائلًا: «ولكن، يُمكنني اقتباس كلمات من شخصٍ ستضعين لرأيه وزنًا كبيرًا. كان السيد أنستي هنا قبل أقل من نصف ساعة ...»

«أتقصد المستشار القانوني لروبين؟»

«نعم.»

«وماذا قال؟ أخبرني بسرعة ما قاله.»

«باختصار، قال إنه واثق أنه سيكفل لروبين تبرئة ساحته، وأن جهة الادعاء ستجد مفاجأةً كبرى. وقد بدا مسرورًا للغاية بما قال، كما تحدَّث عن ثورندايك بإعجابٍ كبير.»

«هل حقًّا قال إنه ... إنه واثق من تحقيق البراءة؟» كان صوتها متذبذبًا وأنفاسها منقطعة، ومن الواضح أنها كانت متوتِّرة، كما ذكرت. وتمتمت في غير ترابُط: «يا له من أمر باعث على الارتياح، ولُطف كبير جدًّا منك!» ثم مسحت عينَيها وضحكت ضحكةً غريبة، ضحكة صغيرة مهزوزة؛ ثم فجأة، انجرفت في فورةٍ من النحيب.

لم أعِ تمامًا ما فَعَلْت، فقد جذبتها بلُطف نحوي، وأرخيت رأسها على كتفي بينما همست في أُذنها كلمات مواساة؛ لكنني واثق أنني خاطبتها بـ «عزيزتي جولييت»، وربما استخدمتُ تعبيرات أخرى غير مناسبة وأستحقُّ اللوم عليها على حدٍّ سواء. بعد قليل عادت إلى رُشدها، وبعد أن كفكفت دموعها، نظرت إليَّ بخجل، واحمرَّ وجهها احمرارًا شديدًا، لكنها رغم ذلك كانت تبتسِم ابتسامةً في غاية العذوبة.

وقالت: «أنا خجلة من نفسي، أنني أتيتُ إلى هنا وبكيتُ على صدرك وكأنني طفلة كبيرة. آمُل أنَّ عملاءك الآخرين لا يتصرَّفون بمِثل هذه الطريقة.»

وعندئذٍ ضحك كلانا ضحكًا من القلب، واستعدنا توازُن انفعالاتنا وعواطفنا، وشرعنا نتطرَّق إلى موضوع لقائنا.

قالت جولييت وهي تنظُر في ساعتها: «أخشى أنني ضيعتُ وقتًا كثيرًا. سنتأخَّر بسبب هذا، ألَا تظن ذلك؟»

فأجبتها: «آمُل ألَّا نتأخَّر؛ لأن روبين سيبحث عنا؛ لكن يجب أن نُسرع.»

أخذتُ قبعتي وخرَجْنا بعد أن أغلقتُ الباب الخارجي خلفنا، ورُحنا نسير في شارع كينجز بينتش ووك في صمت، لكن بإحساسٍ جديد ومُبهج بالرفقة الحميمية. وكنت بين الحين والحين أُطالع رفيقتي وأُلاحظ أن وجنتها كانت لا تزال محمرَّة من الخجل، وحين

كانت تنظر إليَّ، كنتُ أرى لمعةً في عينها، وعذوبةً باسمةً في التفاتتها تُثيران قلبي حتى صرتُ أرتعش هُيامًا حتى إنني كنتُ في حاجةٍ لأن أخفي ما بي وأكتُمه. وحتى عندما كنت أشعر أنني لا بد أن أُخبرها بكلِّ شيءٍ وأنتهي من الأمر، أن أُخبرها أنني عبدها المُتيَّم، وأنها معبودتي ومليكتي؛ وأنه ما مِن رجلٍ يمكن أن يكون له حقٌّ فيها أمام ما أُكِنُّه لها من حب؛ حتى في ظلِّ هذا، كان لا يزال هناك صوت ضئيل بداخلي يُناديني بالموظف الخائن للثقة، ويُذكِّرني بما عليَّ من واجبٍ وما نِلته من ثقة، وأن هذَين أكثر قدسيةً حتى من الحب.

وفي شارع فليت ناديتُ على عربة أجرة، ولَمَّا جلستُ إلى جانب رفيقتي الجميلة، بدأ الصوت يتعاظم ويُحدِّثني بنبرةٍ أكثر جرأةً وصرامة.

قال الصوت: «كريستوفر جيرفيس، ما هذا الذي تفعله؟ هل أنت رجل تتمتَّع بالشرف، أم أنك مجرد شخصٍ حقير مُثير للشفقة؟ أنت الوكيل الموثوق لهذا الشاب النبيل المسكين المظلوم، ألست تُخطِّط في أعماق قلبك الأسود أن تسرق منه مَن هي عنده أغلى من حُريَّته، بل ومِن شرفه، إن كان به مروءة؟ عارٌ عليك أن تفعل هذا برجلٍ بائس مغلوب على أمره! توقف عن هذه المُغازلة والْتزم بعهودك كالرجال النبلاء، أو على الأقل كالرجال الأمناء!»

في هذه اللحظة مِن استغراقي في التأمُّل، التفتت جولييت إليَّ بابتسامةٍ مُتلطِّفة.

وقالت: «يبدو أن مستشاري القانوني غارق في تأمُّل أمرٍ عميق ووجيه.»

فجمعت شتات نفسي ونظرتُ إليها — نظرت في عينَيها المُتلألئتَين ووجنتَيها المُحمرَّتين اللتَين تُزيِّنهما غمَّازتان رقيقتان، ما أشدَّ فتنتهما وجاذبيتهما!

قلت في نفسي: «بحقكَ، لا بدَّ أن أضع حدًّا لهذا الأمر في الحال، وإلا فأنا من الضَّالين.»

لكن الأمر كلَّفني مجهودًا شاقًّا للغاية لأفعله؛ وأنا واثق أن مَن سيتولَّون الحكم عليَّ سيضعون في اعتبارهم ما مررتُ به من مشقَّةٍ وألَم.

فقلت: «مستشاركِ القانوني أيتها الآنسة جيبسون (ولَمَّا أشرتُ إليها بالآنسة جيبسون، أعتقد أنها نظرت إليَّ بشيءٍ من الاستغراب) كان يُفكِّر في أنه قد تجاوز حدود نفوذه وسلطاته تجاوزًا كبيرًا.»

فسألتني: «من أي ناحية؟»

«من ناحية إخبارك بمعلوماتٍ اطَّلَعَ عليها في سريَّةٍ تامة للغاية، وأيضًا مع وعدٍ ضمني بالتزام السرية من جانبه.»

«لكن المعلومات لم تكن ذات طابعٍ سري، أليس كذلك؟»

«بل سرِّية أكثر ممَّا بدا. فكما تعلمين، يرى ثورندايك أن من المُهم للغاية ألَّا يدع جهة الادعاء تظنُّ أن في جعبته شيئًا، لدرجة أنه تَعَمَّد عدم إطلاع حتى السيد لولي على أي شيء، كما أنه لم يُخبرني مطلقًا عن الأمر بقدْر ما أخبرَني به أنستي هذا الصباح.»

«والآن أنت نادم على أنك أخبرتني؛ تظنُّ أنني أغويتكَ لتخون هذه الثقة. أليس كذلك؟» لم يكن في كلامها أي أثر لحدةٍ أو غضب، وجعلتني نبرتها الوقورة اللائمة لذاتها أشعر بأنني حقير بحق.

فاعترضتُ قائلًا: «عزيزتي الآنسة جيبسون، أنتِ تُسيئين فهمي تمامًا. لستُ نادمًا على الإطلاق على أنني أخبرتكِ. هل كان بإمكاني فعل شيء آخر في ظلِّ تلك الظروف؟ لكنني أريد منكِ أن تفهمي أنني أتحمَّل مسئولية إخبارِكِ بما يُعَد سرًّا مهنيًّا بحق، وأريد منك أن تعتبري ما أخبرتكِ به هكذا.»

أجابت جولييت: «هكذا فهمتُ الأمر؛ ويمكنك أن تثِق في أنني لن أنبس ببنت شفة لأي أحدٍ عن أي شيءٍ منه.»

شكرتُها على وعدِها الذي قَطَعَته، ثم، لكي أفتح معها مواضيع للنقاش، قصصتُ عليها تفصيلًا ما كان من زيارة أنستي، ولم أحذف حتى مسألة السيجار.

سألتني جولييت: «وهل سيجار الدكتور ثورندايك سيئ لهذا الحد؟»

فأجبتُها: «على الإطلاق، إنما لكل رجلٍ ذوقه. فسيجار شيروت الهندي يُمثِّل تسليةً لثورندايك، وحَريٌّ أن أقول إنه يُدخِّنه باعتدالٍ لا بشراهة. في الظروف العادية، يدخِّن ثورندايك الغليون؛ لكن بعد إنجاز عملٍ كبير في يومٍ ما، أو إن كانت ثمَّة مناسبة تدعو للاحتفال والابتهاج، فإنه يدخِّن السيجار الهندي ويدخِّن أفضل ما يمكن الحصول عليه.»

فقالت جولييت: «إذن هناك نقطة ضعف حتى لأعظم الرجال؛ أتمنَّى لو كنت عرفت الدكتور ثورندايك في وقتٍ أبكر؛ لأنه كانت قد أُهديت علبة كبيرة من سيجار شيروت الهندي هذا للسيد هورنبي، وأعتقد أنه كان مُمتازًا بدرجةٍ استثنائية. رغم هذا، جرَّبه السيد هورنبي ولم يُعجبه؛ لذا أعطى العلبة بكامِلها إلى والتر، الذي يُدخِّن كل ما تقع عليه يدُه من السيجار بأنواعه وحالاته.»

هكذا أخذنا نتحدَّث وننتقِل بين الموضوعات، وكل موضوع نتطرَّق إليه يكون تقليديًّا أكثر من الذي سبقه. وقد بالغتُ في أداء واجبي في هذا الشأن بفعل ما كنتُ أشعر به من عصبية واضطراب، وبعد أن كسرتُ ثلج التوتر فيما بيننا، رحتُ أهشِّمه إلى شظايا لا يمكن للعقل إدراكها. وفي محاولاتي لأن أكون فقط غير عاطفي وأن أتجنَّب الحميمية

المُفرطة في سلوكي، صرتُ على النقيض فأصبحتُ قاسيًا وجامدًا تقريبًا؛ ومن المُحتمل أن معاناتي الناتجة عن قمع مشاعري زادت من قسوتي وجمودي.

في تلك الأثناء، كان ثمة تغييرٍ مُماثل يحدُث لرفيقتي. في البداية بدت من مسلكها مرتابةً ومُتحيرة؛ ثم صارت أكثر تحفظًا وتهذيبًا وأقل رغبةً في الحديث. ربما بدأ ضميرها يؤنِّبها، أو ربما كان برودي هو ما أشعرها بأن مسلكها لم يكن من النوع الذي سيُعجِب روبين. لكن أيًّا كان الأمر، استمررنا في التباعُد شعوريًّا أكثر فأكثر؛ وفي غضون نصف الساعة تلك عدنا على خُطى طريق صداقتنا المُتنامية الذي كنا قد قطعناه، حتى إننا حين نزلنا من عربة الأجرة عند بوابة السجن، بدَونا غريبَين عن بعضنا أكثر من أول يوم التقَينا فيه. كانت هذه نهايةً بائسة لرفقتنا السارة والسعيدة، لكنَّ أي نهايةٍ أخرى يتوقَّعها المرء في هذا العالم المُتعارِض الغايات، والمليء بالأشياء التي كان مِن المُمكن أن تحدث؟ ومن شدَّة ما كان بي من بؤس، كان يمكن أن أبكي على صدر الحارس البدين الذي فتح لنا الباب الصغير، مثلما بكت جولييت على صدري؛ وقد شعرتُ بما يُشبه الارتياح حين انتهت زيارتنا القصيرة، ووجدتُ أننا لن نعود معًا كعادتنا إلى كينجز كروس؛ لأن جولييت ستعود بالحافلة لتتسوَّق في شارع أكسفورد وستتركني لأسير إلى البيت وحيدًا.

رافقتُها إلى الحافلة واطمأننتُ عليها، ووقفتُ على الرصيف أنظر بحزن إلى المركبة المُتثاقلة وهي تغيب. وفي الأخير، بعد أن أطلقتُ زفرةً من شدة اليأس، وجَّهت وجهي صوب المنزل، ورحت أسير وكأنني في حلم، عائدًا أدراجي في الطريق الذي كنتُ قد قطعتُه كثيرًا في الآونة الأخيرة بينما كانت تُخالجني مشاعر مختلفة.

الفصل الثالث عشر

اغتيال عن طريق البريد

ربما كانت الأيام القليلة التي تلت ذلك هي أتعس الأيام التي شهدتُها في حياتي حتى ذلك الحين. فقد كانت حياتي، منذ غادرتُ المستشفى، سلسلةً من خيبات الأمل والكثير من الحرمان. وقد اجتمعت الطموحات والرغبات التي لم تتحقَّق مع النفور من الأعمال اليومية الشاقَّة التي كانت من نصيبي لتزيد مرارة فقري وتجعلني أنظر إلى المُستقبل غير الواعد بكآبةٍ وارتياب. لكن لا يمكن مقارنة أي حزنٍ شعرت به حتى الآن مع الأسى الذي كنتُ أشعر به حين أتأمَّل الدمار الذي لا يمكن إصلاحه والذي لحق بما عرفتُ أنه الشغف الأكبر في حياتي. فرجل مِثلي، قليل الأصدقاء عميق المودة، يمكن لاضطرابٍ عاطفي كبير أن يستنفد إمكانياته الطبيعية؛ فلا يبقى لدَيه إلا أصداء واهنة وغير فعَّالة لمشاعره السابقة. إن صرحًا للحُب يُبنى على أنقاض عاطفةٍ عظيمة لا يمكن أن يُقارَن أبدًا بالصرح الأصلي الذي كان ينتصِب قبله.

كنتُ قد اختلقتُ ذريعةً للكتابة لجولييت وتلقيتُ ردًّا مباشرًا وودودًا للغاية، ومن خلال ردِّها علمتُ أنها لم تضع عليَّ لائمة الثوران المؤقت لمشاعرنا — كما كانت بعض النساء ستفعل. ومع ذلك كان هناك اختلاف طفيف عن أسلوبها السابق في الكتابة، الأمر الذي أكَّد على أن انفصالنا كان حاسمًا ونهائيًّا.

وأظنُّ أن ثورندايك أدرك أن شيئًا ما قد انتهى بإخفاق، رغم أنني كنتُ أبذل جهدًا كبيرًا في الحفاظ على مظهرٍ بشوش وكنت أُبقي نفسي منشغلًا، وعلى الأرجح أنه خمَّن بحكمةٍ وحصافة طبيعة المسألة؛ لكنه لم يقُل شيئًا، ولم أُقَدِّر أنه لاحظ تغيرًا في سلوكي إلا من حقيقة أن لُطفه الهادئ والمعتاد كان ممزوجًا بنبرةٍ طفيفة من التعاطُف والمودة.

وبعد عدة أيامٍ من آخر لقاءٍ لي بجولييت، وقع أمر خفَّف من التوتر وساعدَني على إلهاء نفسي، وإن كان بطريقةٍ غير مقبولة إلى حدٍّ بعيد.

كان ذلك وقت الساعة الهادئة والبهيجة بعد العشاء التي اعتدنا أنا وثورندايك أن نقضيها جالسَين في كرسِيَّينا الوثيرَين، نُدخِّن الغليون ونتناقش في بعض المواضيع الكثيرة التي بيننا فيها اهتمام مشترك. وكان رجل البريد قد أفرغ في صندوق الرسائل الكبير والواسع كومةً من الخطابات والدوريات، وحيث جلستُ استعرِض سريعًا الخطاب الوحيد الذي كان من نصيبي، كنت أنظر من وقتٍ إلى آخر إلى ثورندايك ولاحظت، كما فعلت كثيرًا من قبل، بشيءٍ من الاندهاش، عادةً لدَيه مثيرةً للفضول، تتمثَّل في أنه يُقلِّب كل خطابٍ وطردٍ في يده فينظر فيه عن كثب ويُدقِّق فيه قبل أن يفتحه.

تجرَّأتُ الآن على أن أقول: «أُلاحظ يا ثورندايك أنك دائمًا ما تفحص الخطابات من الخارج قبل أن تنظر في داخلها. رأيتُ آخرين يفعلون مثلك، وأرى دائمًا أن هذا الإجراء سخيف سخافةً لا مَثيل لها. إذ لماذا أتكهَّن بشأن خطابٍ غير مفتوح في حين أن بإمكاني أن أُلقي نظرةً على محتوياته وأعرف كل ما أريد معرفته؟»

فأجابني ثورندايك: «أنت مُحق تمامًا، إذا كانت غاية المعاينة هي اكتشاف هُوية مُرسِل الخطاب. لكن هذه ليست غايتي. في حالتي، كنتُ أنا من طوَّرت هذه العادة عمدًا — وليس فيما يتعلق بالخطابات وحسب، بل على كل شيءٍ يقع في يدي — عادة ألَّا يمر عليَّ شيء من دون قدْر معيَّن من الانتباه الواعي. ففي واقع الأمر، الرجل القوي الملاحظة هو الرجل الواعي والمُنتبه، وما يُطلَق عليه قوة الملاحظة هو ببساطة القدرة على الانتباه باستمرار. وفي الحقيقة وجدتُ من خلال الممارسة العملية أن هذه العادة مُفيدة حتى فيما يتعلَّق بالخطابات؛ فقد رأيتُ بعض الإشارات أكثر من مرةٍ على الجانب الخارجي ووجدتُها قيِّمةً ومفيدة حين طبَّقتُها على محتويات الخطاب. إليك على سبيل المثال خطابًا فُتِح بعد لصقه؛ على الأرجح بمساعدة البخار. فظرف الخطاب ملطَّخ ومحكوك، وتفوح منه رائحة تبْغ فاسد طفيفة، ومن الجليِّ أنه حُمِلَ في جيبٍ إلى جانب غليونٍ يُستخدَم كثيرًا. فلماذا فُتِحَ هذا الخطاب؟ عند قراءتي له تبيَّن لي أنه كان ينبغي أن يصِلني قبل يومَين، وأن التاريخ عليه قد عُدِّل بمهارة، من الثالث عشر إلى الخامس عشر. واستنتاجي من هذا أن مُرسِل هذا الخطاب لديه كاتب غير جدير بالثقة إلى حدٍّ كبير.»

قلت معترضًا: «ولكن ربما يكون المُرسِل قد حمله في جيبه.»

فأجاب ثورندايك: «هذا مُستبعَد. فلم يكن سيُكلِّف نفسه عناء أن يفتح خطابه بالبخار ثم يُلصقه ثانية؛ كان سيقطع الظرف ويرسِل الخطاب في ظرفٍ جديد. وهذا ما لا يستطيع الكاتب فعله؛ لأن الخطاب كان خصوصيًّا ومكتوبًا بخطِّ يد رب العمل. ومن

المؤكد أن رب العمل كان سيُذيِّله بحاشيةٍ أو ملاحظة؛ وعلاوةً على ذلك، هو لا يُدخِّن. غير أن كل هذا واضح جدًّا؛ لكن إليك شيئًا أكثر مكرًا كنت قد نحَّيته جانبًا من أجل مزيد من المعاينة والتدقيق. ماذا تستنتج منه؟»

أعطاني طردًا صغيرًا رُبِطَت فيه بسلسلةٍ بطاقةُ عنوان طُبِعَت على آلة كاتبة، وكان الجانب الخلفي منها يحمِل حروفًا مطبوعة نصُّها: «جيمس بارتليت وأولاده، صانعو سيجار، لندن وهافانا.»

قلت، بعد أن قلَّبت الطرد الصغير في يدي ودقَّقت في كل جزءٍ منه: «يؤسفني أن أُخيِّب ظنك بأن أقول إن هذا مصنوع بإتقان بالغ. فالشيء الوحيد الذي أُلاحظه هو أن موظَّف الآلة الكاتبة لم يُتقن كتابة العنوان بصورة كبيرة. خلافًا لذلك، يبدو لي هذا الطرد عاديًّا للغاية.»

فقال ثورندايك وهو يأخذ الطرد منِّي: «حسنًا، لقد لاحظتَ نقطةً مهمة، على أي حال. لكن دعنا نُعاين الطرد بطريقةٍ منهجية وندوِّن ما نرى. في المقام الأول، ستُلاحظ أن بطاقة العنوان عادية كالتي يمكن أن تشتريها من أي قرطاسية، وبها سلسلة مُتصلة بها. والآن، عادةً ما يستخدِم الصانعون طرازًا مختلفًا وأكثر متانة، يُربَط إلى الطرد بالسلسلة. لكن هذا أمر صغير. ما يلفت النظر أكثر هو العنوان المطبوع على البطاقة. العنوان مكتوب على الآلة الكاتبة، وكما قلت، مكتوب بطريقةٍ سيئة جدًّا. فهل تعرف أي شيءٍ عن الآلات الكاتبة؟»

«أقل القليل.»

«إذن لم تتعرَّف إلى الآلة؟ لقد كُتِبَ على هذه البطاقة بآلة بليكنسدرفير؛ إنها آلة ممتازة، لكنها ليست النوع الذي يُنتقى غالبًا من أجل إنجاز العملِ الشاقِّ في مكتب أحد المُصَنِّعين؛ لكن سندع هذا يمرُّ مرور الكرام. النقطة المهمة هي الآتي: شركة بليكنسدرفير تصنع عدة أشكال من الآلة، أصغرها وأخفُّها وزنًا هي آلة الأدباء، وهي مُصمَّمة خصوصًا ليستخدمها الصحفيون والأدباء. والآن كُتب على هذه البطاقة باستخدام النموذج الأدبي من آلة بليكنسدرفير، أو على الأقل، باستخدام عجلة الطباعة الأدبية؛ وهذه حالة جديرة بالملاحظة جدًّا.»

سألته: «كيف عرفت هذا؟»

«من علامة النجمة المطبوعة هذه، التي طُبِعَت بطريق الخطأ، حيث ضغط الموظف العديم الخبرة على رافعة هذا الحرف عوضًا عن رافعة كتابة الحروف الكبيرة. وعجلة

الطباعة الأدبية هي الوحيدة التي بها علامة نجمة، وقد لاحظتُ هذا حين كنت أفكِّر في شراء واحدة. إذن نحن هنا أمام حقيقةٍ ساطعة جدًّا؛ لأنه حتى لو اختار المُصَنِّع أن يستخدم آلة بليكنسدرفير في مصنعِه، فلا يمكن تصوُّر أن يختار الشكل الأدبي من هذه الآلة ويفضِّله على الآلة «التجارية» المناسبة أكثر.»

قلت موافقًا: «أجل، هذا أمر غريب جدًا بحق.»

أردف ثورندايك: «والآن، لنحقِّق في الكتابة نفسها. لقد أنجزها شخصٌ مبتدئ للغاية. لقد أخفق في وضع مسافة في موضعَين، وكتب خطأً خمسة حروف، وكتب علامات عوضًا عن حروف كبيرة في حالتين.»

«أجل؛ لقد جعل الكتابة فوضوية. أتعجَّب أنه لم يتخلص من هذه البطاقة ويكتب غيرها.»

فقال ثورندايك: «بالضبط. وإن أردْنا أن نعرف سبب عدم فعله ذلك، ليس علينا سوى أن ننظر في الجانب الخلفي من البطاقة. تلاحظ أن اسم الشركة مطبوع على شريحة منفصلة من الورق لُصِقت على البطاقة، بدلًا من أن يكون مطبوعًا على البطاقة نفسها بالطريقة المعتادة؛ وهذا إجراء سخيف وأخرق وينمُّ عن عدم إتقان، كما أنه ينطوي على تضييع قدْر من الوقت. لكن إذا نظرنا عن كثب أكثر إلى شريحة الورق المطبوعة، نرى شيئًا جديرًا بالملاحظة؛ تلك الشريحة الورقية قُطِعَت لتلائم البطاقة، كما أنها قُطِعَت باستخدام مقص. فالحواف ليست مستقيمةً إلى حدٍّ كبير، وفي أحد المواضع، يمكن بسهولة ووضوح رؤية «التداخُل» الذي يميِّز استخدام المقص في القطع.»

أعطاني ثورندايك الطرد ومعه عدسة للقراءة، فاستطعتُ من خلالها أن أتبيَّن النِّقاط التي ذكرها.

ثم أردف: «والآن لستُ في حاجة لأن أقول إن الكاتب شذَّب هذه الشرائح الورقية بطبيعة الحال لتكون بالحجم المناسب لآلته، الأمر الذي سيُخلِّف في الشريحة الورقية حدًّا مسنونًا؛ كما أنني لستُ في حاجة لأن أقول إنه لا يوجَد رجل أعمال عاقل يمكن أن يستخدِم أداةً كهذه. لقد قُصَّت شريحة الورق بالمِقص لتلائم البطاقة، كما لُصِقَت على سطح البطاقة التي قُصَّت لتلائمها، في حين كان من الممكن توفير كل هذا الوقت والعناء — اللذَين يُترجَمان في الواقع إلى مالٍ — عن طريق طباعة الاسم على البطاقة نفسها.»

«أجل، هذه هي الحال حقًّا؛ لكنني ما زلتُ لا أرى سببًا يمنع هذا الرجل من التخلُّص من هذه البطاقة وطباعة أخرى.»

فقال ثورندايك: «انظر إلى الشريحة مرةً أخرى. لقد تغيَّر لونها بقدْرٍ طفيف لكن واضح، ويبدو لي أنها نُقِعَت في الماء. لنفترض صحَّة هذا في الوقت الراهن. قد يبدو من هذا أنها أُزيلت عن طردٍ آخر، الأمر الذي قد يُشير مرةً أخرى إلى أن هذا الشخص الذي يستخدِمها لم يكن لدَيه إلا شريحة ورقية واحدة، فنقَعَها في الماء ليُزيلها عن الطرد الأصلي، وجفَّفها، وقصَّها وألصقها على البطاقة التي أمامنا. وإن كان قد لصقها على الطرد قبل طباعة العنوان عليها — الأمر الذي من المُرجَّح أن يكون قد فعلَه — فربما كان غير راغبٍ في المجازفة بتدميرها عن طريق نقعِها مرةً ثانية.»

«هل تظن إذن أن هذا الطرد قد جرى العبث به؟»

فرد ثورندايك: «لسنا في حاجةٍ لأن نتسرَّع في الاستنتاج. إنما ضربت لك هذا المثال لأُبيِّن لك أن المعاينة الدقيقة لطردٍ أو خطاب من الخارج قد تقودنا لأن نُولي اهتمامًا إضافيًّا إلى المحتويات. والآن لنفتحه ونرى ما هي هذه المحتويات.»

بسكينٍ حادٍّ فصل ثورندايك الغلاف الخارجي، فكشف عن علبةٍ من الورق المقوَّى السميك مغلَّفة في عددٍ من أغلفة الإعلانات الورقية. وحين رُفِع غطاء العلبة، رأينا أنها تحتوي على سيجار واحد فقط — سيجار كبير من نوع شيروت — معبَّأ في قطن ناعم.

فهتفت: «سيجار هندي، يا للمفاجأة! إنه النوع الذي تُفضِّله بصفةٍ خاصة يا ثورندايك.»

«أجل؛ وثمة مفارقة أخرى كما ترى، كنا سنغفل عنها لو لم نكن يقظَين.»

فقلت: «في واقع الأمر أنا لا أرى شيئًا. ستحسبني أحمق للغاية، لكنني لا أرى أي غرابةٍ في أن يرسِل صانع سيجار أحد منتجاته عينةً.»

أجاب ثورندايك: «أظن أنك قرأت البطاقة، أليس كذلك؟ لكن دعنا ننظُر إلى أحد هذه المنشورات ونرى ما تقوله. آه! ها نحن ذا: «السادة بارتليت وأبناؤه الذين يملكون مزارع كبيرة في جزيرة كوبا، يصنعون سيجارهم حصريًّا من أوراقٍ مُنتقاة زرعوها بأنفسهم.» من المُستبعَد أن يصنعوا سيجارًا هنديًّا من نوع شيروت من أوراق التبغ المزروعة في الهند الغربية، إذن لدَينا هنا مفارقة بارزة تتمثَّل في سيجار منشؤه الهند الشرقية أرسله لنا زارع تبغ من الهند الغربية.»

«وماذا تستنتج من ذلك؟»

«أولًا أن هذا السيجار — الذي هو بالمناسبة عيِّنة نادرة للغاية، والذي ما كنت لأُدخِّنه لقاء عشرة آلاف جنيه — يقتضي معاينةً في غاية الدقة.» ثم أخرج من جيبه عدسةً

مزدوجة قوية، وبمساعدتها فحص كل جزءٍ من أجزاء سطح السيجار، وأخيرًا فحص كلا طرفَيه.

قال، وهو يُعطيني السيجار والعدسة: «انظر إلى هذا الطرف الصغير، وأخبِرني إن لاحظتَ شيئًا.»

ركَّزتُ العدسة على الطرف المقطوع قطعًا مسطحًا بعد أن لُفَّت أوراقه بشكلٍ وثيق، ورحت أنظر في كل جزءٍ فيه بعناية.

وقلت: «يبدو لي أن الورق مفتوح فتحةً ضئيلة في المنتصف، وكأن سلكًا رقيقًا قد دُسَّ فيه.»

أجاب ثورندايك: «هذا ما بدا لي، وحيث إننا مُتفقان إلى هذا الحد، سنأخذ الخطوة التالية في التحقيق.»

وضع السيجار على الطاولة، وباستخدام مُدية جيب حامية ذات نصلٍ رفيع، فصل بدقة الأوراق بعضها عن بعض بالطول وشقَّها إلى نصفَين.

هتف ثورندايك، لمَّا انفصل الشقَّان أحدهما عن الآخر: «ها هو الدليل!» ثم وقفنا لحظاتٍ قليلةً نُطالع السيجار في صمت. وذلك لأننا وجدْنا رقعةً دائريةً صغيرة على مسافة نصف بوصة من الطرف الصغير، وهذه الرقعة تتكوَّن من مادة بيضاء كالطباشير، ومن خلال طريقة انتشارها المتساوية بين ورق التبغ، كان من الواضح أنها قد استُخرِجَت من محلول.

قال ثورندايك أخيرًا، وهو يأخذ أحد النصفَين ويفحص البقعة البيضاء بعدسته: «أظن أن هذا أيضًا من صنع صديقنا الحاذق. إنه رجل مُترَوٍّ يا جيرفيس، ومبتكر أيضًا. أتمنَّى لو كان بإمكانه استخدام مواهبه في اتجاهٍ آخر. سيتعيَّن عليَّ أن أواجهه إن أصبح سببًا للإزعاج.»

فهتفتُ بحرارة: «هذا هو واجبك نحو المجتمع، يا ثورندايك، أن تجعل الشرطة تُلقي القبض على الفور على هذا النذل الوحشي. رجل كهذا يُمثِّل خطرًا دائمًا على المجتمع. أتعرِف حقًّا من أرسل هذا الشيء؟»

«يُمكنني أن أخمِّن تخمينًا بارعًا إلى حدٍّ كبير، غير أن هذا أمر مختلف نوعًا ما. لكن كما ترى، لم يكن الرجل ذكيًّا للغاية هذه المرة؛ لأنه ترك آثارًا يمكن تحديد هُويته من خلالها.»

«حقًّا! ما الآثار التي خلَّفها؟»

«آه! لدَينا الآن مشكلة صغيرة علينا النظر فيها.» ثم استقرَّ في جلسته في كرسيه الوثير وشرع يملأ غليونه بأسلوب رجلٍ على وشك أن يناقش مسألةً ليست ذات أهمية خاصة.

«لننظُر إلى المعلومات التي قدَّمها لنا هذا الرجل العبقري عن نفسه. في المقام الأول، من الجليِّ أن له مصلحةً في موتي العاجل. والآن، لماذا لدَيه هذه الرغبة المُلحَّة في موتي؟ هل هي مسألة ممتلكات؟ هذا مُستبعَد تمامًا؛ لأنني لست رجلًا ثريًّا، كما أن بنود وصيَّتي لا يعلمها أحد غيري. هل يمكن إذن أن تكون مسألة عداوة شخصية أو ثأر؟ لا أظنُّ هذا. حسب اعتقادي، ليس لديَّ عداوات شخصية من أي نوع. لا يبقى إذن إلا مهنتي باعتباري مُحققًا وباحثًا في المجالات القانونية والجنائية. إذن رغبته في موتي ترتبط حتمًا بأنشطتي المِهنية. والآن، أنا أُجري في الوقت الراهن استخراجًا لجثةٍ قد تؤدِّي إلى اتهامٍ بالقتل؛ لكن لو متُّ الليلة، سيجري التحقيق بالكفاءة نفسها على يد البروفيسور سبايسر أو أي اختصاصي سموم آخر. ولن تؤثِّر وفاتي على فُرَص المُتهم. وكذلك الحال في قضية أخرى أو قضيتَين أتولَّاهما؛ يمكن لشخصٍ آخر أن يعمل عليهما بالكفاءة نفسها. الاستنتاج إذن أن صديقنا ليس له صِلة بأيٍّ من هذه القضايا، بل هو يعتقد أنني أملك معلوماتٍ حصرية عنه؛ يعتقد أنني الشخص الوحيد في العالم الذي يشكُّ فيه ويمكنه إدانته. لنفترِض وجود هذا الرجل؛ رجل مذنب وأنا الوحيد الذي يملك دليلًا على ما ارتكب من جرم. والآن، وحيث إن هذا الشخص لا يعلم أنني أخبرتُ شخصًا آخر بما أعرفه، فمن المعقول أن يفترض أنه بالتخلُّص مني سيكون قد أمَّن نفسه.

هذه هي النقطة الأولى. من المُرجَّح أن من أرسل هذه الهدية هو شخص أملك معلومات حصريةً عنه.

لكن انظر الآن إلى النتيجة المنطقية المُثيرة للاهتمام التي تترتَّب على هذا. أنا وحدي من يشك في هذا الشخص؛ من ثمَّ لم أُطلِع أحدًا على شكوكي، وإلا فسيشكُّ فيه آخرون أيضًا. إذن لماذا يشكُّ في أني أشكُّ فيه، مع أنني لم أصرِّح لأحدٍ بالأمر؟ من الواضح أنه أيضًا يملك معلوماتٍ حصرية. بعبارة أخرى، شكوكي صحيحة؛ لأنها لو كانت خاطئة، لما أدرك الرجل وجودها.

النقطة التالية هي اختيار هذا النوع النادر من السيجار. لماذا يُرسِل سيجارًا هنديًّا عوضًا عن إرسال سيجار هافانا عادي كالذي تُصنِّعه شركة بارتليت؟ يبدو وكأنه على عِلم بتفضيلاتي، وبمراعاته لذوقي الشخصي، يكون قد أغلق الباب أمام أي فرصةٍ لأن

أُعطي السيجار لشخصٍ آخر. من ثمَّ يُمكننا استنتاج أن صديقنا هذا لدَيه بعض المعرفة بعاداتي.

النقطة الثالثة هي، ما الوضع الاجتماعي لهذا الغريب اللطيف، الذي سنُشير إليه باسم فلان؟ إن شركة بارتليت لا ترسِل دعاياتها وعيِّناتها إلى توماس أو ريتشارد أو هنري. بل تُرسِلها في الأغلب إلى أرباب المِهن وإلى الأثرياء وذوي المكانة. صحيحٌ أن العلبة الأصلية قد استولى عليها موظفٌ ما أو ساعي مكتبٍ أو خادم منزل؛ لكن الاحتمالات تقول إن فلانًا نفسه هو من تلقَّى العلبة، وهذا تؤكِّده حقيقة أنه يستطيع الحصول على سمٍّ قلوي قوي، كهذا السمِّ الذي بين أيدينا.»

فقلت مقترحًا: «في هذه الحال، سيكون الرجل أحد العامِلين في المجال الطبي، أو ربما كان صيدلانيًّا.»

فأجاب ثورندايك: «ليس بالضرورة. فالقوانين المتعلِّقة بالسموم قد صيغت وتُنَفَّذ بطريقةٍ سيئة للغاية، لدرجة أن أي شخصٍ ميسور ويمتلك المعرفة الضرورية بإمكانه الحصول على أي سمٍّ يريده تقريبًا. لكن الوضع الاجتماعي عامل مُهم، من أجل ذلك، يُمكننا أن نخلص إلى أن فلانًا ينتمي إلى الطبقة المتوسطة على الأقل.

وأما النقطة الرابعة فهي ذات صِلة بالصفات الشخصية لفلان هذا. يتَّضح الآن من حادثة السيجار هذه وحدَها أنه رجل ذو ذكاء استثنائي، وذو حصيلةٍ كبيرة من المعلومات العامة، وأنه عبقري وواسع الحيلة. حيلة السيجار هذه ليست بارعةً ومُبتكرة فحسب، بل جرى تهيئتها طبقًا للظروف الخاصة تهيئةً مدروسة بعناية مُدهشة. لذا على ما يبدو وقع اختياره على سيجار شيروت لسببَين مُميزَين: الأول، أنه النوع الأرجح أن يُدخِّنه الشخص المنشود، والثاني، أن السيجار لا يتطلَّب قطع طرفه من أجل الشروع في تدخينه؛ الأمر الذي كان يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف السم. أيضًا تُبيِّن الخطة التي اتبعها فلان أنه يملك معرفةً مُعينة بالكيمياء؛ إذ لم يكن الغرَض من السمِّ أن يذوب في رطوبة الفم. كانت الفكرة ولا شك أن البخار الناتج من احتراق أوراق التبغ عند الطرف البعيد سيتكثَّف في الأجزاء الأبرد من السيجار فتُذيب السم، ثم ينجذب المحلول بعد ذلك إلى الفم. إذن طبيعة السمِّ وبعض أوجه التشابُه في الإجراءات تربط بين فلان والدراج الذي استخدم الرصاصة المُبتكرة. فالسُّمُّ الذي بين أيدينا مادة صلبة بيضاء غير بلورية؛ والسمُّ الذي كان في الرصاصة كان محلولًا من مادة صلبة بيضاء غير بلورية، والذي أظهر تحليله أنه الأكثر سميةً بين كل السموم القلوية.

كانت الرصاصة في واقع الحال حقنةً تُحقَن تحت الجلد؛ والسم الذي في هذا السيجار وُضِع باستخدام حقنة تُستَخدَم في الحقن تحت الجلد، على هيئة محلول كحولي أو أثيري. إذن سيكون لدينا مبرِّر إذا افترضنا أن الرصاصة والسيجار مصدرهما الشخص نفسه؛ وإن كانت هذه هي الحال، يُمكننا القول إن فلانًا شخص يتمتع بمعرفةٍ واسعة وبراعة كبيرة ومهارة ميكانيكية دقيقة، كما تبيَّن لنا من صناعة الرصاصة.

هذه هي الحقائق الأساسية التي أمامنا — والتي يمكن أن نضيف لها تخميننا أنه اشترى حديثًا آلة بليكنسدرفير مُستعملةً من النوع الذي يستخدِمه الأدباء، أو أنها على الأقل آلة بليكنسدرفير مزوَّدة بعجلة طباعة من النوع الأدبي.»

فقلت بشيء من الاندهاش: «لا أدري كيف توصَّلت إلى ذلك.»

فأجابني: «هذا محض تخمين، وإن كان راجحًا. في المقام الأول، من الواضح أنه غير معتاد على الكتابة على الآلة الكاتبة، كما تُبيِّن الأخطاء العديدة في كتابته؛ وبذا لم يمتلك هذه الآلة لمدة طويلة. والكتابة نفسها غريبة على آلة بليكنسدرفير، وفي أحد الأخطاء، طُبِعَت علامة النجمة مكان أحد الحروف. لكن عجلة الطباعة الأدبية هي الآلة الوحيدة التي بها علامة النجمة هذه. أما فيما يخصُّ عمر الآلة، فثمة إشارات واضحة على تلفِها وتآكُلها؛ لأن بعض الحروف فقدت وضوحها، وأكثر ما يتبيَّن فيه هذا هو الحروف الأكثر استخدامًا؛ ستلاحظ أن الحرف e، على سبيل المثال، متآكِل كثيرًا؛ وهذا الحرف يتكرَّر أكثر من أي حرفٍ في حروف الهجاء. ثمَّ إن كانت الآلة قد اشتُرِيَت حديثًا، فإنها اشتُرِيَت مُستعملة.»

اعترضتُ قائلًا: «لكن ربما لم تكن الآلة ملكًا له من الأساس.»

ردَّ ثورندايك: «هذا مُحتمَل إلى حدٍّ كبير، رغم أن الاحتمالات تصبُّ في صالح أنه اشتراها، مع الأخذ بعين الاعتبار السرية التي هي ضرورية. لكن على أي حال، لدينا هنا وسيلة من وسائل التعرف إلى الآلة إن صادفناها يومًا.»

ثم أخذ البطاقة وأعطانيها ومعها عدسة جيبه.

وقال: «انظر عن كثَب إلى حرف e الذي كنا نتحدَّث عنه؛ تكرَّر هذا الحرف خمس مرات؛ في الكلمات: Thorndyke وBench وInner وTemple. والآن ستلاحظ في كل مرة أن هناك انقطاعًا دقيقًا في عُقْدة الحرف، عند القمة تمامًا. هذا الفاصل يتَّسق مع نتوء بسيط في حرف الطباعة — وسببه على الأرجح أن الحرف ارتطم بشيءٍ صغير وصلب.»

قلت: «يمكنني رؤية هذا الانقطاع بوضوح، وسيكون هذا مؤشِّرًا قيِّمًا للغاية من أجل التعرُّف إلى الآلة.»

أجاب ثورندايك: «ينبغي أن يكون شِبه حاسم، خاصةً حين نُضيفه إلى وقائع أخرى ستظهر لدى البحث في مَقرِّه. والآن، لنُلخِّص الوقائع التي وضعها صديقنا فلان بين أيدينا.

أولًا: فلان شخص أملك معلومات حصريةً عنه.

ثانيًا: فلان لدَيه معرفة بعاداتي الشخصية.

ثالثًا: فلان رجل يتمتع بنفوذ ومكانة اجتماعية.

رابعًا: فلان رجل واسع المعرفة، وشديد البراعة، ويتمتع بمهارة ميكانيكية.

خامسًا: من المُرجَّح أن فلانًا اشترى حديثًا آلة كاتبة مستعملة من ماركة بليكنسدرفير، مزوَّدة بعجلة طباعة أدبية.

سادسًا: يمكن التعرُّف إلى تلك الآلة، سواء كانت مِلكَه أم مِلك شخصٍ آخر، من خلال علامة مُميزة على الحرف الصغير e.

إن دوَّنتَ هذه النقاط الست، وأضفتَ أنه من المرجَّح أن فلانًا خبير في ركوب الدراجات وماهر في الرماية، ربما تتمكَّن في وقتٍ قريب من معرفة هُويته.»

قلت: «يؤسفني أن أقول إنني لا أملك المعلومات اللازمة لذلك؛ لكني أظنُّ أنك تملكها، وإن كان الأمر على هذا النحو، فإني أُكرِّر عليك أن واجبك تجاه المجتمع — ناهيك عن عملائك الذين ستتعرَّض مصالحهم للضرَر جراء موتك — أن تجعل الشرطة تضع الأغلال في يدِ هذا الرجل قبل أن يرتكب أي مفسدة.»

«أجل؛ سيتعيَّن عليَّ أن أتدخَّل إن أصبح مثيرًا للمشاكل بحق، لكنني لديَّ أسبابي في تركه وشأنه في الوقت الراهن.»

«إذن، أحقًّا تعرف من يكون؟»

«في الواقع، أظنُّ أن بإمكاني إنجاز ما طلبتُ منك أن تنجزه فيما يتعلق بهُويته. فبحوزتي، كما أشرتَ، بعض المعلومات التي ليست بحوزتك. على سبيل المثال، ثمة رجل نبيل فطن أملك عنه معلومات أعتقد أنها حصرية، ومن خلال معرفتي به لا أستبعد أن يكون هو العقل المدبِّر وراء هذه الخطط الدقيقة والمُتقنة.»

قلت، وأنا أضع المُفكرة في جيبي، بعد أن دوَّنتُ النقاط التي أوصاني ثورندايك بأخذِها في الاعتبار: «أنا مندهش للغاية من قُدرتك على الملاحظة وإمكاناتك في الاستدلال بناءً على معلوماتٍ تبدو تافهة؛ لكنني ما زلتُ لا أرى حتى الآن لماذا أخذتَ تنظُر إلى هذا

السيجار بارتيابٍ فوري وحاسم بهذا الشكل. فلم يكن هناك شيءٌ يُشير إلى وجود سمٍّ فيه، ومع ذلك، بدا وكأنك ارتبتَ فيه من فورك، وشرعتَ تبحث عنه وكأنك تتوقَّع أن تجده.»

أجاب ثورندايك: «صحيح، أنت مُحق إلى حدٍّ ما. ففكرة السيجار المُسمَّم ليست جديدةً عليَّ؛ وعندي في هذا الصدد قصة.»

ضحك ضحكةً هادئة وحدَّق في النار فتلألأت عيناه باستمتاع هادئ. ثم أضاف بعد أن سكت برهة: «لقد سمعتني أقول إنني لم يكن لديَّ شيءٌ أفعله لمَّا أخذت هذا المقر. وكنت قد ابتكرت نوعًا جديدًا من الممارسات الطبية الشرعية وتعيَّن عليَّ تطويرها بدرجاتٍ بطيئة، وكان من النتائج الطبيعية لهذا أنها لم تُسفِر ولوقتٍ طويل سوى عن ترفيهٍ واستمتاع غير محدودَين. لكنني لم أُضيِّع هذا الاستمتاع بأي شكلٍ لأنني وظَّفته في تأمُّل فئة القضايا التي مِن المرجَّح أن أتولَّاها، وفي وضع أمثلةٍ نظرية؛ ولمَّا رأيتُ أن الجرائم في حق الأشخاص دائمًا تقريبًا ما يكون لها اتجاه طبيٌّ قوي، فقد أوليتُها اهتمامًا خاصًّا. على سبيل المثال، خطَّطت سلسلةً من جرائم القتل، وانتقيتُ لها شخصيات من العائلة الملكية ووزراء كبارًا ليكونوا ضحاياها، وفي كل جريمة منها كنتُ أوظِّف كل ما لديَّ من معرفةٍ خاصة ومهارة وبراعة. كنتُ أُدقِّق في عادات ضحاياي المُفترَضين؛ وكنت أتثبَّت من معارفهم وأصدقائهم وأعدائهم وخَدَمهم؛ وكنت أنظر لعاداتهم الغذائية، ولأماكن سكناهم ولوسائل النقل التي يستعملونها ولمصادر ثيابهم، في الواقع، كنت أعرف كل ما ينبغي معرفته من أجل جعْل موتهم مؤكدًا وبطريقةٍ آمنة تمامًا للقاتل.»

فعلَّقت أقول: «كم كان سيَشعر هؤلاء بالامتنان والإطراء لو عرفوا كمَّ الاهتمام الذي كانوا يتلقَّونه!»

«أجل؛ أظن أن الأمر كان سيُصبح مُذهلًا بصورةٍ ما لرئيس الوزراء على سبيل المثال، أن يعرف أنه كان تحت المراقبة والدراسة من راصدٍ يقظ، وأن ترتيبات قتله قد تمَّت حتى أدق تفاصيلها. لكن، بطبيعة الحال، تطبيق هذه الطريقة على قضية بعينِها كان هو الغرَض الأساسي؛ لأن هذا التطبيق يُبرِز كل الصعوبات العارضة، التي تنطوي في مواجهتها على جميع التفاصيل المُثيرة للاهتمام والمُفيدة بحق. وقد دوَّنت كل تفاصيل هذه الجرائم بخطِّ يدي، في دفترٍ احتفظت به لأجل هذا الغرَض، ولستُ في حاجة لأن أقول إنني كنتُ أحفظه في خزينتي في الوقت الذي لم أكن أستخدِمه فيه. وبعد الانتهاء من كل قضية، اعتدت أن أُبدِّل المواقف وألعب اللعبة مرةً أخرى من على الجانب الآخر من الرقعة؛ أي إنني كنتُ أضيف ملحقًا إلى كل قضية، تحليلًا يضمُّ خطَّةً كاملة لكشف

الجريمة. في الوقت الراهن، لديَّ في خزينتي ستة مجلدات من القضايا، مفهرسة بالكامل؛ وأؤكِّد لك أنها لا تُمثِّل مطالعةً عالية التثقيف والفائدة فحسب، بل لها أيضًا قيمة الأعمال المرجعية.»

أجبتُه، وأنا أضحك بحرارة على غرابة الأمر برمَّته: «يُمكنني تصديق هذا بسهولة، رغم أن هذه المجلدات كانت ستُدينك لو أنها خرجت من حيازتك.»

فرد ثورندايك: «لن يمكن لأي أحدٍ قراءتها. فخطُّ يدي يُمثِّل شفرةً يستعصي حلها، على ما أظن؛ وقد فعلتُ هذا عمدًا لأغراض السرية.»

«وهل تحقَّق أيٌّ من قضاياك النظرية في الواقع؟»

«تحقَّق العديد منها حقًّا، وإن كان التخطيط والتنفيذ الدقيقَين قد غابا عنها. والسيجار المُسمَّم هو أحد هذه القضايا، رغم أنني بالطبع ما كنت لأستخدِم أداةً واضحة كهذه وسيلةً للقتل بالسم؛ والحادثة السابقة التي تعرَّضتُ لها في تلك الليلة تمثِّل تعديلًا — إلى الأسوأ — على قضية أخرى. في واقع الأمر، معظم القضايا المُعقَّدة والمُبتكرة التي تعاملت معها مِهنيًّا كانت لها نماذج أولية مُكتملة ومفصَّلة في يومياتي.»

ظَلِلت صامتًا لبعض الوقت، أُفكِّر في هذه الشخصية الغريبة التي يتمتَّع بها صديقي الموهوب وكفاءته الفريدة في التعامُل مع الدور الذي اختار أن يلعبه في دراما الحياة الاجتماعية؛ لكن سرعان ما تحوَّلت أفكاري إلى الخطر الذي كان يُحْدِق به، فعدتُ مرةً أخرى لطرح سؤالي.

فقلت: «والآن يا ثورندايك، بعد أن كشفتَ دوافع هذا الخبيث وأمطْتَ اللثام عنه، ماذا ستفعل؟ هل سيُقبَض عليه ويُودَع في السجن، أم سيُترَك وشأنه ليُخطِّط مكيدةً أخرى، ربما أكثر نجاحًا، للقضاء عليك؟»

ردَّ ثورندايك: «في الوقت الراهن، سأضع هذه الأشياء في مكانٍ آمن. وغدًا ستأتي معي إلى المُستشفى وسنُعطي طرفَي هذا السيجار إلى الدكتور تشاندلر ليُجري تحليلًا ويُبلغنا بطبيعة السمِّ المُستخدَم. بعد ذلك سنتصرَّف بالطريقة التي نراها أنسب.»

ورغم أن هذه الخاتمة لم تكن مريحة، كنت أعرف أنه لا جدوى من إبداء المزيد من الاعتراضات، ومن ثمَّ، حين وضع ثورندايك السيجار مع الأوراق والأغلفة التي كانت معه في أحد الأدراج، صَرَفنا الموضوع، على الأقل عن حديثنا، ولكن ليس عن تفكيرنا.

الفصل الرابع عشر

اكتشاف مذهل

أخيرًا حلَّ صباح يوم المحاكمة الذي قد طال انتظاره، وسلسلة الأحداث التي كانت مُهمتي تسجيلها في هذا السرد كانت الآن تقترب بسرعة من نهايتها. كانت هذه الأحداث عميقة التأثير والأهمية على نفسي. فهي لم تنقلني فحسب من حياةٍ روتينية رتيبة إلى حياةٍ مشحونة بالتجديد والمواقف المُثيرة والجذابة؛ ولم تُقدِّمني وحسب إلى نهضةٍ ثقافية علمية وأعادت إحياء الأُلفة والمودَّة بيني وبين رفيق دراستي في ظروفٍ جديدة؛ بل كان الأمر الأهم من ذلك بكثيرٍ أن هذه الأحداث أَمَدَّتني برؤية، خاطفةٍ للغاية، لسعادة لم تتحقَّق، وبواقعٍ من الأسى والمرارة يُبشِّر أنه سيفوق التحمُّل.

وهكذا في ذلك الصباح، كانت أفكاري مشوبةً بشيءٍ من الكآبة. كان فصل في حياتي على وشك أن ينتهي بحلوِه ومرِّه، فرأيتُ نفسي مرةً أخرى كبَني إسماعيل، أعيش على الهامش هائمًا وغريبًا بين الناس.

ومع ذلك، سرعان ما تبدَّدت هذه الحالة الذهنية المُتمحورة حول الذات حين قابلتُ بولتون؛ لأن الرجل الضئيل الجسم كان في حالةٍ من الإثارة الحقيقية النابعة من توقُّعه لأن يشهد حلَّ الألغاز التي أنهكت فضوله؛ وحتى ثورندايك نفسه كانت تبدو عليه، من خلف ستار هدوئه المعتاد، لمحةٌ من الأمل والترقُّب السار.

قال، لَمَّا جلسنا نتناول الإفطار: «لقد سمحت لنفسي أن أُجري بعض التدابير والترتيبات نيابةً عنك، وآمُل ألَّا تُعارضها. لقد أرسلت إلى السيدة هورنبي، التي ستكون من بين الشهود، أخبِرها أنك ستلتقي بها في مكتب السيد لولي وأنك ستُرافقها هي والآنسة جيبسون إلى المحكمة. وربما يكون والتر هورنبي معهما، وإن كان حقًّا معهما، فمِن الأفضل أن تترُكه، إن أمكن، ليأتي مع السيد لولي.»

«لن تذهب إلى المكتب إذن؟»

«كلَّا. سأذهب إلى المحكمة مباشرةً مع أنستي. علاوةً على ذلك، أتوقَّع وصول المُفتِّش ميلر من سكوتلانديارد، الذي من المُرجَّح أن يُرافقنا سيرًا إلى المحكمة.»

قلت: «يسرُّني سماع هذا؛ لأنني كنتُ أشعر بالقلق إلى حدٍّ ما من فكرة أن تسير بين الناس من دون أي شكلٍ من أشكال الحماية.»

«أنت ترى أنني أتَّخذ تدابير احترازيةً في مواجهة اعتداءات فلان العبقري، ولكي أصدقك القول، لن أسامح نفسي أبدًا إذا سمحتُ له أن يقتلني قبل أن أُكمل الدفاع عن روبين هورنبي، بغض النظر عمَّا في قولي هذا من تناقُض بياني. ها هو بولتون؛ إن ذلك الرجل شديد الحماس والهمَّة هذا الصباح؛ فمنذ أتى وهو يجوب الشقة، وكأنه قطة في منزلٍ جديد عليها.»

فقال بولتون مبتسمًا وبلا خجل: «هذا صحيح يا سيدي، لا جدوى من إنكار الأمر. لقد أتيتُ أسألك عما سنأخذه معنا إلى المحكمة.»

فأجابه ثورندايك: «ستجد صندوقًا وحافظةً على الطاولة في غرفتي. من الأفضل أيضًا أن نأخُذ ميكروسكوبًا وأجهزة الميكرومتر، وإن كان من المُستبعَد أن نحتاجها؛ هذا كل شيءٍ على ما أظن.»

كرَّر بولتون قوله بنبرةٍ متأمِّلة: «صندوق وحافظة. حسنٌ يا سيدي، سآخُذهما معي.» ثم فتح الباب وكان على وشْك أن يخرج، لكنه استدار راجعًا لَمَّا رأى زائرًا يصعد الدرج.

«لقد وصل السيد ميلر من سكوتلانديارد يا سيدي؛ هل أُدخله؟»

«أجل أَدخِله.» ثم نهض من كرسيه بينما دلف من الباب رجل طويل البِنية يبدو مظهره عسكريًّا وألقى التحية وهو ينظر، في الوقت نفسه، نحوي بنظرةٍ مُستفسرة.

وقال بنبرة نشيطة: «صباح الخير يا دكتور. لقد وصلني خطابك ولم أفهم منه الكثير، لكنني أحضرتُ معي رجلَي شرطة بثيابٍ مدنية ورجلًا ثالثًا بزيٍّ رسمي كما أشرتَ. وأفهم أنك تريد مراقبة أحد المنازل، صحيح؟»

«أجل، ورجل أيضًا. سأعطيك التفاصيل قريبًا؛ هذا إن كنتَ تظنُّ أنك يمكن أن توافق على شروطي.»

«وهي أن أتصرَّف من تلقاء نفسي تمامًا وألَّا أتواصل مع أي أحد، أليس كذلك؟ بالطبع أُفضِّل أن تُطلعني على كل التفاصيل وتدعني أتصرَّف بالطريقة المعتادة؛ لكن إن كان لديك شروط فليس أمامي خيار سوى الموافقة عليها؛ فأنت من يملك زمام الأمور.»

ولَّما رأيتُ أن الأمر بينهما ذو طبيعة سرية، وجدتُ أن من الأفضل أن أغادر، وقد فعلتُ بمجرد أن عرفت أن أمامي نصف ساعة على لقائي بالسيدة هورنبي وجولييت في مكتب المحامي.

استقبلني السيد لولي بتوتُّر يقترِب من العداء. كان من الواضح أنه كان يشعر بإهانةٍ شديدة من صغر الدور الذي أُجبِرَ على أن يضطلع به في القضية، ولم يبذل الرجل جهدًا لإخفاء هذا.

قال بنبرة باردة حين شرحتُ له مهمتي: «أُبلِغتُ أن السيدة هورنبي والآنسة جيبسون ستقابلانك هنا. لم أرتِّب لهذا؛ ولم أرتِّب لأي شيءٍ في هذه القضية. لقد عوملتُ طوال الوقت بانعدام كياسة وبقلَّة ثقةٍ ترقى إلى مستوًى مشين. حتى في هذه اللحظة، ورغم أنني محامي الدفاع، فإنني أجهل تمامًا الدفاع المُزمَع، وإن كنت أتوقَّع أن أكون مشاركًا في إخفاق كبير. أنا واثق تمامًا من أنني لن تكون لي صِلة بأيٍّ من الأطباء الهُجن من بني مِهنتك. هناك شعار لاتيني مُمتاز يقول: «من تكلَّم في غير فنه أتى بالعجائب».»

فرددت: «يبقى أن نرى نوعية العجائب التي سيُقدِّمها.»

أجاب: «وهو كذلك؛ لكنني أسمع صوت السيدة هورنبي في المكتب الخارجي، وحيث إننا لا نملك أي وقتٍ نُضيعه في الدردشة العابرة، أقترح أن تمضي في طريقك إلى المحكمة من دون تأخير. أتمنَّى لك صباحًا طيبًا!»

واستجابةً لتلميحه الصريح والمباشر، خرجتُ إلى مكتب الكاتب حيث وجدت السيدة هورنبي وجولييت، وكان جليًّا أن السيدة هورنبي كانت باكيةً ومذعورة، بينما كانت جولييت هادئةً وإن كانت تبدو شاحبةً ومضطربة.

فقلت بعد أن تبادلنا التحيَّات: «من الأفضل أن ننطلِق من فورنا. هل نستأجِر عربة أجرة أم نذهب سيرًا؟»

فقالت جولييت: «أظن أننا سنذهب سيرًا إن كنتَ لا تمانع. تريد السيدة هورنبي أن تُحدِّثك قليلًا قبل أن ندخل المحكمة. أنت تعرف أنها أحد الشهود، وهي فزعة من أنها قد تقول شيئًا يُسيء إلى موقف روبين.»

فسألتها: «من الذي جاء باستدعاء المثول؟»

فردَّت السيدة هورنبي: «أرسله السيد لولي، وقد ذهبت لزيارته في اليوم التالي مباشرة، لكنه لم يُوضِّح لي أي شيء؛ لم يبدُ أنه يعرف سبب استدعائي، ولم يكن على الإطلاق لطيفًا معي، لم يكن لطيفًا على الإطلاق.»

فقلت: «أتوقع أن تكون لشهادتكِ علاقة بسجلٍّ بصمات الإبهام. فليس لديكِ أي معرفة بأي شيءٍ آخر ذي صِلة بالقضية.»

هتفت السيدة هورنبي: «هذا بالضبط ما قاله والتر. ذهبتُ إلى شقته لأتحدَّث معه في الأمر. إنه في غاية الانزعاج بشأن المسألة كلها، ويؤسِفني أن أقول إنه متشائم من فُرَص روبين المسكين في النجاة. آمُل فقط أن يكون مخطئًا! وا حسرتاه! يا له من أمر مروع بحق!» وهنا توقَّفت السيدة المكلومة عن الحديث لتمسح عينَيها طويلًا، الأمر الذي أثار دهشة وازدراء ساعٍ كان مارًّا بنا.

أردفت السيدة هورنبي: «كان مُراعيًا وشفوقًا — أقصد والتر كما تعرف — وكان في غاية التعاون. فقد سألني عن كل ما أعرفه عن هذا السجل الصغير البغيض، وأخذ يدوِّن إجاباتي. ثم كتب لي الأسئلة التي من المُرجَّح أن تُطرَح عليَّ، ودوَّن إجاباتي عليها؛ حتى يتسنَّى لي تكرار قراءتها وحفظها حفظًا جيدًا. كان هذا تصرُّفًا نبيلًا من جانبه! وطلبت منه أن يطبع الأسئلة والإجابات بآلته حتى يتسنَّى لي قراءتها من دون نظارتي، وقد طبعها بالفعل طباعةً جميلة. الورقة معي في جيبي هنا.»

فقلت لها: «لم أكن أعرف أن السيد والتر قد اتَّجه لمجال الطباعة. هل يملك آلة طباعة عادية؟»

ردَّت السيدة هورنبي: «ليست آلة طباعة بالضبط؛ إنها آلة صغيرة بها الكثير من المفاتيح المستديرة التي تضغط عليها — أعتقد أن اسمها ديكنسبليرفير — اسم سخيف، أليس كذلك؟ اشتراها والتر من أحد أصدقائه الأدباء قبل نحو أسبوع؛ لكنه يزداد مهارةً في التعامُل معها، رغم أنه ما زال يرتكب بعض الأخطاء كما ترى.»

ثم توقفَت عن الحديث مرةً أخرى وشرعت تبحث عن فتحة جيب متوارية في مكانٍ خفي في ملابسها، وهي غير واعية على الإطلاق لتأثير ما قالته علي. لأنها فور أن تحدثت، جالت بخاطري كالبرق إحدى النقاط التي قدَّمها لي ثورندايك لتحديد هُوية فلان المجهول. «من المُرجح أن فلانًا اشترى حديثًا آلة كاتبة مستعملة من ماركة بليكنسدرفير، مزوَّدةً بعجلة طباعة أدبية.» كانت المصادفة عجيبة، بل ومدهشةً حتى، على الرغم من أنني اقتنعتُ بعد التأمُّل للحظة أن الأمر لا يتجاوز كونه مجرد مصادفة؛ لأنه لا بد أنه يوجَد مئات من آلات بليكنسدرفير المستعملة في السوق، وفيما يخصُّ والتر هورنبي، فلا يمكن أن يكون على خلاف مع ثورندايك، بل إن من مصلحته أن يكون ثورندايك سليمًا ومعافًى لصالح روبين.

عصفت هذه الأفكار بخاطري عصفًا سريعًا، لدرجة أنني كنت قد أفقتُ من صدمة التذكُّر حين وجدَتِ السيدة هورنبي ضالَّتها في جيبها.

وهتفت بانتصارٍ وهي تُخرِج محفظةً مغربيةً ممتلئة: «آه! ها هي. لقد وضعتها هنا لضمان سلامتها؛ فأنا أعرف كم يمكن للمرء أن يتعرَّض للنشل في شوارع لندن المزدحمة هذه.» ثم فتحت المحفظة المكتنزة ومدَّتها وكأنها تُمسك أوكورديون، فظهرت بداخلها أقسام كثيرة، كلها محشوة بقطع من الورق ولفائف من شرائط وحرير يُستخدَم في الخياطة، وأزرار، وعيِّنات من خامات ملابس وأشياء أخرى زهيدة متنوعة، وقد اختلط كل ذلك بصورة عشوائية بعملاتٍ معدِنية من الذهب والفضة والنحاس.

وقالت وهي تُعطيني ورقةً مطوية: «انظر في هذه الورقة يا دكتور جيرفيس، وقل لي رأيك في إجاباتي.»

ففتحت الورقة وقرأت: «لجنة جمعية حماية المعتوهين العاجزين، بتقديم هذه ...»

«أوه! ليست هذه الورقة المنشودة؛ لقد أعطيتك ورقةً خاطئة. يا لي من سخيفة! هذه مناشدة ... تذكرين يا عزيزتي جولييت ذلك الرجل المزعج ... كان عليَّ أن أتعامل معه بوقاحة شديدة يا دكتور جيرفيس؛ اضطُررت لأن أخبره أن الأقربين أولى بالمعروف، رغم أننا — وأشكر الرب على هذا! — ليس بيننا عاجز أو مشلول، لكن لا بد لنا أن نضع أهلنا في اعتبارنا، صحيح؟ ثم ...»

فقاطعَتها جولييت وقد بدا على وجنتها الشاحبة أثر طفيف لغمازتها: «أتظنين أن هذه هي الورقة المنشودة يا عزيزتي؟ تبدو هذه هي الأنظف من بين الأوراق الأخرى.»

وانتقت ورقةً مطويةً من المحفظة التي كانت السيدة هورنبي تمسك بها بيدَين ممدودتَين عن آخرهما، وكأنها على وشك أن تعزف فجأةً قطعةً موسيقية، ثم فَتَحَتْها ونَظَرَتْ في محتواها.

وقالت: «نعم، هذه هي شهادتكِ»، ومرَّرت لي الورقة.

أخذتُها من يدها، ورغم الاستنتاج الذي كنتُ قد وصلت إليه، رحتُ أفحصها بفضول شديد. ومن النظرة الأولى شعرتُ برأسي يدور وقلبي يخفق بشدة. لأن نص عنوان الورقة كان: «شهادة بخصوص سجل بصمات الإبهام»، وفي كل مرة تكرَّر فيها حرف e صغير في هذه الجملة، رأيت بوضوح وبمساعدة الضوء الخارجي فاصلًا أو مسافة عند قمة عُقْدة الحرف.

صُعِقتُ ممَّا رأيت.

أن تقع مصادفة واحدة، فهذا أمر ممكن بل ومُحتمَل حتى؛ لكن أن تقع صدفتان، وتكون المصادفة الثانية بهذه السمة البارزة، فهذا أمر يتجاوز حدود المعقول والمُحتمَل. كان التماثُل لا يدع مجالًا للشك، ومع هذا …

«يبدو أن مستشارنا القانوني مشغول البال بعض الشيء»، هكذا علَّقت جولييت بشيءٍ من أسلوبها المرح القديم؛ وفي الواقع، ورغم أنني كنتُ أُمسك بالورقة في يدي، كان بصري زائغًا ومثبتًا على عمود إنارة مجاور. وبينما كانت جولييت تتكلَّم، استجمعتُ شتات نفسي ونظرتُ في الورقة نظرةً سريعة، وكنت محظوظًا بما يكفي لأن أجد في الفقرة الأولى شيئًا يتطلَّب التعليق.

فقلت: «ألاحظ، يا سيدة هورنبي، أنه في السؤال الأول الذي يقول «متى حَصَلْتِ على سجل بصمات الإبهام؟» أنكِ أجبتِ: «لا أتذكَّر بوضوح؛ لا بد أنني ابتعتُه من كشك للكتب في محطة قطار». وكما فهمتُ كان والتر هو من جاء به إلى المنزل وأعطاكِ إياه.»

أجابت السيدة هورنبي: «هذا ما كنتُ أظنه، لكن والتر أخبرني أن الأمر لم يكن على هذا النحو، وبالطبع ذاكرته أفضل مني.»

قاطعتها جولييت: «لكن يا عمتي العزيزة، أنا واثقة من أنه أعطاكِ إياه. ألَا تتذكَّرين؟ كان ذلك ليلة استضفنا آل كولي على العشاء، وكنا تحت ضغطٍ شديد لإيجاد شيءٍ يُسلِّيهم، حين جاء والتر وأخرج سِجل بصمات الإبهام.»

فقالت السيدة هورنبي: «نعم، أتذكَّر جيدًا جدًّا الآن. من حُسن الحظ أنكِ ذَكَّرتِني. لا بد أن نُعدِّل هذه الإجابة على الفور.»

قلت: «لو كنتُ مكانكِ يا سيدة هورنبي، سأتجاهل هذه الورقة تمامًا. هذه الورقة ستُصيبكِ بالحيرة وستضعكِ في مواقف صعبة. أجيبي على الأسئلة التي تُطرح عليكِ بأفضل ما يُمكنكِ، وإن كنتِ لا تتذكَّرين، فقولي ذلك.»

قالت جولييت: «أجل، هذه الخطة هي الأفضل. دعي الدكتور جيرفيس يتولى أمر الورقة وعوِّلي على ذاكرتكِ.»

ردَّت السيدة هورنبي: «حسنٌ يا عزيزتي. سأفعل ما تريان أنه الأفضل، ويمكنكَ الاحتفاظ بالورقة يا دكتور جيرفيس، أو يمكنكَ أن تتخلَّص منها.»

دسستُ الورقة في جيبي من دون تعليق، وتقدَّمنا في طريقنا، فكانت السيدة هورنبي تُثرثر وبين الحين والحين تنخرِط في نوباتٍ من الانفعالات، أما جولييت فكانت صامتةً وشاردة. وقد جاهدتُ كثيرًا لتركيز انتباهي على محادثة السيدة العجوز، لكن أفكاري

ظلَّت تعود إلى الورقة التي في جيبي، وما يبدو أنها كانت تُمثِّله من حلٍّ مُذهل لِلُغز السيجار المسموم.

هل يمكن حقًّا أن يكون والتر هورنبي هو ذلك الوغد المجهول؟ بدا ذلك مُستحيلًا؛ لأنه، حتى هذه اللحظة، لم يبدُ أن ثمة شكًّا واحدًا كان يحوم حوله. رغم هذا، لا يمكن إنكار أن وصفه يتطابق بشكلٍ بارز للغاية مع فلان المُفترَض. فهو رجل ذو نفوذ ومكانة اجتماعية؛ كما أنه يتمتَّع بمعرفة غزيرة ومهارة ميكانيكية، وإن كنتُ لا أستطيع الجزم بشأن فطنته وحصافته. كما أنه اشترى مؤخرًا آلة بليكنسدرفير مستعملة، مزودةً على الأرجح بعجلة طباعة أدبية، وذلك استنادًا إلى أنه اشتراها من رجلٍ يمتهِن الأدب؛ إضافةً إلى أن هذه الآلة كانت تطبع الحرف e بالعلامة المُميزة المعروفة. أما النقطتان المُتبقيتان من النقاط الستِّ فكانتا مُبهمتَين. لم أستطع أن أكوِّن رأيًا بالطبع بشأن ما إن كان ثورندايك يحوز على معلومات خاصة عنه، وفيما يتعلَّق بمعرفته بعادات صديقي، كنتُ في البداية أميل إلى التشكُّك في ذلك حتى تذكَّرت فجأة، وبانقباضٍ مؤلِم سَبَّبَه الندم ولوم الذات، التفاصيل المختلفة والكثيرة التي كنتُ قد تحدَّثت فيها مع جولييت والتي يمكن أن تكون قد نقلتْها إلى والتر بسهولةٍ وببراءة تامَّة. على سبيل المثال، كنت قد أخبرتُ جولييت تفضيل ثورندايك لسيجار شيروت الهندي، فربما تحدَّثت هي عن هذا بصورةٍ طبيعية معه، وكان هو يملك منه عددًا كبيرًا. وفيما يتعلَّق بوقت وصولنا محطة كينجز كروس، فكنت قد أخبرتها عنه في رسالة لم تكن سريةً أو خاصة بيننا بأي شكلٍ من الأشكال، ومرةً أخرى لا أجد سببًا يمنع أن تنتقِل هذه المعلومة إلى والتر الذي كان ينبغي أن يكون أحد الحضور في العشاء العائلي. في الحقيقة، بدت المصادفة مكتملةَ الأركان بالشكل الكافي؛ ورغم هذا، كان مِن غير المعقول أن يكون ابن عم روبين شريرًا وأسود القلب بهذا الشكل، أو أن يكون لدَيه دافع لارتكاب مِثل هذه الجرائم الخسيسة.

وفجأة، خطرت لي فكرة جديدة. كانت السيدة هورنبي تستطيع الوصول إلى هذه الآلة الكاتبة؛ وإذا كانت السيدة هورنبي تستطيع أن تفعل ذلك، فما الذي يمنع جون هورنبي من الوصول إليها؟ إن الأوصاف في معظم نقاطها تُطابق الرجل العجوز كما تطابق الشاب، وإن كنت لا أملك أي دليلٍ على أن الرجل يتمتَّع بمهارةٍ ميكانيكية خاصة؛ لكن شكوكي كانت قد اجتمعت حوله حقًّا، وتذكَّرتُ أن ثورندايك لم يرفض بأي شكلٍ نظريتي التي كانت تربطه بالجريمة.

هنا، اقتحمت السيدة هورنبي خلوة تأمُّلي؛ إذ أمسكت بذراعي وأطلقت أنينًا عميقًا. كنا قد وصلنا إلى زاوية أولد بايلي، وكانت أمامنا الآن جدران سجن نيوجيت الكالحة. داخل تلك الجدران، كنتُ أعرف — رغم أنني لم أذكر هذه الحقيقة — أن روبين هورنبي كان محبوسًا مع مساجين آخرين ممَّن ينتظرون محاكماتهم؛ وبنظرةٍ واحدة إلى هذا البناء الضخم، الذي تحوَّلت جدرانه إلى لونٍ رمادي قاتمٍ بفعل سخام المدينة، توقَّفت عن التأمُّل وعدتُ إلى الأحداث الدرامية التي كانت تقترِب من ذروتها.

رُحنا نسير في صمت، في ذلك الشارع القديم الذي تراكمت فيه الكثير والكثير من الذكريات عن مآسٍ بشعة؛ سِرنا بجوار السجن الكئيب؛ ومررنا من بوابة دخول المدينين ببابها الصغير ذي السنون المانعة؛ ثم ببوابة المشنقة بأكاليل الأغلال الخاصة بها؛ حتى وصلنا إلى مدخل «قاعات الجلسات».

هنا لم أشعر بالارتياح لأن أجد ثورندايك ينتظرنا؛ ذلك أن السيدة هورنبي كانت في حالٍ من الاضطراب العصبي وعلى وشك أن تنفجر في نوبة هيستيريا رغم جهودها الجبَّارة في السيطرة على عواطفها، في حين أظهرت جولييت، من خلال امتقاع وجنتَيها كالشمع وجموح عينَيها، أن مشاعر الذُّعر كانت تعود إليها، رغم أنها كانت تُظهر هدوءًا وتماسكًا؛ وسُرِرتُ لأنهما كُفِيَتا شرَّ الاحتكاك برجال الشرطة الذين يحرسون المداخل المختلفة.

وقال ثورندايك مُترفِّقًا، وهو يأخذ يد السيدة هورنبي: «يتعيَّن علينا أن نكون شجعانًا، وأن نظهر بوجهٍ بشوش أمام صديقنا الذي يتحمَّل الكثير بصبرٍ وثبات. ساعات قليلة بعدُ، ويحدوني الأمل أن نراه يستعيد لا حريته وحسب، لكن وشرفَه أيضًا. هذا هو السيد أنستي الذي نثِق بأنه سيتمكَّن من إظهار براءته.»

كان أنستي يعتمر شعره المُستعار ويرتدي رداءه، على عكس ثورندايك، وانحنى بجدية، ثم مررْنا معًا عبر البوابات القذرة إلى قاعة غبشاء. وقد وقف رجال الشرطة في زيِّهم الرسمي وكذلك المُحقِّقون الذين لا تُخطئهم العين في الأرجاء عند المداخل المختلفة، كما كمنت في الخلفية وعلى المقاعد مجموعاتٌ من أناس ذوي مظهرٍ شرير وقذِر، فنشروا في الهواء الفاسد العفن تلك الرائحة المُميَّزة التي لا يمكن وصفُها والتي تُلازِم عربات الشرطة وغرَف الاستقبال في السجون؛ رائحة كان يشوبها في الوقت الراهن عبير المُطهِّرات. سارعنا في طريقنا عبر الحشد البغيض، وصعدنا سلُّمًا إلى بسطةٍ تفرَّعت منها عدة ممرَّات. وسِرنا في أحد هذه الممرَّات — كان له «مدخل قاتم» نوعًا ما ومزوَّد ببوابة تُشبه القفص مصنوعة

من القضبان الحديدية — حتى مررْنا ببابٍ أسود، كُتِب عليه «المحكمة القديمة. المحامون والكتَبة.»

أمسك أنستي بالباب مفتوحًا لنَمُر، فدلفنا إلى داخل المحكمة التي أصابتني على الفور بإحساسٍ بخيبة الأمل. كانت الحجرة أصغر ممَّا توقعت، وكانت جرداء ومُتدنِّيةً بدرجة تصِل إلى الحقارة. فكانت الأشغال الخشبية فيها رديئةً وتكسوها حُبيبات صفراء ومليئة بالأوساخ أينما وصلت إليها الأيادي القذِرة. أما الجدران فكانت مطليةً بطلاءٍ مائي رمادي شاحب يميل إلى الخضرة؛ وأما الأرضية فكانت مفروشةً بألواحٍ خشبية مكشوفة وقذِرة، وكانت الأشياء الوحيدة التي تُشير إلى الأبهة أو الجاه تتمثَّل في الظلَّة التي تعلو كرسي القاضي — إذ كانت مبطَّنةً بقماشٍ قرمزي ومتوَّجة بالشعار الملكي — والوسائد القرمزية على المقاعد، والساعة الدائرية الكبيرة في المنصة، التي تزيَّنت بحافة مُذهبة وفرضت أهميتها بدقَّات عدوانية جهيرة.

تبِعنا أنستي وثورندايك إلى مقصورة المحامين، وأُشير لنا بأن نجلس في أحد المقاعد المحجوزة للمحامين — المقعد الثالث من الأمام — فجلسنا ورُحنا ننظر حولنا، في حين جلس صديقانا في المقعد الأمامي بجوار الطاولة المركزية. هنا، في أقصى يمين الحجرة، كان ثمة محامٍ — على الأرجح مُمثِّل الادعاء — في مكانه بالفعل ومُنهمكًا في مطالعة الموجَز الموضوع أمامه على المكتب. وأمامنا مباشرةً كانت مقاعد هيئة المُحلَّفين، يرتفع أحدها عن الآخر، وإلى جانبها كانت منصة الشهود. وفوقنا إلى جهة اليمين كان مقعد القاضي، وتحتَه مباشرةً هيكل يُشبه مقصورةً كبيرة أو مكتبًا كبيرًا، يعلوه قضيب نحاسي، وفي هذا المكتب كان ثمَّة رجل يرتدي شعرًا مستعارًا رماديًّا — كاتب المحكمة — يُصَلِّح قلَم ريشة. وإلى يسارنا وقف قفص الاتهام منتصبًا — كبيرًا وفسيحًا بطريقةٍ موحية — محاطًا من جانبَيه بأُطُر زجاجية عالية؛ وفوقه — قرب السقف — كانت تقع منصة النُّظَّار.

هتفت جولييت، التي كانت تفصل بيني وبين السيدة هورنبي: «يا له من مكانٍ شنيع! كم يبدو كل شيءٍ قذرًا وحقيرًا!»

أجبت: «صحيح. فقذارة المُجرم لا تقتصِر على كِيانه الأخلاقي؛ فأينما يذهب، يترك المُجرم أثرًا ماديًّا قذرًا منه. لم يمضِ وقت طويل منذ كانت تُنثَر أعشاب طبية في قفص الاتهام وعلى مقعد القاضي، وأظنُّ أن هذه العادة ما زالت مستمرةً في شكل توريد أكاليل من الزهور إلى القضاة كإجراءٍ وقائي ضد حُمَّى السجون.»

فأكملت جولييت تقول بمرارة: «لا أتخيَّل كيف سيُحضَر روبين إلى مكانٍ كهذا! كيف سيُساق مع أناسٍ مثل الذين رأيناهم في الطابق السفلي!»

تنهَّدَت ونظرت خلفها إلى المقاعد التي خلفنا، حيث كان ستة صحفيين قد اتخذوا مجالسهم بالفعل وبدَوا متحمِّسين ينتظرون قضيةً مُثيرةً بحق.

قطعَت محادثتَنا أصواتُ أقدامٍ على درج المنصة، وبدأت الرءوس تظهر من فوق الحاجز الخشبي. وتدفَّق عدة مُحامين مبتدئين إلى المقاعد التي أمامنا؛ ودخل السيد لولي وكاتبه مقعد المحامي الموكَّل؛ واتخذ الحُجَّاب موقفهم تحت منصة المُحلَّفين؛ وجلس ضابط شرطة إلى مكتبٍ في داخل قفص الاتهام؛ وشرع المفتِّشون والمُحقِّقون وموظفون آخرون يجتمعون عند المداخل أو يختلسون النظر إلى داخل القاعة عبر الفتحات الزجاجية الصغيرة في الأبواب.

الفصل الخامس عشر

خبراء البصمات

توقَّفت فجأةً همهمات المُحادثات التي كانت قد تعالَت مع امتلاء القاعة. وانفتح باب في مؤخر المنصة؛ فنهض المحامون على اختلاف درجاتهم واختصاصاتهم، وكذلك نهض النظَّارة؛ ودخل القاضي وتبِعه مباشرةً عُمدة المدينة والمأمور وعدة شخصيات مدنية بارزة، وقد بدَوا جميعًا في غاية الجمال والروعة بما يرتدون من ثيابٍ وما يتقلَّدون من مناصب ورُتَب. واتخذ كاتب المحكمة مكانه خلف طاولته تحت المنصة؛ فأوقف المحامون مُحادثاتهم وراحوا يتحسَّسون ملفَّاتهم؛ وبينما اتَّخذ القاضي مجلسه، جلس كذلك المحامون والمسئولون والنظَّارة، واتجهت كل العيون إلى قفص الاتهام.

وبعد بضع لحظات ظهر روبين هورنبي في القفص بصحبة حارس، وكانا، حسبما بدا، يرتقيان من باطن الأرض، ولَمَّا تقدَّم روبين نحو الحاجز، وقف في هدوءٍ وثقة، وراح يجول ببصرِه سريعًا في أرجاء القاعة بفضول. ووقعت عينُه للحظة على مجموعة الأصدقاء والداعِمين الجالسين خلف محامي الدفاع، فسرَت على وجهه ابتسامةٌ طفيفة للغاية؛ لكنه أشاح ببصرِه في الحال ولم ينظر إلى اتجاهنا مُجددًا قَط طوال المحاكمة.

وقف الآن كاتب المحكمة، وقرأ من لائحة الاتهام التي كانت أمامه مخاطبًا السجين:

«روبين هورنبي، أنت تقف مُتهمًا بارتكاب جريمة سرقة طرد من الألماس من بضائع ومنقولات جون هورنبي يوم التاسع أو العاشر من شهر مارس. هل أنت مُذنب أم غير مذنب؟»

فأجاب: «غير مُذنب.»

وبعد أن سجَّل الكاتب ردَّ السجين، شرع يقول:

«السادة الذين ستُتلى أسماؤهم هم هيئة المُحلَّفين التي ستُحاكمك. إن رغبتَ في الاعتراض على أيٍّ منهم، فعليك أن تُبدي اعتراضك حينما يأتي الشخص ليُقسم على الكتاب المُقدَّس وقبل أن يُدلي بقَسَمه. حينها سيُسمَع اعتراضك.»

وإقرارًا منه بهذا الخطاب الذي أُلقيَ بنبرةٍ واضحة ورنانة وبكلماتٍ جليَّة، انحنى روبين للكاتب، وبدأت عملية إدلاء أعضاء هيئة المُحلَّفين بالقَسَم، في حين فتح المحامون تقاريرهم الموجزة وتحدَّث القاضي مازحًا مع مسئولٍ يرتدي ثوبًا من الفرو وسلسلة عُنق ضخمة.

كان أثر هذه الإجراءات على الذين لم يعتادوها شديد الغرابة؛ إذ كانت تجمع بين الجدِّية والغرابة، فوقع تأثيرها وسطًا بين تأثير الشعائر الدينية والأوبرا الكوميدية. وعلى مدار فتراتٍ دورية، جاء صوت الكاتب يعلو صوت الهمهمات المكتومة، فكان ينادي اسم أحد المُحلَّفين، وبينما يقف صاحب الاسم، يتقدَّم مشرف القاعة في زيِّه الأسود ومظهره الكهنوتي ليُقدِّم له الكتاب. ثم، بينما يُمسِك عضو الهيئة بالكتاب في يدِه، يأتي صوت المُشرف رنَّانًا في القاعة وكأنه صوت قسٍّ يتلو قرارًا أو ترنيمةً قصيرة؛ وقد ازداد هذا التأثير بفعل الطابع الإيقاعي والعتيق لصيغة القَسَم:

«صامويل سيبنجز!»

وقف عامل يبدو عليه الجمود، وأخذ الكتاب المُقدس في يده، ونظر إلى ذلك الموظَّف بينما يتلو بنبرةٍ رتيبة ومهيبة:

«لتحكم في هذه القضية بين جلالة مولانا الملك والمُتَّهم الذي في عُهدتكم بكلِّ صدقٍ ونزاهة، ولتُقدِّم حكمًا صادقًا يستند إلى الأدلة. وليُعِنك الرب!»

«جيمس بايبر!» وقف رجل آخر من المُحلَّفين وأُعطِيَ الكتاب ليُمسك به؛ وتعالت نبرة الرجل الرتيبة مرةً أخرى:

«لتحكم في هذه القضية ...»

همست لي جولييت قائلة: «سأصرخ بأعلى صوتي إن تردَّدت تلك الترنيمة لأطول من هذا. لماذا لا يُقسِمون جميعًا دفعةً واحدةً ونَفرُغ من هذه المسألة؟»

فأجبتُها: «لن يفي هذا بالمُتطلَّبات. ومع ذلك، لم يبقَ سوى اثنَين من الأعضاء، تحلَّي بالصبر.»

«وأنت ستتحلَّى بالصبر عليَّ أنا أيضًا، أليس كذلك؟ أنا خائفة للغاية. الأمر برمَّته كئيب ومَهيب.»

فقلتُ لها: «لا بد أن تحاولي الحفاظ على شجاعتكِ حتى يُقَدِّم الدكتور ثورندايك شهادته. وتذكَّري أنه حتى يتكلَّم ثورندايك، كل شيءٍ سيُقال سيكون ضد روبين؛ فاستعدِّي لهذا.»

فأجابت بخنوع: «سأحاول، لكن لا يسعني إلا أن أشعر بالرعب.»

وأخيرًا تلا آخِر أعضاء هيئة المُحلَّفين القَسَم، وحين نادى الكاتب على الأسماء مرةً أخرى اسمًا تلوَ الآخر، كان المُشرف يَعُدُّ بصوتٍ عالٍ بينما يَرُدُّ كل رجلٍ على اسمِه، ثم التفت الأخير إلى الحاضرين في القاعة وأعلن بنبرةٍ جادة:

«إن كان أي أحدٍ يستطيع إبلاغ السادة القضاة أو السيد المحامي العام أو السيد الرقيب القانوني قبل بدء المحاكمة بين جلالته؛ مولانا الملك والمُتهم عن أي خيانة أو جريمة قتل أو جناية أو جُنحة ارتكبها المُتهم، فليتقدَّم وستُسمَع شهادته؛ فالمُتهم الآن ماثل للمحاكمة وله الحق في الدفاع عن نفسه.»

تبِع هذا الإعلانَ صمتٌ مُطبِق، وبعد لحظةٍ التفت كاتب المحكمة نحوَ أعضاء هيئة المُحلَّفين وخاطبهم جميعهم فقال:

«السادة أعضاء هيئة المُحلَّفين، يقف السجين الماثل أمامكم باسم روبين هورنبي مُتهمًا بسرقة طردٍ من الألماس من بضائع جون هورنبي يوم التاسع أو العاشر من شهر مارس. وقد دَفَعَ بأنه غير مُذنب في هذه التُّهمة، ومسئوليتكم هي التحقيق فيما إذا كان مذنبًا أو غير مُذنب وأن تستمعوا إلى الشهادات والأدلة.»

وحين أنهى الكاتب خطابه المُوجَّه إليهم جلس، ثم نظر القاضي المُسن، ذو العينَين الغائرتَين والوجه النحيل والحواجب الرمادية الكثَّة والأنف الغليظ، إلى روبين هورنبي باهتمامٍ لبضع لحظاتٍ من فوق الحد المُذهَّب لنظارته العديمة الإطار. ثم التفت إلى المحامي الأقرب إلى منصَّته وأحنى رأسه قليلًا.

فأحنى المحامي رأسه بدَوره ونهض واقفًا، وللمرة الأولى استطعتُ أن أرى مستشار جلالته السير هيكتور ترامبلر، مُمثل الادِّعاء. لم يكن في مظهره أي شيءٍ لافت للنظر جدًّا — رغم أنه كان ضخم البِنية متورِّد الوجه — باستثناء هيئته التي تُوحي بقلَّة الاعتناء بثيابه. إذ كان رداؤه ينزلق عن أحد كتفَيه، وشعره المُستعار مائل بشكلٍ ملحوظ، ونظارته العديمة الإطار تُهدِّد بأن تسقُط من على أنفه في كل لحظة.

شرع السير ترامبلر يقول بنبرةٍ واضحة وإن كانت نشازًا: «سيادة القاضي، السادة أعضاء هيئة المُحلَّفين، إن القضية التي سأعرضها عليكم اليوم هي قضية نُصادفها كثيرًا جدًّا في هذه القاعة. قضية نرى فيها الثقة غير المحدودة تُقابَل بالخيانة والخديعة، والإحسان الذي لا حصر له بالعقوق والنكران، ونشهد فيها الاستغناء عن حياة الكدِّ الشريف في سبيل حياة الإجرام المُلتوية والمحفوفة بالمخاطر. وقائع القضية باقتضابٍ هي

كما يلي: المدَّعي — كَرهًا، أيها السادة — في هذه القضية هو السيد جون هورنبي، خبير التعدين وتاجر المعادن الثمينة. للسيد هورنبي اثنان من أبناء أخوَيه الأكبر، ويسعني أن أقول إنه كان بمثابة الوالد لهما منذ وفاة والدَيهما. أحد هذَين الاثنين هو السيد والتر هورنبي، والآخر هو روبين هورنبي، المُتهم الماثل أمامكم. ضم السيد هورنبي ابنَي أخويه إلى عمله بغية أن يَخلُفاه عندما يتقاعد، وأنا في غنًى عن قول إن كليهما كان يتقلَّد منصبًا ينطوي على الثقة والمسئولية.

وفي مساء يوم التاسع من شهر مارس، تلقَّى السيد هورنبي طردًا من الألماس الخام، الذي طلب منه أحد عملائه أن يتولَّى مسئوليته ريثما يُنقَل إلى التجَّار. لن أُثقل عليكم بالتفاصيل غير ذات الصِّلة بشأن هذه العملية. يكفي أن أقول إن الألماس، الذي تبلُغ قيمته ما يُقارب ثلاثين ألف جنيه، وصل إليه، وأنه فتح الطرد وأودعه في خزينته، ومعه ورقة كان قد كتب فيها بقلَم رصاص مذكرةً بالملابسات. كان هذا مساء التاسع من شهر مارس كما قلت. وبعد أن أودع السيد هورنبي الطرد في الخزينة أوصدَها، وبُعَيد ذلك غادر المبنى وذهب إلى المنزل، ومعه المفاتيح.

وفي الصباح التالي حين فتح الخزينة، أدرك باستغرابٍ وهلع أن الطرد كان قد اختفى. أما الورقة فكانت في قعْر الخزينة، ولَّما أمسكها السيد هورنبي لاحظ أنها تحمِل لطخةً من دم، إضافةً إلى ذلك، بصمة إبهام بشَري واضحة. عندئذٍ أغلق الخزينة وأرسل مذكرةً إلى قسم الشرطة، واستجابةً لمُذكرته جاء ضابط حاد الذكاء — وهو المُفتِّش ساندرسون — وأجرى استعراضًا أوَّليًّا. لستُ في حاجة لأن أقصَّ عليكم المزيد؛ لأن التفاصيل ستتضح مع الشهادات، لكني في واقع الأمر سأخبركم أنه قد تبيَّن بما لا يدع أي مجالٍ للشك أن البصمة على الورقة هي بصمة السجين روبين هورنبي.»

سكت ليُعَدِّل نظارته التي كانت على وشك أن تسقُط من على أنفه، وشمَّر رداءه بينما كان يُطالع هيئة المُحلَّفين على مَهَل، وكأنه كان يُقَيِّم مدى تأثُّرهم وانفعالهم. في تلك اللحظة استرعاني دخول والتر هورنبي إلى القاعة وجلوسه عند طرف مقعدنا بالقُرب من الباب، وبعده مباشرةً جاء المُفتِّش ميلر رئيس الشرطة وجلس في أحد المقاعد المقابلة.

قال السير هيكتور ترامبلر: «الشاهد الأول الذي سأستدعيه هو جون هورنبي.»

تقدَّم السيد هورنبي، باديَ الاضطراب والانفعال، إلى منصة الشهود، وبعد أن سلَّمه مشرف القاعة الكتاب المقدَّس، صاح ينادي:

«الشهادة التي ستدلي بها إلى المحكمة وهيئة المحلَّفين تحت القَسَم، بين صاحب الجلالة مولانا الملك والمُتهم الماثل هي الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء سواها؛ فليُعِنك الرب!»

قَبَّلَ السيد هورنبي الكتاب المقدس، ورمق ابن أخيه بنظرة بؤسٍ لا يُوصَف واستدار نحو مُمثل الادعاء.

سأله السير هيكتور: «اسمك هو السيد جون هورنبي، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«وتَشْغَل بنايةً في شارع سانت ماري آكس؟»

«أجل. أنا تاجر معادن ثمينة، لكن عملي يتمثَّل بشكل أساسي في تحليل عينات الرِّكاز والكوارتز وسبائك الفضة والذهب.»

«هل تذكُر ما وقع يوم التاسع من شهر مارس الماضي؟»

«بكل دقة. وَصَّلَ لي ابن أخي روبين — السجين — طردًا من الألماس كان قد تسلَّمه من المسئول المالي لـ «إلمينا كاسل»، وكنتُ قد أرسلتُ له روبين مُمثلًا خصوصيًّا لي. وكنت قد انتويتُ إيداع الألماس مع المصرفيِّ الذي أتعامل معه، لكن حين وصل السجين إلى مكتبي، كانت المصارف قد أغلقت أبوابها بالفعل؛ لذا تعيَّن أن أضع الطرد في خزينتي لتلك الليلة فقط. وأود أن أقول إن السجين لم يكن مسئولًا بأي شكلٍ من الأشكال عن التأخير في التوصيل.»

قال السير هيكتور: «أنت لستَ هنا لتدافع عن السجين. من فضلك، أجب على أسئلتي ولا تزِد أي تعليق. هل كان هناك أحد حاضر حين وضعتَ الألماس في الخزينة؟»

«لم يكن هناك أحد حاضر سواي.»

فقال السير هيكتور: «لم أسألك إن كنتَ حاضرًا حين وضعتَ الألماس في الخزينة» (هنا قهقه الحضور وضحك القاضي برحابة صدر). «ماذا فعلتَ غير ذلك؟»

«كتبتُ بالقلَم الرصاص على ورقةٍ من مفكرتي «سلَّمه روبين في الساعة ٧:٣٠ مساءً، ٩ / ٣ / ١٩٠١»، ووقَّعتُ بأحرفي الأولى. ثم قطعتُ الورقة من المفكرة ووضعتها على الطرد، وبعدها أوصدتُ الخزينة.»

«ومتى غادرتَ البناية بعد هذا؟»

«على الفور تقريبًا. كان السجين ينتظرني في المكتب الخارجي ...»

«لا يُهِم أين كان السجين؛ اجعل إجاباتك منحصرةً بأسئلتي. هل أخذت المفاتيح معك؟»

«نعم.»

«ومتى فتحتَ الخزينة بعد ذلك؟»

«صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة.»

«أكانت الخزينة موصدةً أم مفتوحة حين وصلت؟»

«كانت موصدة. وفتحتها أنا.»

«هل لاحظتَ أي شيءٍ غير معهود بشأن الخزينة؟»

«كلَّا.»

«هل فارقتك المفاتيح في تلك المدة الزمنية الفاصلة؟»

«كلَّا. كانت المفاتيح في سلسلةٍ أرتديها دائمًا.»

«هل هناك أي نُسَخ من تلك المفاتيح؟ أقصد مفاتيح الخزينة.»

«كلَّا، لا توجَد أي نُسَخ.»

«هل خرجت المفاتيح من حوزتك من قبل؟»

«نعم. كان من عادتي إن كنتُ سأغيب عن الشركة لوقتٍ طويل أن أُسلِّمها لأحد ابنَي أخوي، أيهما كان المسئول في ذلك الوقت.»

«ولم تُعطها قَطُّ لأي شخصٍ آخر؟»

«لم أعطها قَط لأي شخصٍ آخر.»

«ماذا لاحظتَ حين فتحت الخزينة؟»

«لاحظتُ أنَّ طرد الألماس قد اختفى.»

«هل لاحظتَ أي شيءٍ آخر؟»

«نعم. وجدتُ الورقة المأخوذة من مُفكرتي ملقاةً في قعر الخزينة. فالتقطتُها وقلبتُها، وحينها رأيت أن هناك لطخات دمٍ عليها وما بدا أنه بصمة إبهام دامية. كانت البصمة على الجهة الخلفية من الورقة بينما الورقة مُلقاة على أرضية الخزينة.»

«وماذا فعلتَ بعد ذلك؟»

«أغلقتُ الخزينة وأوصدتها، وأرسلتُ مذكرةً إلى قسم الشرطة أقول فيها إن سرقةً وقعت في منشأتي.»

«أنت تعرف السجين منذ سنواتٍ عديدة حسبما أعتقد، صحيح؟»

«صحيح؛ عرفته طوال حياته. فهو ابن أخي الأكبر.»

«إذن يمكنك أن تُخبرنا، من دون شك، إن كان أعسر أم أيمن؟»

«أقول إنه قادر على استخدام كِلتا يدَيه، لكنه يميل لاستخدام يده اليُسرى.»

«هذا تمييز جيد يا سيد هورنبي؛ تمييز وجيه. والآن أخبرني، هل تأكَّدت بما لا يدع مجالًا للشك أن الألماس قد سُرِقَ حقًّا؟»

«نعم؛ فقد فتشت الخزينة بدقة، بنفسي أولًا ثم مع الشرطة. لم يكن هناك شك أن الألماس كان بلا شك قد اختفى.»

«وحين أشار المُحقِّق إلى أنك ينبغي أن تحصل على بصمات إبهام ابنَي أخويك، هل رفضت؟»

«نعم رفضت.»

«ولماذا رفضت؟»

«لأنني لم أرغب في أن أُعرِّض ابنَي أخويَّ إلى مثل هذه الإهانة. علاوةً على ذلك، لم تكن لديَّ السلطة لإجبارهم على الخضوع لذلك الإجراء.»

«هل كان لدَيك أي شكوك تجاه أي منهما؟»

«لم يكن لديَّ شكوك تجاه أي أحد.»

قال هيكتور، وهو يُقدِّم له ورقةً صغيرةً مُستطيلة الشكل: «فضلًا افحص هذه الورقة يا سيد هورنبي، وأخبرنا إن كنت تعرفها.»

نظر السيد هورنبي إلى الورقة لحظة، ثم قال:

«هذه هي الورقة من المُفكِّرة والتي وجدتُها في قعر الخزينة.»

«كيف تعرفتَ إليها؟»

«من الكتابة التي عليها؛ فهي بخطِّ يدي، وهي تحمل الحروف الأولى من اسمي.»

«هل هي الورقة التي وضعتَها على طرد الألماس؟»

«نعم.»

«هل كان هناك أي بصمة إبهامٍ أو بقعة دم عليها حين وضعتَها في الخزينة؟»

«كلَّا.»

«هل كان من المُحتمَل أن يكون عليها أي من هذه العلامات؟»

«هذا مستحيل. فقد نزعتُها من مفكرتي وقت أن كتبتُ عليها.»

«حسنًا.» ثم جلس السير هيكتور ترامبلر، ونهض السيد أنستي ليستجوب الشاهد. فقال: «لقد أخبرتنا، يا سيد هورنبي، أنك عرفتَ المُتهم طوال حياته. ما تقديرك لشخصيته؟»

«دائمًا ما أعتبره شابًّا ذا أخلاق عالية؛ فهو شريف، وصادق وجدير بالثقة في كل الأحوال. ولم أُجرِّب عليه قط، طوال معرفتي به، انحرافًا قيد أنملة عن الشرف والنزاهة.»

«لقد اعتبرتَه إذن رجلًا لا تشوبه شائبة. أهذا صحيح؟»

«هذا صحيح؛ ورأيي فيه لم يتغيَّر.»

«هل لدَيه، على حدِّ علمك، أي عادات تبذير أو إنفاق فاحش؟»

«كلا. بل هو بسيط ويميل إلى الاقتصاد.»

«هل عرفتَ عنه يومًا أنه يُقامر أو يراهن؟»

«مطلقًا.»

«هل بدا من قبلُ في حاجة للمال؟»

«كلَّا. فلَه مصدر دخل صغير، منفصل عن راتبه، وأعرف أنه لا يُنفق منه شيئًا لأنني كنتُ أحيانًا ما أكلِّف الوسيط الخاص بي أن يستثمر مُدخراته.»

«بمنأًى عن بصمة الإبهام التي وُجِدت في الخزينة، هل هناك أي ملابسات يمكن أن تؤدِّي بك إلى أن تشكَّ أن المُتهم سرق الألماس؟»

«على الإطلاق.»

جلس السيد أنستي، وبينما كان السيد هورنبي ينهض عن منصة الشهود وهو يمسح العرَق عن جبهته، نودي على الشاهد التالي.

«المفتش ساندرسون!»

تقدَّم ضابط الشرطة الأنيق في نشاطٍ إلى منصة الشهود، وبعد أن أدَّى اليمين كما يلزم، توجَّه إلى مُمثِّل الادعاء بأسلوب رجلٍ مُستعدٍّ لأي احتمال أو طارئ.

وقال السير هيكتور، بعد أن انتهى من المُقدمات المعتادة: «هل تذكر ما حدث صبيحة العاشر من شهر مارس؟»

«نعم. استلمت رسالةً في قسم الشرطة في العاشرة وثلاثٍ وعشرين دقيقة. كانت من السيد جون هورنبي، ونَصَّت على أن سرقةً وقعت في منشأته في شارع سانت ماري آكس. فذهبتُ إلى المنشأة ووصلتُ هناك في العاشرة وإحدى وثلاثين دقيقة. رأيتُ هناك المدَّعي، السيد جون هورنبي، الذي أخبرَني أن طردًا من الألماس سُرِق من الخزينة. وبطلبٍ منه فحصتُ الخزينة. لم يكن بها أي علاماتٍ على أنها فُتِحَت عَنوة؛ وبدا أن الأقفال لم تتضرَّر وفي حالةٍ جيدة. وبداخل الخزينة، على قعرِها، وجدتُ قطرتَين من الدماء حجمُهما كبير، وورقةً عليها كتابة بقلَم رصاص. كانت الورقة تحمِل بقعتَي دم، وبصمةً دامية لإبهامٍ بشري.»

سأله مُمثِّل الادعاء وهو يُمرِّر للشاهد ورقةً صغيرة: «أهذه هي الورقة؟»

فأجاب المُفتش بعد أن نظر إليها نظرةً سريعة: «نعم.»

«وماذا فعلت بعد ذلك؟»

«أرسلتُ رسالةً إلى سكوتلانديارد أُطلِع فيها رئيس قسم التحقيقات الجنائية بالوقائع، ثم عدتُ إلى القسم. ولم يعُد لي من بعدِها علاقة بالقضية.»

جلس السير هيكتور، ونظر القاضي إلى أنستي.

فقال الأخير وهو ينهض: «أخبرتنا أنك لاحظتَ وجود قطرتَين من الدماء على أرضية الخزينة. هل لاحظتَ حالة الدم، أكان رطبًا أم جافًّا؟»

«بدا الدم رطبًا، لكنني لم أمسسه. تركتُه على حالِه ليفحصه المُحقِّقون.»

كان الشاهد التالي الذي نُوديَ عليه هو الرقيب بيتس، من قسم التحقيقات الجنائية. تقدَّم إلى منصة الشهود بالمظهر الجاد والعملي نفسه كالضابط الآخر، وبعد أن أدلى بالقَسَم، شرع يُدلي بشهادته بطلاقةٍ توحي بأنه استعدَّ استعدادًا جيدًا، فكان يُمسِك بمُفكِّرة في يدِه لكنه لم يستعِن بها.

قال: «يوم العاشر من شهر مارس وفي الساعة ١٢:٠٨ مساءً، تسلَّمت تعليماتٍ بالذهاب إلى شارع سانت ماري آكس للتحقيق في جريمة سرقةٍ وقعت هناك. وتسلَّمتُ تقرير المفتش ساندرسون وقرأته في عربة الأجرة وأنا في طريقي إلى المكان. ولمَّا وصلتُ إلى البناية في الثانية عشرة والنصف، فحصتُ الخزينة فحصًا دقيقًا. لم يكن بها أي أضرار، ولم يكن عليها أي علامات من أي نوع. واختبرتُ أقفالها ووجدتها سليمةً ومُحكمة؛ فلم يكن هناك أي علاماتٍ على استخدام أداة لفتح الأقفال أو كسرها. وفي قعر الخزينة من الداخل وجدتُ قطرتَين كبيرتَين من سائلٍ داكن. أخذت بعض هذا السائل على قطعةٍ من الورق وتبيَّن لي أنه دم. كما وجدت أيضًا في قعر الخزينة رأس عود ثقاب شمعيًّا مُحترقًا، وبعد أن فحصتُ أرضية المكتب، وجدت بالقُرب من الخزينة عود ثقاب شمعيًّا مُستخدَمًا كان رأسه قد سقط عنه. ووجدتُ أيضًا قصاصة ورقٍ يبدو أنها مُزِّقَت من دفتر مذكِّرات مُثَقَّب. وكُتِب عليها: «سلَّمه روبين في الساعة ٧:٣٠ مساءً، ٩/٣/١٩٠١. ج. هـ.» وكان ثمة بقعتان من الدم على الورقة وبصمة إبهام إنسان بالدم. فأخذتُ الورقة في حيازتي من أجل أن يفحصها الخبراء. وفحصت أبواب المكتب والباب الخارجي للمنشأة، لكنني لم أجد أي علامةٍ على الدخول عَنوةً على أيٍّ منها. كما استجوبت مسئول الإشراف الداخلي، لكني لم أحصل منه على أي معلومة. عدت بعد ذلك إلى المَقرِّ الرئيسي، وكتبتُ تقريري وسلَّمتُه والورقة ذات العلامات إلى رئيس الشرطة.»

فسأله مُمثل الادِّعاء، وهو يُمرِّر الورقة مرةً أخرى: «أهذه هي الورقة التي وجدتَها في الخزينة؟»

«نعم؛ هذه هي الورقة.»

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«بعد ظهيرة اليوم التالي استدعاني السيد سينجلتون، من قسم البصمات. أخبرَني أنه طالَع الملفَّات ولم يستطع أن يجد أي بصمة إبهام تُطابق البصمة التي على الورقة، وأوصى أن أسعى للحصول على بصمات إبهام أي شخصٍ يمكن أن يكون له صِلة بهذه السرقة. كما أعطاني أيضًا صورةً فوتوغرافية مكبَّرة للبصمة للرجوع إليها إذا ما اقتضت الحاجة. ثمَّ ذهبتُ إلى شارع سانت ماري آكس وقابلتُ السيد هورنبي، وحينها طلبتُ منه أن يسمح لي بأخذ بصمات إبهام كلِّ الأشخاص العامِلين في المنشأة، بما في ذلك ابنَي أخويه. وقد رفض هذا، قائلًا إنه لا يثِق بالبصمات وإنه لا توجَد شكوك حول أي أحدٍ من العامِلين في المنشاة. فسألته إن كان سيسمح أن آخُذ بصمات إبهام ابنَي أخوَيه على انفرادٍ وبصورة سرية، وأجابني على ذلك بقوله: «كلَّا بالطبع».»

«هل كان لديك وقتئذٍ أي شكوكٍ تجاه أيٍّ منهما؟»

«ارتأيت أن بعض الشكوك تحوم حولهما. إذ لا شك في أن الخزينة فُتحت بمفاتيح منسوخة، وحيث إن كليهما كان بحوزته المفاتيح الأصلية، فمِن الممكن أن يكون أحدهما قد أخذ طبعة المفاتيح على شمعٍ وصنع منها نسخةً مقلَّدة.»

«أكمل.»

«زرت السيد هورنبي عدة مرات وحثثتُه على أن يوافِق على أخذ البصمات وذلك لصالح سمعة ابنَي أخوَيه؛ لكنه رفض بشدَّة ومنعهما من الخضوع لهذا الإجراء، رغم أني عرفتُ أنهما كانا موافقَين ومُستعدَّين لذلك. ثم خطر ببالي أن أُجرِّب إن كنتُ أستطيع الحصول على مساعدةٍ من السيدة هورنبي، وفي يوم الخامس عشر من شهر مارس، عرجتُ على منزل السيد هورنبي وزرتُ زوجته. وشرحت لها ما هو مطلوب لتبرئة ساحة ابنَي أخوي زوجها من الشكوك التي تحوم حولهما، وحينها قالت لي إن بإمكانها تبديد هذه الشكوك على الفور؛ لأنها تستطيع أن تُريني بصمات إبهام العائلة بأسرها؛ إذ كانت كل البصمات معها في سجلِّ بصمات إبهام.»

فكرَّر القاضي مُستفسرًا: «سجلُّ بصمات الإبهام؟ ما سجلُّ بصمات الإبهام؟»

فنهض أنستي وهو يُمسك بالمجلد الصغير ذي الغلاف الأحمر.

وقال: «سجل بصمات الإبهام، سيادتكم، هو مجلد كهذا، يجمع فيه الحمقى من الناس بصمات إبهام معارفهم الأكثر حمقًا منهم.»

ثم مرَّر المجلد إلى القاضي الذي أخذ يقلِّب صفحاته في فضولٍ ثم أومأ إلى الشاهد.

«أكمل. قالت إنها تملك كل البصمات في سجلٍّ بصمات إبهام.»

«حينها أخرجَت لي من أحد الأدراج مجلدًا صغيرًا ذا غلاف أحمر. كان يحوي كل بصمات إبهام العائلة وبعض أصدقائها.»

فسأله القاضي، وهو يُمرِّر المجلَّد للشاهد: «أهذا هو المجلَّد؟»

أخذ الرقيب يُقلِّب صفحات المجلد حتى أتى إلى إحدى البصمات التي تعرَّف إليها وقال:

«نعم يا سيدي؛ هذا هو المجلد. أرتني السيدة هورنبي بصمات عديدٍ من أفراد العائلة، ووجدتُ بصمات ابنَي أخوي زوجها. فقارنتُهما بالصورة الفوتوغرافية التي كانت معي واكتشفت أن بصمة الإبهام اليُسرى لروبين هورنبي مطابقة من جميع النواحي للبصمة التي في الصورة الفوتوغرافية.»

«وماذا فعلتَ حينها؟»

«طلبتُ من السيدة هورنبي أن تُعيرني السجلَّ حتى أعرِضه على رئيس قسم البصمات، وقد وافقَت على ذلك. ولم يكن في نيَّتي أن أخبرها بما اكتشفته، لكن السيد هورنبي وصل إلى المنزل أثناء مغادرتي، وحين عرف بما حدث، سألني عن سبب حاجتي للسجل، وحينها أخبرته. وقد اندهش لذلك وهاله الأمر، ورجاني أن أعيد المجلَّد على الفور. وعرض أن يعتبر المسألة مُنتهيةً وأن يتحمَّل خسارة الألماس بنفسه؛ لكنني بيَّنتُ له أن هذا مستحيل؛ لأن هذا يُعَد تستُّرًا على جريمة. ولما رأيت السيدة هورنبي جزعةً من فكرة أن المجلَّد سيُستخدَم دليلًا ضد ابن أخي زوجها، وعدتُها أنني سأُعيده إليها إن كان باستطاعتي الحصول على بصمة إبهام بأي طريقةٍ أخرى.

بعد ذلك أخذتُ السجل إلى سكوتلانديارد وعرضتُه على السيد سينجلتون، الذي وافقني على أن بصمة الإبهام اليسرى لروبين هورنبي تتطابق من جميع النواحي مع بصمة الإبهام على الورقة التي وُجِدت في الخزينة. ولدى هذا طلبتُ استصدار مذكِّرة لضبط روبين هورنبي، ونفذتُها صباح اليوم التالي. وأخبرتُ المُتهم ما وعدتُ به السيدة هورنبي، وحينها عَرَضَ عليَّ أن آخُذ بصمة إبهامه اليسرى حتى لا يُستخدَم مجلَّد زوجة عمِّه دليلًا.»

فسأل القاضي: «كيف، إذن، ضُمَّ السجل إلى الأدلة؟»

فقال السيد هيكتور ترامبلر: «ضمَّته هيئة الدفاع يا سيدي.»

فقال القاضي: «فهمت. «كأس يُذهِب السكرة.» سيتم ضمُّ «السجل» باعتباره وسيلةً للدفاع على أساس مبدأ «الدواء من جنس الداء». ماذا بعد؟»

«حين قبضتُ عليه، تَلَوْتُ عليه التنبيه المعتاد، وحينها قال السجين: «أنا بريء. لا أعرف شيئًا عن السرقة».»

جلس مُمثل الادعاء، ونهض أنستي ليستجوِب الشاهد.

قال بصوته الصافي الرنَّان: «أخبرتنا أنك وجدتَ في أرضية الخزينة قطرتَين كبيرتَين من سائل داكن اعتبرتَ أنه دم. ما الذي أدَّى بك إلى الاعتقاد بأن هذا السائل دم؟»

«أخذتُ بعضه على قطعةٍ من ورقة بيضاء، وكان له مظهر ولون الدم.»

«هل فُحِص تحت المجهر أو بغير ذلك من الأدوات؟»

«لا، على حدِّ علمي.»

«هل كان مائعًا؟»

«نعم، كان مائعًا.»

«كيف بدا شكلُه على الورقة؟»

«بدا كسائلٍ أحمر صافٍ له لون الدم، وكان ثخينًا ودبقًا.»

جلس أنستي واستُدعِي الشاهد التالي، وهو رجل مُسن اسمه فرانسيس سيمونز.

سأله السير هيكتور ترامبلر: «هل أنت مسئول الإشراف الداخلي في منشأة السيد هورنبي في شارع سانت ماري آكس؟»

«صحيح.»

«هل لاحظتَ أي شيءٍ غير معتاد مساء التاسع من مارس؟»

«لم ألاحظ شيئًا غريبًا.»

«وهل أدَّيتَ جولاتك المعتادة في ذلك المساء؟»

«نعم. تجوَّلت في جميع أنحاء البناية عدة مرات أثناء الليل، وبقية الوقت كنتُ في غرفة فوق المكتب الخاص.»

«مَن كان أول من وصل صباح يوم العاشر من الشهر؟»

«السيد روبين. وصل قبل أي أحدٍ بعشرين دقيقة تقريبًا.»

«إلى أي جزءٍ من المبنى توجَّه؟»

«دخل إلى المكتب الخاص بعد أن فتحتُه له. وظلَّ فيه حتى قُبيل وصول السيد هورنبي بدقائق قليلة، حينها صعد إلى المعمل.»

«ومن أتى بعده؟»

«السيد هورنبي، وجاء السيد والتر بعدَه مباشرة.»

جلس مُمثل الادعاء، وشرع أنستي في استجواب الشاهد.

«من كان آخِر من غادر مساء التاسع من شهر مارس؟»

«لست متأكدًا.»

«لماذا لستَ متأكدًا؟»

«كان عليَّ أن آخُذ رسالةً وطردًا وأسلِّمهما إلى شركة في منطقة شورديتش. وحين انطلقت، كان هناك موظف اسمه توماس هولكر في المكتب الخارجي، وكان السيد والتر هورنبي في المكتب الخاص. وحين عدتُ كانا قد غادرا.»

«هل كان الباب الخارجي موصدًا؟»

«نعم.»

«هل كان هولكر يملك مفتاحًا للباب الخارجي؟»

«كلَّا. السيد والتر وابنا أخويه يملك كلٌّ منهم مفتاحًا، وأنا أملك مفتاحًا. لا يملك أحد آخر مفتاحًا لهذا الباب.»

«كم من الوقت كنت غائبًا؟»

«نحو ثلاثة أرباع الساعة.»

«ومن أعطاك الرسالة والطرد؟»

«السيد والتر هورنبي.»

«متى أعطاهما لك؟»

«قبل أن أغادر مباشرة، وأخبرني أن أذهب من فوري خشية أن يُغلَق المكان قبل أن أصِل إلى هناك.»

«وهل وجدتَ المكان مغلقًا؟»

«نعم. كان مغلقًا بالكامل، وكان الجميع قد رحلوا.»

عاود أنستي الجلوس، وخرج الشاهد من المنصَّة وقد بدا عليه الارتياح، ونادى مشرف القاعة: «هنري جيمس سينجلتون.»

نهض السيد سينجلتون من مقعده على الطاولة المجاورة لمحامي الادعاء وتقدم إلى المنصة. عدَّل السير هيكتور نظارته، وقلب صفحةً من الموجز الذي بين يدَيه، وألقى نظرةً حازمةً وقويةً على هيئة المُحلَّفين.

وقال أخيرًا: «أعتقد، يا سيد سينجلتون، أنك على صِلةٍ بقسم البصمات في سكوتلانديارد، أليس كذلك؟»

«بلى. أنا أحد كبار المُساعدين في هذا القسم.»

«ما مهامُّك الرسمية؟»

«تتمثَّل وظيفتي الأساسية في فحص ومقارنة بصمات المُجرمين والمُشتبه بهم. أُصَنِّف هذه البصمات طبقًا لسماتها وأُقيِّدها في ملفاتٍ من أجل الرجوع إليها.»

«أفترض أنك فحصتَ عددًا كبيرًا من البصمات، أليس كذلك؟»

«فحصتُ عدة آلاف من البصمات، ودرستُها لأغراض تحديد الهُوية.»

«فضلًا استعرِض هذه الورقة يا سيد سينجلتون» (وهنا سُلِّمَت الورقة الحاسمة من قِبل مشرف القاعة)، «هل رأيتها من قبل؟»

«نعم. تسلمتُها لفحصها في مكتبي يوم العاشر من شهر مارس.»

«ثمة علامة عليها؛ بصمة إصبع أو إبهام. هل يمكنك أن تُخبرنا أي شيءٍ عن تلك العلامة؟»

«هي بصمة الإبهام اليسرى لروبين هورنبي، المحبوس في قفص الاتهام.»

«هل أنت واثق تمامًا من هذا؟»

«أنا واثق تمامًا.»

«هل تُقسِم بأن العلامة على الورقة تعود لإبهام المتهم؟»

«أُقسم على ذلك.»

«ألَا يمكن أن يكون إبهام شخصٍ آخر؟»

«لا يمكن؛ من المُستحيل أن تكون بصمة شخصٍ آخر.»

حينها شعرتُ بجولييت تضع يدَها المُرتجفة على يدي، ولَمَّا نظرتُ إليها، وجدتُها شاحبةً كالموتى. أخذتُ يدَها في يدي، وضغطت عليها برفق وهمست: «تحلَّي بالشجاعة؛ هذا متوقع.»

فهمست بابتسامة خافتة: «شكرًا لك؛ سأحاول؛ لكن الأمر برمَّته مُوهِن للأعصاب للغاية.»

أكمل السير هيكتور: «أتعتبِر أن هُوية صاحب هذه البصمة لا تقبل الشك؟»

فأجابه: «لا تقبل الشك بأي شكل.»

«هل يمكنك أن تشرح لنا، من دون التعمُّق في تفاصيل فنِّية، كيف وصلتَ إلى هذه القناعة التامة؟»

«أخذتُ بنفسي بصمةً من إبهام المُتهم — بعد أن حصلت على موافقته وبعد تحذيره من أن البصمة ستُستخدَم دليلًا ضده — وقارنتُ تلك البصمة مع العلامة التي على الورقة. وقد أجريت هذه المقارنة بدقة بالِغة وبأكثر الطرُق المُعتمَدة، نقطةً نقطة وتفصيلةً تفصيلة، ووجدتُ أن البصمتَين مُتطابقتان من كل الجوانب.

لقد ثبت بحسابات دقيقة — تحقَّقت منها بنفسي — أن احتمال أن تتطابق بصمة إصبع شخصٍ ما مع بصمة الإصبع نفسه لشخصٍ آخر يبلغ واحد إلى أربعة وستين ألف مليون. هذا يعني أنه بما أن عدد بصمات البشر حول العالم يبلُغ حوالي ستة عشر ألف مليون، فإن احتمال أن تكون بصمة إصبع واحد لأي شخص مطابقةً تمامًا لبصمة إصبع أي عضو آخر من الجنس البشري هو واحد إلى أربعة.

وقد قال اختصاصيون كُثُر وذوو مرجعية كبيرة — وأنا أتفق مع قولهم — أن تطابقًا تامًّا أو شبه تام بين بصمتين للإصبع نفسه يُعتبر دليلًا كافيًا لا يحتاج إلى تأييد على أنهما تعودان إلى الشخص نفسه.

تنطبق هذه الحسابات والتقديرات على بصمات الإصبع أو الإبهام العادية والطبيعية. لكن الإبهام التي أُخِذَت منها هذه البصمات ليست إبهامًا عاديةً أو طبيعية. فثمة ندبة خطية ملساء وعميقة عليه — ندبة ناتجة عن قطع قديم فيه — وتمر هذه الندبة عبر نمَط النتوءات، فتتقاطع معها في مواطن وتقطع اتصالها في مواطن أخرى. وهذه الندبة المميَّزة للغاية تُمثِّل سِمةً إضافية، ولها طائفة الاحتمالات الخاصة بها. لذا يتعيَّن علينا أن نضع في اعتبارنا ليس فقط احتمال أن تكون بصمة الإبهام اليُسرى للمتهم متطابقةً مع بصمة الإبهام اليسرى لشخص آخر — والذي يبلغ واحدًا إلى أربعة وستين ألف مليون — ولكن أيضًا احتمال إضافي وهو أن ثمة ندبةً متطابقة في الحجم والمظهر تتخلَّل هذه البصمة وتتقاطع مع نتوءاتها في المواطن نفسها وتقطع اتصالها واستمراريتها بنفس بالكيفية والشكل. لكن حاصل ضرب هذين الاحتمالين يُنتِج احتمالًا نهائيًّا يبلغ حوالي واحدًا إلى أربعة آلاف تريليون أن تكون إبهام المُتهم اليُسرى تطابق بصمة إبهام شخص آخر فيما يتعلَّق بالنمط والندبة التي تقطعه؛ بعبارة أخرى، هذه المصادفة مستحيلة تمامًا.»

خلع السير هيكتور ترامبلر نظارته ونظر طويلًا وبثباتٍ إلى هيئة المُحلَّفين وكأنه يريد أن يقول: «هيا، يا أصدقائي، ما رأيكم في ذلك؟» ثم جلس فجأة، والتفت ناحية أنستي وثورندايك ونظر لهما نظرةً ظافرة.

تساءل القاضي لَمَّا رأى أن محامي الدفاع لم يبدِ أي إشارة: «هل تريد استجواب الشاهد؟»

وقد ردَّ أنستي: «كلَّا يا سيدي.»

هنا التفت السير هيكتور ترامبلر مرةً أخرى إلى محامي الدفاع، وأشرق وجهه العريض الأحمر بابتسامةٍ تنمُّ عن ارتياح عميق. وقد انعكست هذه الابتسامة على وجه السيد سينجلتون وهو يغادر منصة الشهود، وحين رمقتْ ثورندايك بنظرةٍ سريعة، رأيت لوهلة أن ثمة بسمةً طفيفة للغاية على مُحيَّاه الهادئ والثابت.

«هربرت جون ناش!»

تقدَّم إلى منصة الشهود رجلٌ ممتلئ في منتصف العمر ذو مظهر حاد وجاد، ونهض السير هيكتور مرةً أخرى.

وقال: «أنت أحد كبار المساعدين في قسم البصمات، أصحيح هذا يا سيد ناش؟»

«نعم.»

«هل سمعت شهادة الشاهد الأخير؟»

«نعم، سمعتها.»

«هل تتفق مع التصريح الذي صرَّح به الشاهد؟»

«أتفق معه تمامًا. وأنا على استعداد لأن أقسم إن البصمة التي وُجِدَت على الورقة في الخزينة هي بصمة الإبهام اليسرى للمُتهم روبين هورنبي.»

«هل أنت واثق من أنه لا احتمال لأي خطأ؟»

«أنا واثق أنه لا احتمال لأي خطأ.»

ألقى السير هيكتور مرةً أخرى نظرةً ذات مغزًى على هيئة المُحلَّفين بينما كان يعاود الجلوس، ولم يبدِ أنستي هذه المرة أيضًا أي إشارةٍ سوى أنه دوَّن بضع ملحوظاتٍ على هامش مذكرته.

سأل القاضي، وهو يغمس قلَمه في الحبر: «هل ستستدعي أي شهود آخرين؟»

ردَّ السير هيكتور: «كلَّا يا سيدي. لقد انتهيت.»

هنا نهض أنستي، وقال، مخاطبًا القاضي:

«أريد استدعاء شهود يا سيدي.»

أومأ القاضي ودوَّن شيئًا في ملحوظاته بينما كان أنستي يتلو مقدمته المقتضبة:

«سيادة القاضي، السادة أعضاء هيئة المُحلَّفين، لن أُضيِّع وقت المحكمة في دفاعات غير ضرورية في هذه المرحلة، لكنني سأشرع دونما إبطاء في استجواب شهودي.»

كان هناك توقف للحظة أو نحو ذلك، ولم يكن يكسر الصمت خلاله سوى صوت حفيف الأوراق وصرير قلَم الريشة في يد القاضي. والتفتت إليَّ جولييت بوجهٍ مُمتقع خائف وقالت هامسة:

«هذا أمر مريع. شهادة الرجل الأخير ساحقة. كيف يمكن الرد عليها؟ لقد تملَّك مني اليأس؛ أوه! يا لروبين المسكين! لقد فقدناه يا دكتور جيرفيس! ليس أمامه فرصة الآن.»

فسألتها: «هل تعتقدين أنه مذنب؟»

فردَّت بسخط: «كلَّا بالطبع. أنا مقتنعة ببراءته كأي وقت مضى.»

فقلت لها: «إذن، إن كان بريئًا، فلا بد من وجود وسيلة لإثبات براءته.»

«صحيح.» ثم عاودت تقول هامسةً بنبرة كئيبة: «أظن ذلك. على أي حال، سنعرف ذلك قريبًا.»

حينها جاء صوت مُشرف القاعة ينادي اسم الشاهد الأول لهيئة الدفاع.

«إدموند هورفورد رو!»

دخل إلى منصة الشهود رجل ذو مظهر صارم، له شعر رمادي ووجهه حليق وسوالفه قصيرة، وأقسم اليمين بالصيغة المعروفة.

وقال أنستي مخاطبًا الشاهد: «أنت، على ما أعتقد، طبيب، وتُدَرِّس الطب الشرعي في مستشفى جنوب لندن، صحيح؟»

«صحيح.»

«هل تسنَّت لك فرصة فحص خصائص الدم؟»

«نعم. فخصائص الدم ذات أهمية بالِغة من وجهة النظر القانونية الطبية.»

«هل يمكنك أن تُخبرنا عمَّا يحدث حين تقع قطرة من الدم — من إصبع مجروح مثلًا — على سطح مثل أرضية خزينة حديدية؟»

«قطرة الدم التي تسقط من جسد حي على أي سطحٍ غير ماصٍّ ستتخثَّر في غضون دقائق قليلة لتصبح كالهلام، وسيكون لها نفس حجم ولون الدم السائل.»

«هل ستحدث لها أي تغيُّرات أخرى؟»

«نعم. في غضون بضع دقائق أخرى، سيبدأ الهُلام في التقلُّص ويُصبح أكثر صلابةً بحيث ينفصل الدم إلى قسمَين، قسم صلب وآخر سائل. سيتألف القسم الصلب من هُلام قوي وصلب له لون أحمر داكن، والقسم السائل من سائل صافٍ يُشبه الماء لونه أصفر باهت.»

«وفي النهاية، بعد مرور ساعتَين مثلًا، ماذا ستكون حالة قطرة الدم؟»

«ستتألَّف قطرة الدم من سائل صافٍ عديم اللون تقريبًا، وفي منتصفه ستكون هناك كتلة مُتخثرة حمراء، صغيرة وصلبة.»

«هَب أن هذه القطرة أُخِذت على ورقة بيضاء، كيف سيكون مظهرها؟»

«ستبتلُّ الورقة بالسائل العديم اللون، أما الكتلة المتخثرة فعلى الأرجح ستلتصق بالورقة في شكل كتلةٍ واحدة.»

«هل سيظهر الدم على الورقة في صورة سائل أحمر صافٍ؟»

«قطعًا لا. سيبدو السائل كالماء، وستبدو الكتلة المتخثرة ككتلةٍ صلبة ملتصقة بالورقة.»

«هل يتصرَّف الدم دومًا بالطريقة التي وصفتها؟»

«دومًا؛ إلا إذا اتُّخِذَت إجراءات مفتعلة لمنعه من التخثُّر.»

«بأي طريقة يمكن منع الدم من التخثُّر أو التصلُّب؟»

«ثمة طريقتان رئيستان. الأولى هي تحريك أو خفق الدم الطازج بسرعة باستخدام قضبان دقيقة. حينها يلتصق الفبرين — أي البروتين الليفي الدموي وهو العنصر المسئول عن تخثُّر الدم — بالقضبان، ويظل الدم المُتبقي سائلًا لوقتٍ طويل جدًّا، ولا يتغيَّر مظهره. أما الطريقة الأخرى فهي إذابة قدْر مُعين من أحد الأملاح القلوية في الدم، بعدها لا يعود لدى الدم أي مَيل إلى التخثُّر.»

«هل سمعت شهادة المُفتش ساندرسون والرقيب بيتس؟»

«نعم.»

«أخبرَنا المفتش ساندرسون أنه فحص الخزينة في الساعة ١٠:٣١ صباحًا، ووجد قطرتَين كبيرتَين من الدم على أرضيتها. وأخبرنا الرقيب بيتس أنه فحص الخزينة بعد ذلك بساعتَين، وأنه أخذ إحدى قطرتي الدم على ورقة بيضاء. حينها كان الدم سائلًا، وعلى الورقة، بدا الدم بمظهر سائلٍ صافٍ له لون أحمر كلون الدم. في رأيك، ما الحالة والطبيعة التي كان عليها ذلك الدم؟»

«أرى أنه إن كان دمًا أصلًا؛ فقد كان دمًا منزوع الفبرين — أي إنه قد جرى إزالة الفبرين منه عن طريق الخفق — أو إنه أُضيف إليه ملحٍ قلوي.»

«هل من رأيك أن الدم الذي وُجِد في الخزينة لا يمكن أن يكون دمًا عاديًّا جاء من جرح أو قطع؟»

«أنا واثق من أنه لم يكن من المُمكن أن يكون كذلك.»

«والآن يا دكتور رو، سأطرح عليك بضعة أسئلة عن أمرٍ آخر. هل أوليتَ أي اهتمامٍ للبصمات التي تُصنَع بأصابع مُخَضَّبة بالدم؟»

«نعم. لقد أجريتُ مؤخرًا بعض التجارب على هذا الموضوع.»

«هلَّا شاركتنا نتائج هذه التجارب؟»

«كان هدفي من هذه التجارب التحقُّق مما إن كانت الأصابع المبللة بالدماء الطازجة يمكن أن تُخلِّف بصماتٍ مميَّزة وواضحة المعالم. أجريتُ عددًا كبيرًا من المحاولات، ووجدت أن هناك صعوبةً شديدة في الحصول على بصمة واضحة حين تكون الأصابع مبللة بدم طازج. النتيجة المُعتادة هي مجرد بقعة حمراء لا تُظهر أي نتوء؛ وذلك لأن الدم يملأ الأخاديد التي بين النتوءات. لكن إن تُرك الدم ليجفَّ على الإصبع تمامًا، يمكن الحصول على بصمة واضحة.»

«هل من الممكن تحديد هُوية بصمة صُنعت بإصبع شِبه جافٍّ تقريبًا؟»

«نعم؛ بسهولة. فالدم شِبه الجاف يكون شبه متخثِّر، ويلتصق بالورقة بشكل مختلف عن التصاق السائل بها، فيُظهِر تفاصيل دقيقة، مثل فُوَّهات الغدد العرقية التي دائمًا ما يطمسها السائل.»

«انظر بإمعان إلى هذه الورقة، التي عُثِرَ عليها في الخزينة، ثم أخبِرني ما ترى.»

أخذ الشاهد الورقة وفحصها بإمعانٍ بعينه المجردة في البداية ثم بعد ذلك بعدسة جيب.

وقال: «أرى علامتَين داميتَين وبصمة، على ما يبدو أنها لإبهام. إحدى العلامتَين تُمثِّل لطخةً مطموسة قليلًا بإصبع أو بإبهام؛ أما الثانية فهي مجرد بقعة. ومن الواضح أن مصدرهما دم سائل. بصمة الإبهام صُنعت أيضًا بدم سائل.»

«هل أنت واثق من أن بصمة الإبهام صُنعت بدم سائل؟»

«واثق تمامًا.»

«هل هناك أي شيءٍ غير عادي بشأن بصمة الإبهام؟»

«نعم. إنها واضحة ومميَّزة على نحو غير عادي. لقد أجريت العديد من المحاولات وسعيتُ جاهدًا للحصول على أوضح البصمات الممكنة باستخدام دماء طازجة؛ لكنَّ أيًّا من محاولاتي لا تقارب هذه البصمة في وضوحها.»

وهنا أخرج الشاهد عددًا من الأوراق، كلٌّ منها مُغطًّى ببصمات أصابع دامية، وقارَنَها بالورقة المنزوعة من المفكِّرة.

سُلِّمت الأوراق إلى القاضي لفحصها، وجلس أنستي، وحينها نهض السير هيكتور ترامبلر ليستجوِب الشاهد وقد علت وَجْهَه أماراتُ الحيرة.

«أنت تقول إن الدم الذي وُجِد في الخزينة كان منزوع الفبرين أو جرت معالجته صناعيًّا. ما الذي تستنتجه من هذه الحقيقة؟»

«أستنتج أن مصدره لم يكن جرحًا داميًا.»

«هل لديك أدنى فكرة عن كيفية وصول هذا الدم إلى داخل الخزينة؟»

«ليس لديَّ أي فكرة على الإطلاق.»

«قلتَ إن بصمة الإبهام مميزة تميزًا غير عادي. فما الذي تستنتجه من هذا؟»

«لا أستنتج أي شيء. إذ لا يمكنني تفسير سبب تميزها على الإطلاق.»

جلس مُمثل الادعاء المُحنَّك وهو مُتحير، ولاحظت ابتسامةً طفيفة تتسع على مُحيَّا زميلي.

«أرابيلا هورنبي.»

جاء من ناحية جارتي التي على يساري صوت أنين خافت مصحوب بحفيفٍ عاتٍ من الحرير. ولَمَّا نظرتُ إلى السيدة هورنبي، وجدتُها تترنَّح وهي تنهض من المقعد، وكانت ترتجف كالهلام، وتمسح عينَيها بمنديلها وتقبض على حقيبتها المفتوحة. ودلفت إلى منصة الشهود، وبعد أن جالت بعينها في أرجاء القاعة بنظرات طائشة، شرعت تبحث في الأقسام العديدة في حقيبتها.

رنَّ صوت المشرف يقول: «الشهادة التي ستُدلين بها ...»، وعندئذٍ توقفت السيدة هورنبي عن تفتيشها في الحقيبة وحدَّقت في الرجل متوجِّسةً، «... إلى المحكمة وهيئة المُحلَّفين تحت القَسَم بين صاحب الجلالة مولانا الملك والمُتهم الماثل هي الحقيقة ...»

فقالت السيدة هورنبي بتحفُّظ: «بالتأكيد، أنا ...»

«... كل الحقيقة ولا شيء سواها؛ فليُعِنكِ الرب!»

ومدَّ يدَه ممسكًا بالكتاب المقدس، فأخذَتْه منه بيدٍ مرتعشة وعلى الفور وقَع بدويٍّ رنَّان على أرضية منصة الشهود، فغاصت وراءه بسرعة حتى إن قبعتها اصطدمت بعُنف بحاجز المنصة.

اختفت السيدة هورنبي عن الأنظار لحظات، ثم برزت من الأعماق وقد أصبح وجهها أرجوانيَّ اللون وقبعتها مسطحةً ومائلة فوق إحدى أذنَيها كقبعة رجال المدفعية.

وقال مشرف القاعة: «قبِّلي الكتاب المقدس من فضلك»، وهو يكبح بجهدٍ جهيد ابتسامةً عريضة، بينما حاولت السيدة هورنبي جاهدةً أن تحلَّ أربطة قبعتها، تعوقها حقيبتها ومنديلها والكتاب المقدس. فأخذت تعبث باهتياجٍ بقُبعتها، وبعد أن نفضت الغبار عن الكتاب المقدس بمنديلها، قبَّلته برقَّةٍ ووضعته على حاجز المنصة، فسقط من فوره على الأرضية مرةً أخرى.

هتفت السيدة هورنبي: «أنا في غاية الأسف بحق!» وهي تميل من فوق الحاجز مخاطبةً المشرف الذي انحنى ليلتقِط الكتاب، فأسقطت فوق ظهره من حقيبتها المفتوحة سيلًا من العملات المعدنية والأزرار والأوراق النقدية المطوية؛ «أخشى من أنك ستحسبني خرقاء.»

ثم مسحت وجهها وعدَّلت قُبعتها بشكلٍ أنيق على أحد جانبَي رأسها، وذلك بينما نهض أنستي ومرَّر لها مجلدًا صغيرًا أحمر.

وقال: «فضلًا، انظري إلى ذلك المجلد يا سيدة هورنبي.»

فقالت بإشارة تنمُّ عن النفور: «لا أحبِّذ ذلك. فهو مرتبط بأمور ذات طابع بغيض للغاية ...»

«هل تعرفينه؟»

«هل أعرفه! كيف لك أن تسألني هذا السؤال وأنت تعلم تمامًا ...»

فقاطعها القاضي: «أجيبي على السؤال. هل تعرفين المجلد الذي في يدكِ أم لا؟»

«بالطبع أعرفه. كيف لي ألَّا ...»

فقال القاضي: «قولي هذا إذن.»

فردَّت السيدة هورنبي بسخط: «لقد قلتُ هذا.»

فأومأ القاضي إلى أنستي، الذي تابع يقول: «إنه يُدعى «سجل بصمات الإبهام»، على ما أعتقد.»

«أجل، هذا مطبوع على الغلاف؛ لذا أعتقد أن هذا هو اسمه.»

«هلَّا أخبرتِنا، يا سيدة هورنبي، كيف صار «سجل بصمات الإبهام» بحوزتكِ؟»

لبرهة، حدَّقت السيدة هورنبي في مستجوِبها بشدة؛ ثم الْتَقَفَت من حقيبتها ورقةً ونشرتها ونظرت فيها بتعبير ينمُّ عن الحيرة، ثم جعَّدتها في راحة يدِها.

قال القاضي: «لقد طُرح عليك سؤال.»

فقالت السيدة هورنبي: «أوه! أجل. لجنة جمعية ... كلَّا، هذه الإجابة الخاطئة ... أقصد والتر ... أو على الأقل ...»

فقال أنستي برزانة كيِّسة: «أستميحكِ عذرًا.»

فقاطعهما القاضي قائلًا: «كنتِ تتحدَّثين عن لجنة تابعة لجمعيةٍ ما. ما هي الجمعية التي كنتِ تُشيرين إليها؟»

نشرت السيدة هورنبي الورقة وبعد أن نظرت فيها، أجابت:

«جمعية المعتوهين العاجزين، يا سعادة القاضي»، وعندئذٍ، تعالت موجة من ضحكٍ مكتوم من منصة النُّظار.

فسأل القاضي: «لكن ما علاقة هذه الجمعية بـ «سجل بصمات الإبهام»؟»

«لا شيء، يا سعادة القاضي. لا شيء على الإطلاق.»

«لماذا أشرتِ إليها إذن؟»

فقالت السيدة هورنبي، وهي تمسح عينَيها بالورقة ثم بدَّلتها بسرعة بالمنديل: «حقًّا لست أدري.»

خلع القاضي نظارته وحدق بالسيدة هورنبي بتعبيرٍ ينمُّ عن الحيرة. ثم خاطب المحامي وقال بصوت متعب: «أكمل يا سيد أنستي رجاءً.»

فقال أنستي بنبرة مقنِعة: «هلَّا أخبرتنا، يا سيدة هورنبي، كيف صار «سجل بصمات الإبهام» بحوزتكِ؟»

«ظننتُ أن والتر هو من أعطانيه، وكذلك ظنَّت جولييت، لكن والتر يقول إنه لم يفعل، وهو أدرى بذلك، لكونه شابًّا وذا ذاكرة قوية، كما كانت ذاكرتي حين كنت في عمره، ولا يهم بحق من أين حصلت عليه ...»

فقاطعها أنستي: «بل هو مُهم. نحن نرغب في معرفة هذا تحديدًا.»

«إن كنت تقصد أنك تريد أن تحصل على واحدٍ مثله ...»

فرد أنستي: «كلَّا. بل نريد أن نعرف كيف حُزت على هذا السجل دون غيره. على سبيل المثال، هل اشتريتِه بنفسكِ، أم إن أحدًا أعطاكِ إياه؟»

«يقول والتر إنني اشتريتُه، لكنني ظننتُ أنه هو من أعطاني إياه، غير أنه يقول إنه لم يفعل، وكما ترى ...»

«لا عليكِ بما يقوله والتر. ما رأيك أنتِ؟»

«ما زلتُ أظنُّ أنه أعطاني إياه، ولكن، بالطبع، نظرًا لأن ذاكرتي ليست كما كانت ...»

«هل تعتقدين أن والتر أعطاكِ إياه؟»

«نعم، بل في الواقع أنا واثقة، وهكذا تعتقد جولييت.»

«والتر ابن أخي زوجكِ، والتر هورنبي؟»

«أجل، بالطبع. كنتُ أظنُّ أنك تعرف.»

«هل يُمكنكِ أن تتذكَّري المناسبة التي أعطاكِ فيها هذا السجل؟»

«نعم، أتذكرها بوضوح تام. كنا قد دعونا أناسًا على العشاء — يُدعَون آل كولي — ليسوا آل كولي الذين يقطنون دورسيتشاير، رغم أن هؤلاء أناس في غاية اللطف، ولا شك عندي أن آل كولي الآخرين لُطفاء أيضًا، حين تتعرَّف إليهم، لكننا لا نعرفهم. أقول إننا بعد العشاء كنا خامِلين قليلًا ولا نعرف ماذا نفعل؛ لأن جولييت كانت قد جُرحت إصبعها ولم يكن بإمكانها العزف على البيانو سوى بيدِها اليُسرى، وهذا مُضجر إلى جانب كونه مُتعبًا، وآل كولي لا يميلون إلى الموسيقى، عدا أدولفوس الذي يعزف الترومبون، لكنه لم يكن قد أحضرها معه، بعد ذلك، لحُسن حظِّنا، جاء والتر وأحضر معه «سجل بصمات الإبهام» وأخذ جميع بصمات إبهامِنا وبصمته كذلك، وتسلَّينا كثيرًا، وقالت ماتيلدا كولي — وهي الابنة الكبرى الثانية — إن روبين هزَّ مرفقها، لكن هذا كان مجرد عُذر من أجل ...»

فقاطعها أنستي: «بِالضَّبْط. تتذكَّرين بوضوح أن ابن أخي زوجك والتر أعطاكِ «سجلَّ بصمات الإبهام» في تلك المناسبة؟»

«أوه، أتذكَّر تمامًا؛ لكنه، كما تعلم، ابنُ أخي زوجي ...»

«أجل. وأنتِ واثقة من أنه أخذ البصمات؟»

«واثقة تمامًا.»

«وواثقة من أنكِ لم ترَي هذا السجلَّ قبل ذلك؟»

«مطلقًا. كيف كنت سأراه قبل ذلك؟ لم يكن قد أحضره.»

«هل أعرتِ هذا السجلَّ لأي أحدٍ في أي وقت؟»

«كلَّا، مطلقًا. لم يرغب أحد في أن يستعيره لأن ...»

«وهل خرج من حوزتك من قبلُ في أي وقت؟»

«أوه، لا أظن ذلك؛ في الواقع، لقد فكَّرت كثيرًا، رغم أنني أكره أن أشكَّ في الناس، وحقًّا لا أشك في أحد بعينِه، لكن الأمر بالتأكيد كان غريبًا جدًّا ولا يُمكنني أن أفسِّره بأي طريقةٍ أخرى. كنت أحتفظ بسجلٍّ بصمات الإبهام في أحد الأدراج في طاولة الكتابة الخاصة بي، وفي الدرج نفسه كنت أحتفظ بحقيبة مناديلي — في واقع الأمر، ما زلت أحتفظ بها في ذلك الدرج وهي موجودة فيه في هذه اللحظة؛ فقد نسيتُها في خضمِّ عجلتي وارتباكي ولم أتذكَّرها حتى صِرنا في عربة الأجرة، وحينها كان الأوان قد فات؛ لأن السيد لولي ...»

«أكملي. احتفظتِ به في درج مع حقيبة مناديلكِ.»

«هذا ما قلته. حسنٌ، حين كان السيد هورنبي يمكث في برايتون أرسل إليَّ يطلب مني أن آتي له مدة أسبوع وأن آتي بجولييت معي، جولييت التي هي الآنسة جيبسون كما تعلم. وقد ذهبنا بالفعل، وحين كنَّا على وشك الانطلاق، أرسلتُ جولييت لتأتي لي بحقيبة مناديلي من الدرج، وقلت لها: «ربما يجدُر بنا أن نأخذ سجل البصمات معنا؛ فقد يكون له نفع في يوم ماطر.» فذَهَبَتْ وعادت بعد قليل وقالت لي إن سجل البصمات ليس في الدرج. اندهشتُ كثيرًا حتى إنني عدتُ معها وبحثتُ عنه بنفسي، وكان الدرج فارغًا. لم أُعِر الأمر اهتمامًا كبيرًا حينها، لكن حين عُدنا إلى المنزل، وبمجرد أن نزلنا من عربة الأجرة، أعطيتُ جولييت حقيبة المناديل لتضعها في مكانها، وسرعان ما جاءتني تجري وهي في حالةٍ من الإثارة الشديدة. قالت: «عجبًا، يا عمَّة، سجل البصمات في الدرج؛ لا بد أن أحدَهم كان يتطفَّل على طاولة الكتابة الخاصة بكِ.» فذهبت معها إلى الدرج وبالفعل كان السجلُّ فيه. لا بد أن أحدًا ما أخذه وأعاده أثناء غيابنا.»

«من يستطيع الوصول إلى طاولة الكتابة الخاصة بكِ؟»

«أي أحد؛ لأن الأدراج لا تُقفل بالأقفال مطلقًا. ظننَّا أنه لا بد وأن أحد الخدم هو من فعل ذلك.»

«هل أتى أي أحدٍ إلى المنزل في أثناء غيابكم؟»

«كلَّا، لم يأتِ أحد، عدا ابنَي أخوي زوجي طبعًا؛ ولم يمسسه أيٌّ منهما؛ لأننا سألناهما وقالا إنهما لم يفعلاها.»

«شكرًا لكِ.» جلس أنستي، وبعد أن عدَّلت السيدة هورنبي قُبعتها مرةً أخرى، كانت على وشك أن تنزل من على منصة الشهود حين نهض السير هيكتور وحدَّق فيها بنظرةٍ متوعِّدة.

وقال: «أشرتِ إلى جمعية ما — جمعية المعتوهين العاجزين كما أظن، بغضِّ النظر عن ماهيتها. والآن، ما الذي جعلكِ تشيرين إليها؟»

«كان هذا خطأً؛ كنت أفكِّر في شيءٍ آخر.»

«أعلم أنه كان خطأً. لقد نوَّهتِ إلى ورقة كانت في يدكِ.»

«لم أُنوِّه لها، إنما نظرتُ فيها فقط. وهي خطاب من جمعية المعتوهين العاجزين. ليس لي أي علاقة بها؛ أنا لا أنتمي إليها أو أي شيءٍ من هذا القبيل.»

«هل خلطتِ خطأً بين هذه الورقة وورقة أخرى؟»

«نعم، ظننتُها ورقة الملاحظات التي ستُساعدني على التذكُّر.»

«ما نوع هذه الملاحظات؟»

«أوه، مجرد الأسئلة التي مِن المرجَّح أن تُطرح عليَّ.»

«هل كانت إجاباتكِ على تلك الأسئلة مكتوبةً في الورقة أيضًا؟»

«بالطبع. لن يكون لهذه الأسئلة أي فائدة من دون الإجابات عليها.»

«وهل طُرحت عليكِ الأسئلة التي كانت في هذه الورقة؟»

«نعم؛ أو بعضها على الأقل.»

«هل أجبتِ بالإجابات التي كانت مدوَّنةً في الورقة؟»

«لا أظن أني فعلت — في الواقع، أنا واثقة من أني لم أفعل؛ لأن ...»

«آه! لا تظنين أنكِ فعلتِ.» ابتسم السير هيكتور ترامبلر ابتسامةً ذات مغزًى إلى هيئة المحلَّفين، واستطرد:

«مَن الذي كتب هذه الأسئلة والإجابات عليها؟»

«ابن أخي زوجي، والتر هورنبي. فقد ظنَّ ...»

«لا عليكِ بما ظنَّه. من الذي أشار عليه أو طلب منه أن يفعل هذا؟»

«لا أحد. كانت فكرته هو أن يفعل، وهذا من مراعاته ولطفه أيضًا، رغم أن الدكتور جيرفيس أخذ منِّي الورقة وقال إن عليَّ أن أعتمد على ذاكرتي.»

كان من الواضح أن السير هيكتور فوجئ بهذه الإجابة، فجلس فجأةً وقد بدت عليه علامات الحزن الشديد.

سأل القاضي: «أين هذه الورقة التي كُتِبَتْ فيها الأسئلة والأجوبة؟» تحسبًا واستباقًا لهذا السؤال، كنتُ قد سلَّمت الورقة بالفعل إلى ثورندايك، وكنتُ قد لاحظتُ من النظرة ذات المغزى التي نظر لي بها أنه لم يغفل عن ملاحظة السِّمة المُمَيِّزة للنصِّ المكتوب على

آلة كاتبة. لقد تجاوز الأمر الآن كل شكٍّ حقًّا؛ لأنه مرَّر لي بسرعة قطعة ورقٍ وجدتُ حين فتحتُها أنه كان قد كتب فيها: «فلان = و. هـ.».

وبينما كان أنستي يُسلِّم الورقة محلَّ النقاش إلى القاضي، رمقتُ والتر هورنبي بنظرةٍ سريعة ولاحظتُ أنه كان يتميَّز غضبًا، وإن كان يحاول جاهدًا أن يبدو هادئًا وغير مكترث، وكانت النظرة التي ينظر بها إلى زوجة عمِّه شريرة تمامًا.

وسأل القاضي، وهو يُمرِّر الورقة للشاهدة: «أهذه هي الورقة؟»

أجابت السيدة هورنبي بنبرة مُرتجفة: «نعم، يا سعادة القاضي»؛ وعندئذٍ أعيدت الورقة إلى القاضي الذي شرع يقارنها بملاحظاته.

ثم قال بنبرة حازمة بعد مقارنة سريعة: «سآمُر أن تُصادر هذه الورقة. فثمة محاولة واضحة للتلاعُب بالشهود. أكمل استجوابك يا سيد أنستي.»

ساد الصمت لحظة، تمايلت خلالها السيدة هورنبي وهي تعاود اتخاذ مجلسها، وكانت تشهق من الإثارة والارتياح؛ ثم نادى مشرف القاعة:

«جون إيفلين ثورندايك!»

وهتفَت جولييت وهي تُشبِّك يدَيها: «حمدًا للرب! أوه! هل سيتمكن من إنقاذ روبين؟ أتظنُّ أنه سيفعل، يا دكتور جيرفيس؟»

فأجبتُها: «هناك من يظنُّ هذا»، وأنا أنظر باتجاه بولتون، الذي كان يحتضِن بين ذراعَيه الصندوق الغامِض ويُمسك بحقيبة الميكروسكوب، ويُحدِّق في سيدِه بابتسامةٍ مُنتشية. «بولتون يتمتَّع بإيمان أكبر منكِ، يا آنسة جيبسون.»

فردَّت: «أجل، يا له من رجلٍ مخلص! سنعرف أسوأ ما يمكن أن يحدُث عن قريب جدًّا على أي حال.»

فقلت: «أسوأ أو أفضل ما يمكن أن يحدُث. سنسمع الآن الدفاع الحقيقي.»

فهتفت بنبرةٍ خفيضة: «بعون الرب سيكون دفاعًا جيدًا»؛ وغمغمتُ أنا أن «آمين» رغم أنني لستُ متديِّنًا عادة.

الفصل السادس عشر

ثورندايك يقلب الطاولة

بينما اتخذ ثورندايك مكانه في المنصَّة، نظرتُ إليه بشيءٍ من الاندهاش غير المُبرَّر؛ فقد شعرتُ أنني لم أُدرك من قبلُ قطُّ نوعية الرجال التي ينتمي إليها صديقي فيما يتعلق بمظهره الخارجي. كثيرًا ما لاحظتُ القوة التي ينمُّ عنها وجهه، وذكاءه الحاد وجاذبيته؛ لكنني لم أنتبِه من قبلُ قَط إلى أكثر ما يُذهلني الآن: وهو أن ثورندايك كان في واقع الأمر أكثر الرجال الذين عرفتهم وسامة. كان يرتدي ثيابًا بسيطة، ولم يُضِف الرداء الطويل الفضفاض ولا الشعر المُستعار لمظهره أي جاذبية، ومع ذلك كان حضوره مُهيمنًا على القاعة. حتى القاضي، رغم ما كان يرتديه من رداءٍ قرمزي وزخارف تدلُّ على منصبه، بدا بالمقارنة به شخصًا عاديًّا، في حين بدا أعضاء هيئة المُحلَّفين الذين التفتوا لينظروا إليه وكأنهم كائنات من مرتبةٍ أدنى. لم يكن ما لفت انتباهي هو جسده الطويل المُنتصِب بإباء ورصانة، ولا ما يوحي به وجهه من قوة ورجاحة عقل كبيرة، بل كان حسن انسجام وبهاء وجهه نفسه هو ما أَسَرَ انتباهي؛ بهاء جعل وجهه أقرب إلى قناع كلاسيكي مصنوع من الرخام ذي اللون العاجي المُستخرَج من جبل بنتلي في اليونان منه إلى الوجوه المُتلهِّفة التي تتحرك من حولنا في عجلةٍ وضجيج حياة شاقة وتافهة في الوقت ذاته.

قال أنستي: «أنت على صِلة بمدرسة الطب في مستشفى سانت مارجريت، صحيح يا دكتور ثورندايك؟»

«أجل. أنا محاضر في الطبِّ الشرعي وعِلم السموم.»

«هل تتمتع بخبرةٍ كبيرة في تحقيقات الطب الشرعي؟»

«نعم أتمتع بخبرةٍ كبيرة. فأنا أعمل الآن بصفةٍ حصرية في مجال الطب الشرعي.»

«أسمِعتَ الشهادة ذات الصِّلة بقطرتَي الدماء اللتَين وُجِدتا في الخزينة؟»

«نعم سمعتها.»

«ما رأيك في حالة الدم؟»

«أقول إنه قد جرت معالجته ولا شك — على الأرجح بإزالة الفبرين.»

«أيمكنك أن تقترح أي تفسيرٍ لحالة ذلك الدم؟»

«بإمكاني ذلك.»

«هل لتفسيرك صِلة بأي خواص لبصمة الإبهام التي وُجِدَت على الورقة في الخزينة؟»

«نعم.»

«هل أبديتَ اهتمامًا بمسألة البصمات من قبل؟»

«نعم. أوليتُ هذه المسألة قدرًا كبيرًا من الاهتمام.»

«رجاءً تفضَّل بفحص هذه الورقة» (هنا سلَّم مشرف القاعة ورقة المفكرة إلى ثورندايك). «هل رأيتَها من قبل؟»

«نعم. رأيتُها في سكوتلانديارد.»

«هل فحصتَها بإمعان؟»

«فحصتُها بإمعان شديد. فقد مكَّنتني الشرطة من ذلك، وبإذنٍ منهم، أخذتُ لها عدة صور فوتوغرافية.»

«هل هناك علامة على هذه الورقة تُشبه بصمة إبهام إنسان؟»

«نعم.»

«هل سمعت الشاهدَين الخبيرَين وهما يُقسمان إن هذه العلامة صُنِعت بالإبهام اليُسرى للمُتَّهم روبين هورنبي؟»

«سمعتهما.»

«هل تتفق مع ما صرَّحا به؟»

«كلَّا.»

«في رأيك، هل صُنِعَت العلامة على الورقة بإبهام المُتهم؟»

«كلَّا. أنا مُقتنع أنها لم تُصنَع بإبهام روبين هورنبي.»

«هل تظنُّ أنها صُنِعت بإبهام شخصٍ آخر؟»

«كلَّا. في رأيي أنها لم تُصنَع بأي إبهامٍ بشري على الإطلاق.»

عند هذا القول توقَّف القاضي لحظةً والقلَم في يده، وحدَّق في ثورندايك وفمه مفتوح قليلًا، في حين تبادل الخبيران النظرات وقد ارتفعت حواجبهما.

«في اعتقادك، كيف صُنِعت هذه البصمة؟»

«بواسطة ختم، إما من المطَّاط الطبيعي أو في الغالِب من الجيلاتين المُعالَج بالكروم.»

هنا ضرب بولتون، الذي كان قد بدأ ينتصب قائمًا شيئًا فشيئًا، فخذَه ضربةً قويةً وأطلق ضحكةً عالية، فتحوَّلت إليه كلُّ الأعيُن بما في ذلك القاضي.

فقال القاضي وهو ينظر بنظرةٍ صاعقة إلى الجاني المُرتعِب، الذي كان قد انكمش في مكانه في أصغر حيِّزٍ رأيتُ رجلًا يشغله يومًا: «إن تكرَّر هذا الصوت، فسأبعد صاحبه عن القاعة.»

أكمل أنستي: «أفهم إذن أنك ترى أن البصمة — التي أقسم الخبيران إنها بصمة المُتهم — هي بصمة مزوَّرة؟»

«أجل. تلك بصمة مزوَّرة.»

«لكن هل من المُمكن أن يُزوِّر أحدُهم بصمة إبهام أو بصمة إصبع آخر؟»

«ليس الأمر مُمكنًا وحسب، بل وسهل جدًّا.»

«بسهولة تزوير توقيع، على سبيل المثال؟»

«الأمر أسهل بكثير، وأكثر أمانًا إلى حدٍّ كبير. فالتوقيع، إذ يكون مكتوبًا بالقلَم، يتطلَّب أن يكون تزويره مكتوبًا بقلَم أيضًا، وهي عملية تتطلَّب مهارةً خاصة جدًّا، وفي نهاية المطاف، لا ينتج عنها أبدًا نسخة طبق الأصل. غير أن البصمة علامة مختومة؛ تكون الأنامل فيها هي الختم؛ ولا يلزم سوى أن يحصل أحدُهم على ختمٍ يُطابق الأنملة في الخصائص والسِّمات من أجل إنتاج بصمةٍ متطابقة من جميع النواحي مع البصمة الأصلية، ولا يمكن تفريقها عنها على الإطلاق.»

«ألن يكون هناك أي وسيلةٍ لكشف الاختلاف بين بصمة مزوَّرة والبصمة الأصلية؟»

«على الإطلاق؛ لأنه لن يكون هناك اختلاف من الأساس.»

«لكنك ذكرت، بكل تأكيد، أن بصمة الإبهام التي على هذه الورقة بصمة مزوَّرة. والآن، إن كان من غير المُمكن أن نفرِّق بينها وبين الأصلية، فكيف يمكنك أن تكون متأكدًا من أن هذه البصمة بالذات مزوَّرة؟»

«كنتُ أتحدَّث عما يمكن تحقيقه إذا ما بذلنا العناية الواجبة، لكن من الواضح أن المُزوِّر يمكن أن يكون مهملًا أو غافلًا فيُخفق في إخراج بصمةٍ متطابقة تمامًا مع البصمة الأصلية، ومن ثم يُصبح كشف الفارق بينهما مُمكنًا. وهذا ما حدث في القضية الراهنة. فالبصمة المزوَّرة لا تتطابق تمامًا مع البصمة الحقيقية. ثمة اختلاف طفيف بينهما. لكن إضافةً إلى هذا، تحمل الورقة دليلًا جوهريًّا على أن البصمة التي عليها مزورة.»

«سننظُر في هذا الدليل بعد قليلٍ يا دكتور ثورندايك. لكن بالعودة إلى إمكانية تزوير البصمة، هل يمكنك أن تشرح لنا، ومن دون التعمُّق في التفاصيل التقنية، الطرائق التي يمكن من خلالها إنتاج هذا الختم الذي أشرتَ إليه؟»

«ثمة طريقتان أساسيَّتان. الأولى بسيطة ومِن السهل إجراؤها، وتتمثَّل في صُنع نموذجٍ للأنامل. ثم يُصنع بعد ذلك قالبٌ عن طريق الضغط على الإصبع في مادة بلاستيكية، مثل طين التشكيل الناعم أو شمع الأختام المُذاب، ثم بإضافة محلول دافئ من الجيلاتين المُذاب في هذا القالب وتركه ليبرد ويجمد، نحصل على قالبٍ يُنتِج لنا بصماتٍ مثاليةً تمامًا. لكن، بوجهٍ عام، لا تكون هذه الطريقة مُجديةً لأغراض المُزوِّر؛ لأنها لا يمكن تنفيذها من دون عِلم الضحية؛ وإن كان مِن الممكن أن ينجح المُزوِّر في تحقيق غايته في حالات الوفاة أو النوم أو الوقوع تحت تأثير المُخدِّر، ومن ميزات هذه الطريقة كذلك أنها لا تتطلَّب مهارةً أو معرفة فنية ولا أجهزة أو أدواتٍ خاصة. أما الطريقة الثانية الأكثر فاعلية، والتي لا شك عندي في أنها المُتَّبعة في حالتنا هذه، فتتطلَّب المزيد من المعرفة والمهارة.

في المقام الأول، من الضروري الحصول على أو الوصول إلى بصمة أصلية. تؤخَذ صور فوتوغرافية لهذه البصمة، أو بالأحرى، تؤخَذ لها صور سلبية، يستلزم من أجل هذا الغرَض أن تؤخَذ على شريحة بالمعكوس، فيوضع الفيلم السالب على إطار طباعة من نوع خاص عليه شريحة من الجيلاتين المُعالَج بثاني كرومات البوتاسيوم، ويُعَرَّض الإطار للضوء.

والآن، هناك خاصية عجيبة للغاية للجيلاتين المُعالَج بهذه الطريقة؛ والذي يُسمَّى الجيلاتين المُكروَم. فكما هو معروف، من السهل أن يذوب الجيلاتين العادي في الماء الساخن، والجيلاتين المُكروَم قابل للذوبان أيضًا في الماء الساخن ما دام ليس معرَّضًا للضوء؛ لكن لدى تعرُّضه للضوء، تحدُث له تغيرات ويُصبح غير قابل للذوبان في الماء الساخن. والأجزاء المُعتِمة في الفيلم السالب تحمي شريحة الجيلاتين المُكروَم من الضوء، في حين يمرُّ الضوء بحريةٍ من الأجزاء الشفافة؛ غير أن الأجزاء الشفافة في الفيلم السالب تتوافق مع العلامات السوداء على البصمة، والتي تتوافق بدورها مع النتوءات التي على الإصبع. من ثم لا يكون للضوء تأثير على الشريحة الجيلاتينية إلا في الأجزاء المُتوافقة مع النتوءات؛ فيكون الجيلاتين في هذه الأجزاء غير قابل للذوبان، في حين يكون الباقي كلُّه منه قابلًا للذوبان. وعندما نغسل الشريحة الجيلاتينية — المُثبَّتة على شريحة معدنية رفيعة من أجل التثبيت والدعم — بالماء الساخن، فيذوب الجزء القابل للذوبان ويتبقَّى

الجزء غير القابل للذوبان (المتوافق مع النتوءات على الإصبع) فيبرُز على السطح. وبذا نكون قد أنتجنا بروزًا أو مُجسمًا مطابقًا للبصمة به نتوءات حقيقية وتجاعيد مطابقة من حيث السِّمات مع النتوءات والتجاعيد الموجودة على الأنملة. فإن مرَّرنا أسطوانةً دوَّارة مُحبَّرة على هذا المُجسَّم، أو إن ضغطنا به على لوح مُحبَّر ثم ضغطنا به على ورقة، سننتُج بصمةً متطابقة تمامًا مع البصمة الأصلية، حتى لدرجة البقع البيضاء الصغيرة التي تُشير إلى فتحات الغدد العَرَقِيَّة. وسيكون من المُستحيل اكتشاف أي اختلافٍ بين البصمة الحقيقية والأخرى المزوَّرة؛ لأنه في واقع الأمر لا يوجَد أي فارق بينهما.»

«لكن من المؤكد أن هذه العملية التي وصفتُها في غاية الصعوبة والتعقيد، صحيح؟»

«على الإطلاق؛ هي أصعب قليلًا جدًّا من الطباعة الكربونية، والتي يُمارسها بنجاح أعدادٌ من الهواة. علاوةً على ذلك، يمكن لأي حفَّار فوتوغرافي أن يُنتج هذا المُجسَّم الذي وصفته — فهو في واقع الأمر لا يعدو عمليًّا القوالب الخشبية العادية. والعملية التي وصفتها هي، في جميع عناصرها الأساسية، العملية المُستخدَمة في إعادة إنتاج رسومات القلم والحبر، ويمكن لأي أحدٍ من المئات الذين يمتهِنون هذه المهنة أن يصنع كتلةً مجسَّمةً لبصمة إصبع، يمكن بها تنفيذ تزوير لا يمكن اكتشافه.»

«لقد أكَّدت أنه لا يمكن تمييز البصمة المزيَّفة عن الأصلية. فهل أنت مُستعِد لتقديم دليل على صحة هذا؟»

«نعم. أنا مُستعد لصنع بصمةٍ مُزيفة لإبهام المُتهم أمام المحكمة.»

«وتقول إن هذه البصمة المُزيفة لن يكون من الممكن تمييزها عن الأصلية، حتى بواسطة الخبراء؟»

«نعم.»

التفت أنستي باتجاه القاضي. وقال: «هل تأذن سيادتك بتنفيذ العرض الذي يقترحه الشاهد؟»

فأجابه القاضي: «بالطبع. فهو جوهري للغاية.» ثم أضاف مخاطبًا ثورندايك: «كيف تقترح إجراء هذه المقارنة؟»

أجاب ثورندايك: «لقد أحضرتُ معي، يا سيادة القاضي، لهذا الغرض عددًا من الأوراق، كل منها مُقسَّم إلى عشرين مربعًا. أقترح أن نجعل عشرةً من هذه المربعات لبصمة إبهام المُتهم المزيفة، وأن نملأ العشرة الأخرى بالبصمة الحقيقية. وأقترح أن يفحص الخبيران الورقة بعد ذلك وأن يُخبرا المحكمة أيها الحقيقية وأيها الزائفة.»

فقال سيادته: «يبدو هذا اختبارًا عادلًا وفعَّالًا. هل لديك أي اعتراض على هذا العرض أيها السير هيكتور؟»

تشاور السير هيكتور ترامبلر على عَجَل مع الخبيرَين اللذَين كانا يجلسان في مقعد المحامي، ثم أجاب في فتور:

«ليس لدينا اعتراض، يا سيادة القاضي.»

«في هذه الحالة إذن، سآمُر بانسحاب الشاهدَين الخبيرَين من قاعة المحكمة بينما يجري تحضير البصمات.»

نهض السيد سينجلتون وزميله طاعةً لأمر القاضي، وغادرا القاعة بتردُّد واضح، في حين أخرج ثورندايك من حافظة صغيرة ثلاث ورقات وسلَّمها إلى القاضي.

وقال: «فضلًا، يا سيادة القاضي، ضع علاماتٍ على عشرة مربعات في ورقتَين من هذه الأوراق، وسنُعطي واحدةً لهيئة المُحلَّفين وستحتفظ سيادتكم بواحدة، بحيث تتحقَّق من الثالثة حين نصنع البصمات عليها.»

فقال القاضي: «هذه خطة ممتازة؛ وحيث إن هذه الإحاطة خاصة بي وبهيئة المُحلَّفين، سيكون من الأفضل أن تأتي إلى هنا وتجري عملية ختم البصمات على طاولتي في حضور رئيس هيئة المُحلَّفين ومحامي الدفاع والادعاء.»

ووفقًا لتوجيهات القاضي، تقدَّم ثورندايك إلى منصة القضاء، وبينما نهض أنستي مال باتجاهي.

وقال: «من الأفضل أن تأتي أنتَ وبولتون أيضًا. سيحتاج ثورندايك إلى مساعدتكما، وبإمكانكما كذلك أن تشهدا الجزء المُمتع. سأشرح الأمر لسيادته.»

صعد الدرَج المؤدي إلى منصة القضاء وخاطب القاضي ببضع كلمات، فنظر القاضي باتجاهنا وأومأ موافقًا، وعندئذٍ تبعته أنا وبولتون بابتهاج، وكان بولتون يحمِل الصندوق وهو في غاية السرور.

وكان بطاولة القضاء دُرْجٌ قليل العُمق يُفتَح من جانبها ويسع الصندوق، فصار سطح الطاولة خاليًا لتوضَع عليه الأوراق. وحين رُفِعَ غطاء الصندوق، كان به لوح تحبير من النحاس، وبكرة دوارة صغيرة و«البيادق» الأربعة والعشرون التي كانت قد تسبَّبت في حيرة كبيرة لبولتون، فأخذ ينظر لها الآن بعينَين يتلألأ فيهما الاستمتاع والظفر.

تساءل القاضي وهو ينظر بفضول إلى مجموعة المقابض الخشبية: «هل هذه كلها أختام؟»

أجاب ثورندايك: «كلها أختام يا سيدي، وكل واحد منها مأخوذ من بصمةٍ مختلفة عن إبهام المُتهم.»

فسأله القاضي: «لكن لماذا كل هذا العدد؟»

أجاب ثورندايك، وهو يعتصر قطرةً من حبر البصمات على لوح التحبير ويشرع في بسطها على هيئة طبقة رقيقة: «لقد ضاعفتُ عددها لأتجنَّب التماثُل الواضح لختمٍ واحد. ويُمكنني أن أقول إن من المُهم للغاية ألَّا يعرف الخبراء أنه جرى استخدام أكثر من ختم.»

قال القاضي: «أجل، فهمت.» ثم أضاف وهو يخاطب محامي الادعاء: «أنت تعي هذا أيضًا، أيها السير هيكتور»، فانحنى السير هيكتور بدوره في تيبُّس، وكان من الواضح أنه يراقِب العملية برمَّتها باستياء شديد.

نشر ثورندايك الحبر على أحد الأختام وسلَّمه إلى القاضي الذي فحصه بدوره بفضولٍ ثم ضغط به على ورقةٍ مستعمَلة، فظهر عليها على الفور طبعة واضحة للغاية لإبهامٍ بشري.

فهتف قائلًا: «بديع! عبقري للغاية! هذه عبقرية!» ثم ضحك ضحكةً لطيفة وأضاف، وهو يُسلِّم الختم والورقة إلى رئيس هيئة المحلفين: «من حُسن الحظ يا دكتور ثورندايك أنك منحاز إلى جانب القانون والنظام؛ لأنك لو كنتَ منحازًا للجانب الآخر، أخشى من أن الشرطة كانت ستواجِه معك أوقاتًا صعبة. والآن إن كنتَ مُستعدًّا فسنبدأ. هلَّا ختمت، فضلًا، إحدى البصمات على المربع رقم ثلاثة.»

فسحب ثورندايك ختمًا من حجيرته، وحبَّره على اللوح، وضغطه بدقة على المربع المُشار إليه، فخلَّف بصمةً واضحةً وحادَّة.

وتكرَّرت العملية على تسع مربعات أخرى، وفي كل مرة كان يستخدِم ختمًا مختلفًا لكل طبعة. ثم أضاف القاضي علامات على المربعات العشرة المقابلة للورقتَين الأُخريين، وبعد أن انتهى، أمَر رئيسَ هيئة المُحلَّفين بعرض الورقة التي تحمِل البصمات الزائفة على أعضاء هيئة المُحلَّفين مع الورقة التي تحمل العلامات والتي سيحتفظون بها، وذلك من أجل التحقُّق من صحَّة ما سيُدلي به الشاهدان الخبيران من إفادات. وحين انتهى هذا، أُحضِر المُتهم من قفص الاتهام ووقف إلى جوار الطاولة. ونظر القاضي في فضول وعطف إلى الرجل الوسيم القوي الذي كان يقف متهمًا بجريمة نكراء لا تتناسب مع مظهره، وشعرت، لَمَّا لاحظت هذه النظرة، أن روبين سيحصل، على الأقل، على محاكمة عادلة بِناءً على الأدلة، من دون انحيازٍ أو ربما حتى مع شيءٍ من الانحياز لصالحه.

وواصل ثورندايك عمله بحذَر وتأنٍّ في الجزء المُتبقي من العملية. فكان لوح التحبير يُحبَّر من جديدٍ في كل مرة، وبعد كل ختم، كان إبهام روبين يُنظَّف ويُجفَّف تمامًا؛ وحين انتهى من العملية واقتيد المُتهم ليعود إلى قفص الاتهام، كانت المربعات العشرون على الورقة تحمل عشرين بصمة إبهام، كانت جميعها، في نظري، على أي حال، متطابقةً تمامًا.

جلس القاضي لمدة تقارب الدقيقة مستغرقًا في التدقيق في هذه الوثيقة الفريدة بتعبيرٍ كان ما بين العبوس والتبسُّم. وأخيرًا، حين كنَّا قد عدنا جميعًا إلى أماكننا، أمر مشرف القاعة بأن يُدخِل الشاهدَين.

سعدتُ بملاحظة التغيير الذي كان قد طرأ على الخبيرَين في هذه الفترة القصيرة. إذ كانت قد اختفت البسمة الواثقة والمظهر الذي ينمُّ عن الانتصار الناتج عن طرح ورقة رابحة، وكان تعبيرهما الآن ينمُّ عن القلق والترقُّب. وبينما كان السيد سينجلتون يتقدَّم بتردُّد إلى الطاولة، تذكَّرت الكلمات التي كان قد نطق بها في مكتبه في سكوتلانديارد؛ كان من الواضح أن خُطته في إنهاء المباراة بحركةٍ سهلة لإماتة الشاه لم تكن تتضمَّن الحركة التي كان الدفاع قد نفَّذها.

قال القاضي: «سيد سينجلتون، هذه ورقة طُبعت عليها عشرون بصمة إبهام. عشرة منها حقيقية وتعود لإبهام المُتهم بالفعل، وعشرة أخرى مزيفة. من فضلك افحص هذه البصمات ودوِّن أرقام البصمات الحقيقية والبصمات المزيفة. وحين تنتهي من ذلك، سَلِّم الورقة إلى السيد ناش.»

فسأل السيد سينجلتون: «هل هناك أي اعتراض على استخدامي للصورة الفوتوغرافية التي معي في المقارنة يا سيدي؟»

أجاب القاضي: «لا أظن ذلك. ما قولك يا سيد أنستي؟»

فأجاب أنستي: «لا اعتراض على الإطلاق، يا سيدي.»

على هذا أخرج السيد سينجلتون من جيبه صورةً فوتوغرافيةً مكبَّرةً لبصمة الإبهام وعدسةً مُكبِّرة، وبمساعدتها أخذ يفحص المجموعة المُحيِّرة من البصمات على الورقة أمامه؛ وبينما كان يمضي في هذا لاحظت بارتياح أن تعبيرات وجهه ازدادت ارتيابًا وقلقًا. وبين الحين والحين كان يُدوِّن ملحوظةً في ورقةٍ من مفكِّرةٍ بجانبه، ومع تراكم الملحوظات، ازداد عبوسه وتعاظمت حيرته وتجهُّمه.

وفي الأخير انتصب في جلسته، وأمسك ورقة المفكرة في يده، ثم وجَّه حديثه إلى القاضي.

«لقد أنهيتُ فحصي يا سيدي.»

«ممتاز. سيد ناش، هلَّا فحصتَ هذه الورقة فضلًا ودوَّنت نتيجة فحصك؟»

فهمست لي جولييت: «أوه! أتمنَّى أن يُسرعا. هل تظن أنهما سيستطيعان التفريق بين البصمات الحقيقية والبصمات المزيفة؟»

فأجبتها: «لا أستطيع أن أجزم؛ لكننا سرعان ما سنعرف. لقد بدت لي جميع البصمات مُتشابهة.»

أجرى السيد ناش فحصه بتأنٍّ مُزعِج، وظلَّ طوال ذلك محافظًا على مظهر المُنتبه المتبلِّد الحس؛ لكنه في آخِر المطاف أتمَّ ملحوظاته وسلَّم الورقة إلى مشرف القاعة.

وقال القاضي: «والآن لنسمع ما توصلتَ إليه يا سيد سينجلتون. أنت تحت القَسَم.»

تقدَّم السيد سينجلتون إلى منصة الشهود، ووضع ملحوظاته على حافتها، وواجه القاضي.

وسأله السير هيكتور ترامبلر: «هل فحصت الورقة التي أُعطِيَت لك؟»

«نعم، فعلت.»

«ماذا رأيت على الورقة؟»

«رأيت عشرين بصمة إبهام، بعضها كان زائفًا بصورةٍ واضحة، وبعضها كان حقيقيًّا بلا شك، وبعضها كان ملتبسًا.»

«بأخذ البصمات بتسلسلها، ماذا كانت ملاحظاتك بشأنها؟»

نظر السيد سينجلتون في ملاحظاته وأجاب: «البصمة على المربع رقم واحد مُزيفة بصورة واضحة، وكذلك الحال في المربع رقم اثنين، وإن كانت تبدو تقليدًا مقبولًا. البصمتان في المُربَّعَين ثلاثة وأربعة حقيقيتان؛ أما في الخامس فتزييف واضح. المربع رقم ستة يحتوي على بصمة حقيقية؛ والمربع رقم سبعة تزييف، وإن كان متقَنًا؛ البصمة في المربع رقم ثمانية حقيقية؛ وأظن أن البصمة في رقم تسعة مزيفة، وإن كانت متقنةً إتقانًا رائعًا. المربعان رقم عشرة وأحد عشر يحتويان على بصمتَين حقيقيتَين؛ والبصمتان في الثاني عشر والثالث عشر مُزيفتان؛ أما فيما يتعلق بالمربع رقم أربعة عشر فعندي شكٌّ كبير فيه، وإن كنت أميل لأن أعتبره تزييفًا. المربع رقم خمسة عشر يحتوي على بصمةٍ حقيقية، وأظن أن السادس عشر كذلك؛ لكنني لست متأكدًا من ذلك. المربع رقم سبعة عشر يحتوي على بصمة حقيقية بالتأكيد. وعندي شكٌّ بشأن البصمتَين في المربعَين الثامن عشر والتاسع عشر، لكنني أميل لأن أعتبرهما مُزيفتَين. أما المربع رقم عشرين فيحتوي على بصمةٍ حقيقية بكلِّ تأكيد.»

وبينما كان السيد سينجلتون يتلو شهادته، علت وجه القاضي أمارات الدهشة، في حين تنقَّلت أعيُن أعضاء هيئة المحلَّفين بين الشاهد والملحوظات التي أمامهم وفيما بينهم في ذهول واضح.

أما السير هيكتور ترامبلر، نجم المجال القانوني الإنجليزي، فقد كان مشوَّشًا تمامًا؛ لأنه، بينما تتابعت الإفادات، أخذ تجهُّمه يزداد وطغت على ملامح وجهه المُحمرِّ تعبيرات تشي بحيرة تامة.

لبضع ثوانٍ، حَدَّقَ بعينٍ ذاهلةٍ في شاهدِه ثم هوى على كرسيه بارتطام هزَّ القاعة.

قال أنستي: «هل لدَيك أي شكٍّ في صحة استنتاجاتك؟ مثلًا، هل أنت واثق من أن البصمتَين رقمَي واحد واثنين مُزيفتان؟»

«ليس لديَّ أي شك.»

«هل تُقسِم إنهما مزيفتان؟»

تردَّد السيد سينجلتون لحظة. كان قد أخذ يُراقِب القاضي والأعضاء المُحلَّفين ومن الواضح أنه كان قد أساء فهم دهشتهم؛ إذ افترض أنها بسبب قدراته الرائعة على التفريق بين المزيف والحقيقي من البصمات؛ ومِن ثَمَّ كان قد استعاد ثقته بنفسه.

أجاب: «أجل؛ أقسم إن هاتَين البصمتَين مزيفتان.»

جلس أنستي، وبعد أن مرَّر السيد سينجلتون ملحوظاته إلى القاضي، انسحب من منصة الشهود وأفسح مكانه لزميله.

وأما السيد ناش، الذي كان قد استمع إلى الشهادة بارتياح ظاهر، فتقدَّم إلى منصة الشهود وقد استعاد كل ثقته. إذ كان اختياره للبصمات الحقيقية والمزيفة متطابقًا تقريبًا مع اختيار السيد سينجلتون، ومعرفته بهذا جعلته يُدلي باستنتاجاته بمظهر الواثق والجازم.

وقد أجاب على سؤال أنستي: «أنا راضٍ ومُقتنع تمامًا بصحة إفاداتي، ومُستعد للقَسَم، بل وأقسم إن البصمات التي حدَّدت أنها مزيفة هي مزيفة حقًّا، وأن تحديدها لا يُمثِّل صعوبةً لفاحصٍ يتمتَّع بالخبرة في مجال البصمات.»

قال القاضي، حين غادر الشاهد المنصة وعاد إليها ثورندايك ليُكمل شهادته: «ثمة سؤال واحد أريد أن أطرَحه. إن الاستنتاجات التي توصَّل إليها الشاهدان الخبيران مُتماثلة تمامًا؛ وهي استنتاجات صادقة توصَّلا إليها بأحكامٍ فردية ومن دون اتِّفاق بينهما أو مقارنة للنتائج. إنها تتفق تمامًا بعضها مع بعض. والآن، الأمر الغريب هو الآتي: أن

استنتاجاتهما خاطئة في كل الحالات» (هنا كدتُ أُطلِق ضحكةً بصوتٍ عالٍ؛ لأنني عندما وجَّهتُ نظراتي للخبيرَين، تغيَّرت تعبيرات الارتياح المُتعجرفة على وجهيهما بسرعة البرق إلى تشنُّجات مضحكة تنمُّ عن الذُّعر)؛ «لم تكن استنتاجاتهما خاطئةً في أحيانٍ وصحيحةً في أحيان أخرى، كما كان سيحدُث لو أنهما كانا يُجريان تخميناتٍ مجردة، بل كانت خاطئةً في كل مرة. فحين يكونان واثقَين تمامًا، يكونان مُخطئين تمامًا؛ وحين يعتريهما الشك، يميلان إلى الاستنتاج الخاطئ. هذه مصادفة غريبة يا دكتور ثورندايك. هل يمكنك تفسيرها؟»

استرخى وجه ثورندايك وظهرت عليه ابتسامة جافَّة بعد أن كان خاليًا من التعبير طوال الإجراءات السابقة وكأنه وجه تمثال.

وأجاب: «أظن أنه يمكنني ذلك يا سيدي. تكون غاية المزَوِّر في صنع بصمة زائفة هي خداع من سيفحصونها.»

غمغم القاضي «آه!»؛ وارتخت تعبيراته متحولةً إلى ابتسامة جافة، في حين تفشَّت ابتساماتٌ عريضة بين أعضاء هيئة المحلَّفين.

وأكمل ثورندايك: «كان واضحًا لي أن الخبيرَين لن يتمكَّنا من التفريق بين البصمة الحقيقية والبصمة المزيفة، وعلى هذا سيبحثان عن دليلٍ إضافي لإرشادهما. ومن ثمَّ قدمتُ لهم ذلك الدليل الإضافي. والآن إن أخذنا عشر بصماتٍ من إصبعٍ واحدة — ومن دون احتياطات خاصة — فعلى الأرجح لن نجد تطابقًا بين أي اثنتَين منها؛ ولأن الإصبع جسم مُستدير لا يمس الورقة منه إلا جزء صغير، فالبصمة التي سيتركها لن تُظهِر إلا اختلافات طفيفة طبقًا للجزء من الإصبع الذي صنع هذه البصمة. لكنَّ ختمًا كالذي استخدمتُه يحوي سطحًا مُستويًا كسطح حرفٍ في آلة طباعة، ومثل الحرف في آلة الطباعة، دائمًا ما يطبع الطبعة ذاتها. فالختم لا يُعطينا طبعةً للأنملة، بل لجزءٍ مُعين من الإصبع، وبذا إن صنعنا عشر بصماتٍ بختم واحد، فإن كل طبعة ستكون تكرارًا آليًّا للتِّسع بصمات الأخرى. وعليه، على ورقة عشرون بصمة، عشر منها مُزيفة صُنِعَت بختمٍ واحد، سيكون من السهل تحديد البصمات المُزيفة العشر، حيث ستكون كلها نسخًا آلية مُكررة بعضها من بعض؛ في حين يمكن تمييز البصمات الحقيقية من خلال حقيقة أن كلًّا منها تُقدِّم اختلافاتٍ طفيفة في وضعية الإصبع.

متوقِّعًا لهذه الطريقة في الاستدلال، كنت حريصًا على عمل كل بصمةٍ بختم مُختلف وكل ختم كان يحمل بصمة إبهام مختلفة، وأضفت إلى ذلك اختيار بصمات إبهام متنوعةً

قدْر الإمكان حين صنعتُ الأختام. علاوةً على ذلك، حين صنعت البصمات الحقيقية، كنت حريصًا قدْر ما أمكنني على الضغط بالإبهام بالوضعية نفسها في كل مرة؛ وهكذا، كانت بصمات الإبهام الحقيقية كلها متشابهة تقريبًا على الورقة التي قُدِّمت إلى الخبيرَين، في حين أظهرت البصمات المُزيفة اختلافًا كبيرًا. أما الحالات التي كان الشاهدان واثقَين بشأنها فكانت هي الحالات التي نجحتُ فيها في جعل البصمات الحقيقية تتكرَّر، وأما الحالات التي كانت لديهم شكوك بشأنها فكانت هي التي أخفقت فيها جزئيًّا في تحقيق ذلك.»

قال القاضي بابتسامةٍ تنمُّ عن ارتياح عميق، كالذي يظهر على وجه القاضي حين يُسقَط شاهد خبير من برجه العاجي: «شكرًا لك، هذا واضح تمامًا. يُمكننا الآن متابعة الاستجواب، يا سيد أنستي.»

عاود أنستي سؤال ثورندايك، قائلًا: «لقد أخبرتنا وقدَّمت من الأدلة ما يفيد أن من الممكن تزوير بصمة إبهام بحيث يكون من المُستحيل اكتشافها. كما أفدتَ أيضًا أن بصمة الإبهام التي وُجِدت على الورقة في خزينة السيد هورنبي هي بصمة مزيفة. فهل تقصد أنها ربما تكون مُزيفة، أم إنها بصمة مزيفة حقًّا؟»

«بل أقصد أنها مزيفة حقًّا.»

«متى وصلتَ إلى استنتاج أنها مزيفة؟»

«حين رأيتها في سكوتلانديارد. كانت هناك ثلاث حقائق تُشير إلى هذا الاستنتاج. أولًا، كان من الواضح أن البصمة صُنِعت بدمٍ سائل، ومع ذلك كانت واضحةً للغاية ومميَّزة. لكن لا يمكن إنتاج مثل هذه البصمة الواضحة بالدم السائل من دون استخدام لوح تحبير وفرشاة دوَّارة، حتى لو بذلنا قدرًا كبيرًا من الاعتناء، وتزداد صعوبة إنتاجها أكثر لو أردْنا صناعتها بلطخة عارضة من الدم.

ثانيًا، عندما أجريتُ قياسًا للبصمة بميكرومتر، وجدتُ أنها لا تتوافق من حيث الأبعاد مع بصمةٍ حقيقية وأصيلة تعود لروبين هورنبي. كانت أكبر بقدْرٍ واضح وملحوظ. صَوَّرتُ البصمة فوتوغرافيًّا مع الميكرومتر، وعندما أجريتُ مقارنةً لها مع بصمةٍ حقيقية لروبين هورنبي، أيضًا صَوَّرتها مع الميكرومتر نفسه، وجدتُ أن البصمة المشكوك فيها أكبر بمقدار واحد على أربعين من البوصة، من نقطة مُعينة على نمط النتوءات إلى نقطة معينة أخرى. ولديَّ هنا صور مكبَّرة للصورتَين يظهر فيهما بوضوح الاختلاف في الحجم بينهما بفعل خطوط الميكرومتر. لديَّ أيضًا الميكرومتر المُستخدَم نفسه وجهاز ميكروسكوب محمول، إن أرادت المحكمة التحقق من الصور بنفسها.»

فقال القاضي بابتسامة لطيفة: «شكرًا لك، سنقبل بشهادتك تحت القَسَم ما لم يُطالِب مُمثل الادعاء المحنَّك بالتحقُّق.»

وتلقَّى الصور التي سلَّمه إيَّاها ثورندايك، وبعد أن طالعها باهتمام بالغ، مرَّرها إلى هيئة المحلَّفين.

وأضاف ثورندايك: «الحقيقة الثالثة أهم بكثير؛ فهي لا تُثبت وحسب أن البصمة مزيفة، بل تُقدِّم أيضًا دليلًا مميزًا للغاية على أصل عملية التزوير هذه، ومن ثمَّ على هُوية المزيِّف.» (هنا سكتت القاعة حتى صار الصمت مطبقًا، لدرجة أن صوت دقات عقارب الساعة بدا واضحًا. ونظرتُ إلى والتر الذي جلس جامدًا بلا حراك في طرف المقعد، ولاحظتُ أن شحوبًا شديدًا سرى على وجهه، في حين كانت جبهته مُغطاةً بحبَّات العرق.) «لدى فحص البصمة عن كثب، لاحظت في جزءٍ منها علامةً أو مساحة بيضاء دقيقة. كان شكلها على شكل حرف S كبير، ولا شك أن سببها شائبة في الورقة — نسيج سائب من الورقة التصق بالإبهام ونُزع بسببه من الورقة تاركًا مكانه حيزًا فارغًا. لكن عند فحص الورقة تحت الميكروسكوب بدرجة تكبير مُتدنية، وجدتُ أن سطح الورقة سليم ولا شيء به. لم أجد نسيجًا سائبًا منفصلًا عنها؛ لأنه لو كان هناك نسيج سائب، لبدا لي طرفه المقطوع، أو على الأقل الحز الذي تخلَّف بانتزاعه. وبدا لي أن الاستنتاج هو أن النسيج السائب كان موجودًا في الورقة الأصلية التي كانت تحتوي على بصمة الإبهام الحقيقية، لا في الورقة التي وُجِدَت في الخزينة. والآن، وعلى حدٍّ علمي، لم يكن هناك بصمة لروبين هورنبي لا شك بشأنها إلا بصمة واحدة، وهي البصمة التي في سجل بصمات الإبهام. وبطلبٍ مني، أحضرَتِ السيدة هورنبي السجل إلى مقر عملي، ولدى فحص بصمة إبهام روبين هورنبي اليُسرى في السجل، لاحظتُ مسافةً بيضاء دقيقة تأخذ شكل الحرف S الكبير وتحتلُّ موضعًا مشابهًا لموضعها في بصمة الإبهام الحمراء؛ وحين فحصتُها بعدسة قوية، كان بوسعي أن أرى بوضوح الحز الضئيل في الورقة الذي كان النسيج السائب في مكانه والذي كان قد نزعه منها الإبهام المُحبَّر. من ثمَّ أجريتُ مقارنةً منهجيةً للعلامة في كِلتا البصمتَين؛ فوجدتُ أن أبعاد العلامة تتناسب في كلتا البصمتَين؛ أي إن العلامة التي في بصمة سجل البصمات طولها يساوي ٢٦ / ١٠٠٠ من البوصة وعرضها يساوي ١٤,٥ / ١٠٠٠ من البوصة، في حين أن العلامة في البصمة الحمراء كانت أكبر منها بحوالي ٢,٥ بالمائة في كِلا البُعدَين، فيبلغ طولها ٢٦,٦٥ / ١٠٠٠ من البوصة وعرضها ١٤,٨٦ / ١٠٠٠ من البوصة؛ كما وجدتُ أن شكل العلامة في كِلتا البصمتَين مُتطابق، كما

هو موضَّح من خلال تراكب آثار العلامتَين على صورتَين مكبرتَين للغاية لكل علامة على درجات تكبيرٍ متماثلة؛ ووجدتُ كذلك أن العلامة تتقاطع مع نتوءات البصمة بالشكل نفسه وفي الأماكن نفسها في كلتا البصمتين.»

«هل تقول، مع الأخذ في الاعتبار الحقائق التي ذكرتَها الآن، إنك على يقينٍ من أن البصمة الحمراء مزيَّفة؟»

«نعم؛ وأقول أيضًا إن مِن المؤكَّد أن البصمة المزيَّفة صُنِعَت باستخدام البصمة التي في سجلِّ بصمات الإبهام.»

«ألَا يمكن أن يكون التشابُه محض صدفة؟»

«كلَّا. فطبقًا لقانون الاحتمالات الذي شرحه السيد سينجلتون بوضوح كبير في إفادته، فإن الاحتمالات المعاكسة ستصِل إلى ملايين لا حصر لها. هاتان بصمتان صُنِعتا في مكانَين مختلفَين وفي وقتَين مختلفَين؛ والفاصل الزمني بينهما يمتدُّ لعدة أسابيع. وكل بصمة منهما تحمِل علامةً عرضية لا ترجع إلى سمةٍ خاصة بالإبهام، بل إلى سمة خاصة بالورقة. وطبقًا لنظرية الاحتمالات، من الضروري أن نفترِض أن كلَّ ورقة من الورقتَين اللتَين تحملان البصمتَين كان بها نسيج سائب له نفس الشكل والحجم تمامًا، وأن هذا النسيج علق بالإبهام، بطريق المصادفة، في الموضع نفسه تمامًا. لكن هذا الافتراض سيتعارض مع الاحتمالات أكثر من تعارُض افتراض آخر مفاده أن البصمتَين المتطابقتَين صنعهما شخصان مختلفان. ثم تأتي حقيقة أن الورقة التي وُجِدَت في الخزينة ليس بها نسيج سائب يُفَسِّر سبب وجود العلامة.»

«وما تفسيرك لوجود الدم المنزوع الفبرين في الخزينة؟»

«من المُرجَّح أن المُزوِّر استخدَمه في صناعة البصمة؛ لأن استخدام الدم الطازج لهذا الغرض لن يكون ملائمًا بسبب قابليته للتخثُّر. من المُرجَّح أن المزوِّر كان يحمل قدرًا صغيرًا منه في زجاجة، إضافةً إلى لوح التحبير والفرشاة الدوَّارة التي اخترعها السيد جالتون. من ثم يمكن أن يكون المزوِّر قد وضع قطرةً منه على لوح التحبير، ونشرَه ليصنع به شريحةً رقيقة ثم أخذ منه طبعةً نظيفة باستخدام ختمِه. ولا بد أن نتذكَّر أن اتخاذ المُزوِّر لهذه الاحتياطات كان أمرًا ضروريًّا؛ لأنه كان يتعيَّن عليه أن يصنع بصمةً مميَّزة من المحاولة الأولى. فإخفاقه في ذلك ومحاولته مرةً أخرى ستعني تخريب المظهر العرضي للبصمة، ومن شأن هذا أن يُثير الشكوك.»

«لقد أخذتَ صورًا فوتوغرافية مكبَّرة للبصمات، أليس كذلك؟»

«بلى. لديَّ هنا صورتان مكبَّرتان، إحداهما للبصمة من السجل، والثانية للبصمة الحمراء. العلامة البيضاء تظهر فيهما بوضوحٍ شديد وتساعد في مقارنتهما بالبصمتَين الأصليتَين اللتَين تظهر فيهما العلامة بوضوحٍ باستخدام عدسة.»

سلَّم ثورندايك الصورتَين إلى القاضي، ومعهما سجل بصمات الإبهام، وقطعة الورق المقطوعة من مفكرة السيد هورنبي، وعدسة مكبرة قوية ليفحصها بها.

فحص القاضي الوثيقتَين الأصليتَين بمساعدة العدسة وقارنهما بالصورتَين الفوتوغرافيتَين، وكان يومئ بالموافقة وهو يُحدِّد نقاط التوافُق بينها. ثم مرَّرها القاضي إلى هيئة المُحلَّفين ودوَّن ملحوظاتٍ في مفكِّرته.

وبينما كان هذا يحدُث جذب انتباهي والتر هورنبي. كان تعبيرا الذُّعر والقنوط قد استقرَّا على وجهه الذي أصبح شديد الشحوب ومُبتلًّا بفعل العرق. نظر والتر هورنبي خلسةً وبمكرٍ إلى ثورندايك، وإذ لاحظتُ كراهيته القاتلة تجاه ثورندايك في عينَيه، تذكَّرتُ مغامرتنا في منتصف الليل في شارع جون وتذكَّرت مسألة السيجار الغامض.

نهض والتر واقفًا فجأة، ومسح جبهته واستند على المقعد بيدٍ مرتعشة ليُثبِّت نفسه؛ ثم مشى في هدوء نحو الباب وخرج. ويبدو أنني لم أكن المُتفرج الوحيد الذي كان مُهتمًّا بما فعله؛ ذلك أن رئيس الشرطة ميلر نهض بعدَه وخرج من الباب الآخر.

سأل القاضي وهو ينظر إلى السير هيكتور ترامبلر: «هل ستستجوب هذا الشاهد؟»

أجاب: «كلَّا يا سيدي.»

«هل ستستدعي مزيدًا من الشهود، يا سيد أنستي؟»

وأجاب أنستي: «شاهد واحد فقط، يا سيدي، وهو المُتهم، كمسألة شكلية، من أجل أن يدلي بإفادة تحت القسَم.»

ثمَّ اقتيد روبين من قفص الاتهام إلى منصة الشهود، وبعد أن أدلى بالقسَم، أعلن بطريقةٍ رصينة أنه بريء. تبع ذلك استجواب مُقتضب لم يُستنبَط منه شيء سوى أن روبين كان قد أمضى الأمسية في ناديه وأنه عاد إلى محل إقامته حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف وأنه دخل باستخدام مفاتيحه. وفي الأخير جلس السير هيكتور؛ وأُعيد المُتهم إلى قفصه، وقرَّرت المحكمة الاستماع إلى مداخلات المحامين.

شرع أنستي يقول بنبرته الصافية الرخيمة: «سيدي القاضي والسادة أعضاء هيئة المُحلَّفين، لا أريد أن أبدِّد وقتكم في خطابٍ طويل. إن الأدلة والشهادات التي قُدِّمت لكم واضحة ومفهومة وحاسمة في الوقت نفسه، بحيث لا شكَّ في أنكم ستتوصَّلون إلى حكمكم

دون أن تتأثَّروا بأي عرضٍ خطابي سواء من جانبي أو من جانب المُمثل الموقَّر لجهة الادعاء.

غير أنه من المُستحسَن أن نُفَصِّل الوقائع والحقائق الجوهرية والحاسمة من هذا القدْر من الأدلة.

والآن، الحقيقة التي تبرُز في هذه القضية وتُهيمن عليها هي الآتية: أن صِلة المُتهم بالقضية ترتكِز فقط على نظرية الشرطة القائمة على معصومية البصمات ونزاهتها. وبمنأًى عن البصمة باعتبارها دليلًا، لا يوجَد — ولم يكن هناك مُطلقًا — أدنى قدْر من الشكِّ في المُتهم. لقد سمعتم عنه أوصافًا مفادها أنه رجل ذو شرَف لا تشوبه شائبة، وشخصيته منزَّهة عن العيب واللوم؛ وأنه رجل يحوز على ثقة كلِّ من يتعامل معه. ولم يمنحه هذه الصفات شخص غريب، بل منحه إيَّاها رجل يعرفه من طفولته. إن له سجلًّا حافلًا بالسلوك المُشرِّف؛ وكانت حياته حياة رجل نبيل ومُستقيم. والآن يقف أمامكم مُتهمًا بجريمة نكراء وحقيرة هي السرقة؛ يقف مُتهمًا بأنه سرق صديقه السخيَّ وعمَّه والرجل المُحسن له منذ طفولته والذي عمل جاهدًا من أجل رفاهته؛ باختصارٍ أيها السادة، إنه مُتهم بجريمة تقول كل الظروف المُرتبطة به وكل سماته الشخصية المعروفة عنه إنها لا تُصدَّق ولا تُتصوَّر عنه. والآن، على أي أساسٍ وُجِّه إلى هذا الشاب النبيل والنزيه الاتهام بهذه الجريمة النكراء؟ بكلِّ وضوحٍ وجلاء، أساس اتهامه هو الآتي: أن رجلًا عالمًا بارزًا وقديرًا أكَّد، ولم تقبل الشرطة بهذا التأكيد وحسب، بل وتجاوزوا عمليًّا معناه الأصلي. والتأكيد يقول: «إن تطابقًا تامًّا أو شِبهَ تامٍّ بين بصمتَين لإصبع ... يُمثِّل دليلًا كافيًا لا يحتاج إلى تأييد بأنهما تعودان إلى الشخص نفسه.»

هذا التأكيد، أيها السادة، مُضَلِّل لأقصى درجة، وما كان ينبغي الإدلاء به دون مراعاة المحاذير والشروط المُرتبطة به. عمليًّا، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة، بحيث إن عكسه تمامًا هو الحقيقة؛ بمعنى أن وجود بصمة دليلًا من دون وجود ما يؤيدها هو أمر لا قيمةَ له على الإطلاق. ومن بين كل أشكال التزييف، فإن تزييف بصمةٍ هو الأسهل والأكثر أمانًا، كما رأيتم جميعًا اليوم. فكِّروا في شخصية المُزوِّر الرفيع المستوى؛ تأمَّلوا مهارته وقُدرته على الابتكار وسعة حيلته. وانظروا إلى أوراق المال المُزيفة التي لا يُقلِّد نقشها وتصميمها وتوقيعها فقط، بل حتى الورق نفسه وعلاماته المائية، انظروا كيف تُقَلَّد بإتقانٍ يُثير إعجاب ويأس أولئك الذين يتعيَّن عليهم التمييز بين الحقيقي منها والمُزيَّف؛ وانظروا إلى الشيكات المُزوَّرة التي يُقَلِّد فيها المُزوِّر الثقوب ويقتطع أجزاءً منها ويستبدل بها أجزاء

أخرى لا يمكن تمييزها؛ تأمَّلوا كل هذا، ثم تأمَّلوا البصمات التي يمكن لأي صبي حفار فوتوغرافي أن يصنع لكم منها نُسخًا مُزيفة لا يستطيع أفضل الخبراء حتى أن يُميزوها عن الأصلية، ويمكن لأي هاوٍ بارعٍ بعد التدريب عليها لشهرٍ أن يُقلِّدها تقليدًا لا يسمح بكشفِها؛ ثم اسألوا أنفُسكم إن كان هذا هو نوع الأدلة التي يجب على أساسها، ومن دون وجود ما يدعمها أو يؤكِّدها، أن يُجرَّ رجل ذو شرَف ومكانة إلى محكمة جنائية ويُتَّهم بارتكاب جريمة من أدنى وأقذر الجرائم.

لكني لن ألفت أنظاركم إلى مناشدات ومطالبات غير ضرورية. بل سأُذكِّركم بالحقائق الجليَّة. ترتكز دعوى جهة الادعاء على التأكيد على أن بصمة الإبهام التي وُجِدَت في الخزينة كانت من صُنع إبهام المُتهم. وإن لم يكن المُتهم قد صنع هذه البصمة، فلا يعني هذا سقوط الدعوى بحقِّه فحسب، بل سقوط أي اشتباهٍ من أي نوع.

والآن، هل هذه البصمة من صُنع إبهام المتهم؟ لقد حصلتم على أدلَّةٍ دامغة تُثبت عدم صحة ذلك. فقد اختلفت تلك البصمة عن البصمة الأصلية للمُتهم من حيث حجم أو مقياس نمط النتوءات. كان الاختلاف طفيفًا، لكنه أصاب نظرية الشرطة عن المُتهم في مقتل؛ فالبصمتان ليستا متطابقتَين.

لكن، إن لم تكن هذه البصمة هي بصمة إبهام المُتهم، فما هي إذن؟ كان التشابُه بين النمطَين دقيقًا للغاية بحيث لا يمكن اعتبارها بصمة شخصٍ آخر؛ لأنها لم تُنتِج نمط النتوءات على إبهام المُتهم وحسب، بل نتج عنها أيضًا ندبة تعود لجرحٍ قديم. والإجابة التي أقترِحها على هذا السؤال هي أن هذه البصمة كانت تزويرًا لإبهام المُتهم وكانت الغاية منها إثارة الشبهات حول المتهم ومن ثمَّ ضمان سلامة المُجرم الحقيقي. هل هناك أي حقائق تدعم هذه النظرية؟ أجل، هناك عدة حقائق تدعمها بقوة.

أولًا: لديكم الحقائق التي ذكرتها الآن. بصمة الإبهام الحمراء لا تتفق مع البصمة الأصلية من حيث المقاس أو الأبعاد. لم تكن هذه البصمة هي بصمة المُتهم؛ لكنها لم تكن كذلك بصمة أي شخصٍ آخر. البديل الوحيد هنا هو أنها كانت مزيفة.

ثانيًا: لا شك في أن هذه البصمة صُنعت باستخدام معدات ومواد معيَّنة، وقد وُجِدت إحدى هذه المواد في الخزينة، وأعني تحديدًا الدم المنزوع الفبرين.

ثالثًا: لدَينا المصادفة المُتمثِّلة في أن البصمة كان من الممكن تزويرها. فالمُتهم يملك عشر أصابع؛ ثماني أصابع وإبهامَين. لكن كانت توجَد بالفعل بصمة لإبهامَيه، في حين لم

تكن هناك أي بصماتٍ متاحة لأصابعه؛ من ثمَّ سيكون من المُستحيل تزييف بصمةٍ لأي إصبع من أصابعه. وهكذا نجد أن بصمة الإبهام الحمراء تشابهت مع إحدى البصمتَين اللتَين كان من الممكن تزييفهما.

رابعًا: بصمة الإبهام الحمراء تُعيد إنتاج سمة عارضة من سمات البصمة الموجودة في سجلِّ بصمات الإبهام. والآن، إذا كانت بصمة الإبهام الحمراء مزيَّفة، فلا بد أنها صُنِعَت من البصمة الموجودة في سجل بصمات الإبهام؛ حيث لا توجَد أي بصمة أخرى يمكن صُنعها منها. وبذا نقِف أمام حقيقة مُذهلة وهي أن بصمة الإبهام الحمراء هي نسخة طبق الأصل — بما في ذلك السمات العارضة — للبصمة الوحيدة التي يمكن استخدامها في صُنع بصمةٍ مزيَّفة. والعلامة العارضة التي تتَّخذ شكل حرف S كبير في سجل بصمات الإبهام سببها حالة الورقة نفسها؛ أما وجود هذه العلامة في البصمة الحمراء فلا تُفسِّره حال الورقة، ولا يمكن تفسيره بأي طريقة، سوى من خلال افتراض أنها نسخة عن الأخرى. ولذلك فالنتيجة الحتمية هي أن بصمة الإبهام الحمراء نسخة ضوئية وميكانيكية للبصمة الموجودة في سجل بصمات الإبهام.

لكن ثمة نقطة أخرى. إذا كانت بصمة الإبهام الحمراء هي نسخة مُعاد إنتاجها من البصمة الموجودة في سجل بصمات الإبهام، فلا بدَّ إذن أن يكون المُزوِّر قد تمكَّن من الوصول إلى السجل في وقتٍ ما. والآن، لقد سمعتم القصة الرائعة التي ذكرتها السيدة هورنبي عن الاختفاء الغامض للسجلِّ وظهوره الأكثر غموضًا. لا يمكن أن تكون هذه القصة قد تركت في أذهانكم أي شكٍّ في أن شخصًا ما أخذ سجلَّ البصمات خلسة، وأعاده سرًّا بعد مدة غير معروفة من الزمن. وبذا نجد أن النظرية القائلة بأن هذه البصمة مزوَّرة تلقى دعمًا وتأكيدًا في كل نقطةٍ من نقاطها، وأنها تتوافق مع كل الحقائق والوقائع المعروفة؛ في حين أن النظرية القائلة بأن بصمة الإبهام الحمراء هي بصمة حقيقية هي نظرية مَبنية على افتراض غير مُبرَّر، ولم تُقَدَّم حقيقة واحدة تدعمها.

وبِناءً على ذلك، أيها السادة، أؤكِّد على أن براءة المتهم قد ثَبتت بأكثر الطرُق اكتمالًا وإقناعًا، وأطلب منكم الحكم بما يتوافق مع ذلك الإثبات.»

عندما عاد أنستي إلى مقعده، سُمِعَ تصفيق خافت من منصة المشاهدين. وهدأ الصوت على الفور بإشارةٍ من القاضي تنمُّ عن الاستنكار، فعمَّ القاعةَ الصمت، وشرعت الساعة في عدم اكتراثٍ ساخر تُعلن بنغمتها الرتيبة والفظَّة مرور الثواني العابرة.

همست جولييت بانفعال: «لقد نجا يا دكتور جيرفيس! لقد نجا بالتأكيد! لا بدَّ أنهم يرَون الآن أنه بريء.»

فأجبتُها: «اصبري قليلًا. قريبًا جدًّا سينتهي كل شيء.»

كان السير هيكتور ترامبلر قد نهض بالفعل، وبعد أن رمق هيئة المُحلَّفين بنظرة صارمة مُخَدِّرة، اندفع بحماسٍ في ردِّه في جوٍّ من الإقناع والصِّدق يُثيران الإعجاب بحق.

فقال: «سيادة القاضي، السادة أعضاء هيئة المُحلَّفين: إن الدعوى التي أمام عدالة المحكمة اليوم، كما سبق وأن ذكرت، تُسلط ضوءًا سلبيًّا للغاية على الطبيعة البشرية. لكنني لستُ بحاجة إلى أن أشدِّد على هذا الجانب من القضية، هذا الجانب الذي لا شكَّ في أنه قد أثَّر فيكم بما يكفي. ولا يبقى من الضروري أمامي، كما أشار بجدارة صديقي المُوقَّر، سوى أن أستخلِص حقائق هذه الدعوى من شبكة التحايُلات التي نُسِجت حولها.

وهذه الحقائق في غاية البساطة. فقد فُتِحت خزينة وسُرِقَ منها غرضٌ ذو قيمة كبيرة. وفُتحت هذه الخزينة بمفاتيح منسوخة. والآن هناك رجُلان فقط كانا يحوزان بين حينٍ وآخر المفاتيح الأصلية لهذه الخزينة، ومن ثمَّ كانت أمامهما فرصة صُنع نُسَخ عنها. وحين فتح مالك الخزينة الشرعي خزينته، كان الغرَض قد اختفى، وقد وُجدت بصمة إبهام أحد هذَين الرجُلَين. لم تكن تلك البصمة موجودةً حين أُغلِقت الخزينة. والرجل الذي وُجدت بصمتُه فيها أعسر؛ والبصمة تعود لإبهامٍ يسرى. يبدو لي أيها السادة أن ما نخلُص إليه من هذا في غاية الوضوح بحيث لا يمكن لأي إنسانٍ عاقل أن يُحاجَّه؛ وأؤكِّد لكم على أن الاستنتاج — الممكن والوحيد — الذي سيصل إليه أي إنسانٍ عاقل هو أن البصمة التي عُثِر عليها في الخزينة هي بصمة الشخص الذي سرق الغرض منها. غير أن البصمة التي عُثِر عليها تعود — وباعتراف الجميع — إلى المُتهم الماثل أمامكم، ومن ثمَّ فإن المُتهم هو من سرق الألماس من الخزينة.

صحيح أن بعض المحاولات الخيالية قد بُذِلَت للتقليل من أهمية هذه الحقائق الواضحة. لقد طُرحت بعض النظريات العلمية المُتكلَّفة والبعيدة الاحتمال، كما عُرِضت بعض الحِيَل الخداعية التي أظن أنها كانت ستُصبح ملائمةً أكثر إن عُرضت في مكانٍ للترفيه العام وليس أمام محكمة عدلية. لا شك أن ذلك العرض وفَّر لكم تسليةً كبيرة. فقد سرَّى عنكم كثيرًا وأخرجكم من جدِّية الأعمال في المحكمة. بل إنه حتى كان عرضًا تثقيفيًّا؛ إذ بيَّن إلى أي درجةٍ يمكن تحريف الحقائق الواضحة من خلال الابتكار المُضلِّل. لكن ما لم تكونوا على استعدادٍ للنظر لهذه القضية على أنها خدعة مُتقنة — أو طرفة

ثقيلة نفَّذها مجرم ساخِر يتمتَّع بمعرفةٍ ومهارة وإنجازات عامة غير عادية — فيجب عليكم في نهاية المطاف أن تصلوا إلى النتيجة التي تُبرِّرها الحقائق والوقائع: وهي أن هذا المُتهم فتح الخزينة وسرق الغرض. وعلى هذا أيها السادة، وبالأخذ في الاعتبار منصبكم المُهم باعتباركم أوصياء على سلامة مواطنيكم وأمنهم، ألتمس منكم أن تُصدِروا حكمًا وفقًا للأدلة، وذلك بحسب ما أقسمتُم عليه؛ وأُشدِّد على أن مفاد هذا الحُكم هو أن المُتهم مذنب بالجريمة المنسوبة إليه.»

جلس السير هيكتور، أما أعضاء هيئة المُحلَّفين، الذين كانوا قد أنصتوا لحديثه بانتباهٍ خالص، فحدَّقوا في القاضي في ترقُّب، وكأنهم يريدون أن يقولوا له: «والآن، أيٌّ من هذين يجب علينا أن نُصَدِّق؟»

قلَّب القاضي في ملحوظاته بجوٍّ من الاتزان والهدوء، مُدَوِّنًا كلمةً هنا وأخرى هناك وهو يُقارن النقاط العديدة والمختلفة المتعلقة بالشهادات والأدلة. ثم التفت إلى هيئة المُحلَّفين الْتفاتةً تدل على الاستمالة والخصوصية.

وشرع يقول: «لا حاجة لي أيها السادة إلى أن أُطيل عليكم بتحليلٍ شامل للأدلة والشهادات. تلك الشهادات التي سمعتموها بأنفسكم والأدلة التي قُدِّمت لكم في الغالِب بوضوحٍ مُثير للإعجاب. علاوةً على ذلك، جمع مُمثل الدفاع الموقَّر هذه الأدلة والشهادات وقارنها بوضوح تام، وأستطيع أن أقول بحيادٍ تامٍّ أن تكرار ذلك تفصيليًّا من جانبي سيكون من نافلة القول. من ثَمَّ سأقتصر على بعض التعليقات التي يمكن أن تساعدكم بينما تنظرون في حكمكم.

لا حاجة لأن أُبرز أنَّ ما أشار إليه مُمثل الادعاء الموقَّر بشأن النظريات العلمية المُتكلفة هو إشارة مُضلِّلة إلى حدٍّ ما. فالشهادة الوحيدة التي كانت لها سِمة نظرية هي الشهادة التي قدَّمها خبيرا البصمات. أما شهادة الدكتور رو والدكتور ثورندايك فتناولتا حصرًا مسائل واقعية. والاستنتاجات التي توصَّلا إليها كانت مصحوبةً بالبيانات والإفادات التي أدَّت إلى هذه الاستنتاجات.

والآن، فإن استعراضًا للشهادات والأدلة التي سمعتموها ورأيتموها يُبيِّن، كما أشار مُمثل الدفاع الموقَّر، أن الدعوى برمَّتها تُختَزَل في سؤالٍ واحد، وهو: «هل كانت بصمة الإبهام التي وُجِدَت في خزنة السيد هورنبي من صُنع إبهام المُتهم أم لا؟» إن كانت تلك البصمة من صنع إبهامه، فلا بد إذن أن المتهم كان، على الأقل، حاضرًا حين فُتِحَت الخزينة بطريقة غير مشروعة. وإن لم تكن من صنع إبهامه، فلا شيء يربطه بالجريمة.

إن المسألة تتعلَّق بالوقائع، والتي سيكون من واجبكم أن تُقرِّروا على أساسها؛ ويجب أن ألفت انتباهكم أيها السادة إلى أنكم أنتم الحكام الوحيدون على وقائع هذه القضية، وأنكم لا بد وأن تتناولوا تعليقاتي وملحوظاتي على أنها مجرد اقتراحات يمكن لكم أن تَقْبَلوها أو تتجاهلوها وفقًا لتقديركم.

والآن دعونا نُفكِّر في هذا السؤال في ضوء الأدلة والشهادات. إما أن هذه البصمة كانت من صُنع إبهام المُتهم وإما أنها لم تكن من صنعه. ما الأدلة التي قُدِّمَت لتُبيِّن أنها من صُنع المتهم؟ هناك دليل نمط النتوءات. فهذا النمط يتطابق مع نمط بصمة إبهام المتهم، بل ويحتوي كذلك على ندبة تتقاطع مع النمط بصورةٍ مُعينة في بصمته. ولسنا في حاجة لأن نخوض في الحسابات المُطوَّلة المتعلقة باحتمالات التطابق؛ فالحقيقة المُهمة والعملية هنا والتي لا جدال عليها أن بصمة الإبهام الحمراء هذه إن كانت بصمةً حقيقية، فقد صُنعت بإبهام المُتهم. لكن يُزعَم أنها ليست بصمةً حقيقية؛ أي إنها نسخة مقلَّدة، بل في الواقع نسخة مزورة.

وعليه يُصبح السؤال الأعم مُختَزَلًا إلى صيغة أكثر تحديدًا: «أهذه بصمة حقيقية أم مزيفة؟» لننظر في الوقائع والأدلة. أولًا، ما الوقائع التي تقول إن هذه بصمة حقيقية؟ لا توجَد أي وقائع تقول ذلك. فتماثُل نمط النتوءات لا يُمثِّل دليلًا عند هذه المرحلة؛ لأن البصمة المُزيَّفة ستُظهِر أيضًا تماثلًا في النمط. أما أصالة البصمة فهو أمر افترضَتْه جهة الادعاء، ولم تُقدِّم أي دليل عليه.

والآن، ما الأدلة على أن بصمة الإبهام الحمراء مزيفة؟

أولًا، هناك مسألة الحجم. لا يمكن أن يصنع إبهامٌ واحدٌ بصمتَين بحجمَين مختلفَين. وهناك أيضًا الأدلة التي تُشير إلى استخدام أدواتٍ في صنعها. فلصوص الخزائن لا يحملون معهم في الظروف العادية لوح تحبير وفرشاةً دوَّارة ليصنعوا بها بصمات مُميزة وواضحة لأصابعهم. هناك أيضًا العلامة العارضة على البصمة، والتي لا تتواجد كذلك إلا على البصمة الحقيقية الوحيدة التي يمكن استخدامها بغرَض التزييف، ومن السهل تفسير وجود هذه العلامة بِناءً على نظرية التزييف، لكن بخلاف ذلك، يُعَد وجودها مبهمًا وغير مفهوم. وأخيرًا، هناك مسألة الاختفاء الغامِض لسجل بصمات الإبهام وظهوره الأغرب. كل هذه أدلة قوية ومهمة، ويجب أن نُضيف إليها ما قَدَّمه الدكتور ثورندايك باعتباره يوضِّح أنه من الممكن للغاية تزييف البصمات.

هذه هي الحقائق الأساسية في هذه الدعوى، وعليكم أنتم يقع عبء النظر فيها. فإذا ما نظرتم فيها بعناية وقرَّرتم أن بصمة الإبهام الحمراء من صنع إبهام المُتهم، سيكون

من واجبكم أن تُعلنوا أنه مذنب؛ وإذا ما وازنتُم بين الأدلة وقرَّرتم أن البصمة مزيفة، فسيكون من واجبكم أن تُعلنوا أنه بريء. لقد تجاوزت الساعة الآن ساعة الغداء المُعتادة، وإن كنتم ترغبون، يمكنكم أن ينفرد بعضكم ببعض للتفكير في حُكمكم بينما ترفع المحكمة جلستها.»

تهامس أعضاء هيئة المُحلَّفين فيما بينهم لبضع لحظاتٍ ثم نهض رئيس الهيئة.

وقال: «لقد اتفقنا على حُكمنا، يا سيادة القاضي.»

هنا أُعيد السجين إلى قفص الاتهام بعد أن كان قد اقتيد إلى الحجز. ووقف كاتب المحكمة ذو الشعر المُستعار الرمادي وخاطب هيئة المُحلَّفين.

«هل اتفقتم جميعًا على حكمكم أيها السادة؟»

فأجاب رئيس الهيئة: «نعم.»

«ما حكمكم أيها السادة؟ هل السجين مذنب أم بريء؟»

فأجاب رئيس الهيئة وهو يرفع صوته وينظر إلى روبين: «بريء.»

اندلعت عاصفة من التصفيق والتهليل من منصة النظارة وتجاهلها القاضي للوقت الراهن. وبصوتٍ مرتفع ضحكت السيدة هورنبي — ضحكةً غريبة وغير طبيعية — ثم حشت منديلها في فمِها، وجلست على حالها هذا تحدِّق في روبين والدموع تنهمر على وجهها، بينما أسندت جولييت رأسها على الطاولة وراحت تبكي في صمت.

وبعد برهةٍ رفع القاضي يدَه منذرًا، وحين هدأت الضجة، وجَّه حديثه إلى السجين الذي كان يقف عند الحاجز هادئًا ورابط الجأش وإن كان في وجهه توهُّج طفيف:

«روبين هورنبي، بعد أن درست هيئة المُحلَّفين الأدلة في هذه الدعوى على نحوٍ وافٍ، وجدَتك الهيئة غير مُذنب بالجريمة التي نُسِبَت إليك. وأنا أتفق مع هذا الحُكم اتفاقًا تامًّا. وفي ضوء الأدلة التي تقدَّمت، أرى أنه لم يكن من الممكن التوصل إلى حُكم آخر، وأستطيع أن أقول إنك ستغادر هذه المحكمة ببراءة راسخة وسمعة ناصعة. إن تعاطف المحكمة وتعاطف كل الحاضرين يُرافقك في المِحنة التي واجهتَها مؤخرًا وفي فرحك بهذا الحكم، وذلك التعاطف لن يتضاءل بسبب اعتبار أنه لو كان الدفاع أقل كفاءة، لكانت النتيجة مختلفةً تمامًا.

وأودُّ أن أُعبِّر عن إعجابي بالطريقة التي أُجري بها ذلك الدفاع، وأودُّ بخاصة أن أنوِّه إلى أن عموم الجماهير مدينون بشدة، إلى جانبك، للدكتور ثورندايك الذي من المُرجَّح أنه نجح بفضل بصيرته ومعرفته وعبقريته في تجنُّب حدوث خطأ فادح في تطبيق العدالة. تُرفع جلسات المحكمة حتى الساعة الثانية والنصف.»

ثم نهض القاضي من مجلسه ونهض الحاضرون جميعًا؛ ووسط صخب وضجيج الأقدام على سُلَّم منصة المشاهدين، فتح رجل شرطة مُبتسِم باب قفص الاتهام ونزل روبين من القفص إلى قاعة المحكمة.

الفصل السابع عشر

نهاية المطاف

بعد أن انتهَينا من المباركة لروبين ووقفْنا حوله في القاعة التي أخذت تفرغ سريعًا، قال ثورندايك: «مِن الأفضل أن نترك القوم يُغادرون أولًا. فنحن لا نريد استعراضًا أثناء خروجنا.»

أجاب روبين: «أجل؛ هذا آخر شيء أريده الآن.» ظلَّ روبين ممسكًا بيد السيدة هورنبي وتأبط بذراعه الأخرى ذراع عمِّه الذي أخذ يُكفكف دموعه بين الحين والحين، غير أن وجهه كان متوهجًا بالبهجة.

أضاف ثورندايك: «أودُّ أن تأتوا معي جميعًا ونتناول غداءً هادئًا في مقرِّ عملي؛ نحن جميعًا باعتبارنا أصدقاء.»

قال روبين: «سيسرُّني هذا كثيرًا إذا كانت الخطة تنطوي على أن أغتسِل حتى أكتفي.»

وسأل ثورندايك أنستي: «هل ستأتي يا أنستي؟»

فسأله أنستي الذي كان قد خلع رداء المُحاماة وعاد إلى رُشدِه؛ أي عاد إلى شخصيته الغريبة والعبثية المعتادة: «ماذا لديك على الغداء؟»

أجابه ثورندايك: «هذا السؤال ينضح بالشراهة. تعالَ وانظر بنفسك.»

رَدَّ أنستي: «بل سآتي وآكُل، وهذا أفضل، ويجب أن أغادر سريعًا الآن؛ إذ يتعيَّن عليَّ أن أزور مقرَّ عملي زيارةً سريعة.»

وسأل ثورندايك، بينما اختفى زميله عبر الباب: «كيف سنغادر؟ لقد ذهب بولتون ليأتي لنا بعربة ذات أربع عجلات، لكنها لن تسعنا جميعًا.»

قال روبين: «ستحمل أربعةً منَّا، ويمكن للدكتور جيرفيس أن يُحضِر جولييت؛ أيمكنك هذا، يا جيرفيس؟»

فاجأني الطلب نظرًا للظروف المُحيطة، لكنني شعرت، مع هذا، بسعادةٍ وإثارة يُجاوزان الحد، فأجبت بسرعة وابتهاج: «سيسرُّني كثيرًا أن أفعل، إن سمحَت لي الآنسة جيبسون بذلك.» ويبدو أن جولييت لم تكن تشاركني سعادتي، وذلك بناءً على التورُّد الذي انتشر على مُحيَّاها وكان ينمُّ عن عدم ارتياح. لكنها لم تعترِض، بل اكتفت بأن أجابت بفتور: «ما دمنا لن نستطيع الجلوس على سقف العربة، فمن الأفضل أن نذهب بمُفردنا.»

وإذ كان حشد الناس بحلول ذلك الوقت قد انصرف، نزلنا جميعًا إلى الطابق السفلي. كانت عربة الأجرة تنتظر عند الرصيف تحفُّها مجموعةٌ من المُتفرِّجين، وقد هتفوا لروبين وهنَّئوه عندما ظهر عند الباب، ورأينا أصدقاءنا يركبون العربة وتنطلق بهم. ثم التفتنا وسِرنا مُسرعين في شارع أولد بايلي نحو شارع لودجيت هيل.

فسألتها: «هل تودِّين أن نستقلَّ عربة أجرة صغيرة؟»

أجابتني جولييت: «كلَّا؛ لنسِر، فنفحةٌ من الهواء الطيب والعليل ستفيدنا بعد المكوث في هذه المحكمة العفنة والمريعة. يبدو لي الأمر كلُّه كحلم، لكني أشعر بارتياح كبير ... أوه! كم أشعر بالراحة!»

رددتُ عليها: «الأمر أشبَه بالاستيقاظ من كابوس على إشراقة شمس الصباح.»

وافقتني قائلة: «أجل؛ هذا بالضبط ما يبدو عليه الأمر؛ لكنني ما زلتُ أشعر بالذهول والاضطراب.»

بعد قليلٍ انعطفنا إلى شارع نيو بريدج نحو منطقة إمبانكمنت، ونحن نسير جنبًا إلى جنب دون أن نتكلَّم، ولم يسعني إلا أن أُقارِن ببعض المرارة بين حالتنا الراهنة المُتسمة بالجمود والتباعُد وبين الحميمية والصداقة التي كانت بيننا قبل وقوع تلك الحادثة المؤسِفة في لقائنا الأخير.

في نهاية المطاف، قالت جولييت، وهي ترمقني بنظرة انتقاد: «لا تبدو جذلًا بما حقَّقتَ من نجاح كما كنتُ أتوقع؛ لكنني أظن أنك تشعر حقًّا بالفخر والسرور الشديدين، أليس كذلك؟»

«أنا مسرور، نعم؛ لكنني لستُ فخورًا. ولماذا أشعر بالفخر؟ لم ألعب إلا دورًا ثانويًّا صغيرًا، وحتى في ذلك فقد أخفقت إخفاقًا مريعًا.»

عاجلتني بالردِّ وهي ترمقني بنظرة سريعة وفاحصة أخرى: «هذا ليس بيانًا مُنصفًا للحقائق؛ لكنك اليوم في حالة معنوية منخفضة، وهذا منافٍ تمامًا لطبيعتك. أليس كذلك؟»

جاءها ردِّي الكئيب: «يؤسِفني أن أقول إنني أناني ومغرور. ينبغي أن أكون اليوم منشرح الصدر ومبتهجًا كالجميع، لكن الحقيقة أنني مهموم بمشاكلي الصغيرة. فبعد أن انتهت هذه القضية، ينتهي تلقائيًّا عملي مع الدكتور ثورندايك، ومن ثَمَّ سأعود إلى حياتي السابقة، التي هي تكرار مُمل وكئيب من الارتحال بين الغرباء، ولا يبدو هذا الأفق مبشرًا. لقد كانت المدة الماضية مدة امتحانٍ مرير لكم، لكنها كانت تُمثِّل لي واحةً غَنَّاء في صحراء حياة رتيبة وباهتة. لقد استمتعت بصحبة رجل مُقَرَّب إِلَى النَّفْس يحظى باحترامي وتقديري أكثر من كل الرجال الآخرين، ومعه انتقلتُ إلى أماكن مفعمة بالحيوية والتفاعل. كما اكتسبت صديقةً أخرى أكره أن أراها تنسحِب من حياتي كما يبدو أنها على الأرجح ستفعل.»

فقالت جولييت: «إن كنت تعنيني بقولك، فيمكنني القول إنني إن انسحبتُ من حياتك فستكون اللائمة عليك. لن أستطيع أبدًا أن أنسى كل ما فعلتَه من أجلِنا، وولاءك لروبين، وحماسك في قضيته، ناهيك عن ذكر أفعالك اللطيفة الكثيرة معي. أما عن قولك إنك أخفقتَ في أداء عملك، فإنك بذلك تظلِم نفسك ظلمًا فادحًا. لقد أدركتُ من الأدلة التي قُدِّمَت لإثبات براءة روبين كم بذلتَ من جهدٍ في تقديم التفاصيل الكاملة من أجل جعل الدعوى تامة ولا تُدحَض. سأشعر دومًا بأننا ندين لك امتنانًا شديدًا، وهكذا سيكون روبين، وربما كذلك شخص آخر غيرنا.»

«ومن عساه يكون هذا الشخص؟» هكذا سألتها، لكن من دون اهتمام كبير. إذ لم أكن مهتمًّا كثيرًا بامتنان العائلة لي.

أجابت جولييت: «لم يعُد الأمر سرًّا الآن. أقصد الفتاة التي سيتزوَّجها روبين.» ثم أضافت بنبرة استغراب: «ما الخطب يا دكتور جيرفيس؟»

كنا نمر بالبوابة التي تُفضي إلى ميدل تيمبل لين من جهة إمبانكمنت، وكنتُ قد توقَّفت تمامًا تحت الممر المقنطر ممسكًا ذراعها بيدي وأنا أنظر إليها بدهشة بالِغة.

كرَّرتُ قولتها: «الفتاة التي سيتزوجها روبين! لقد كنتُ أعتبر دومًا أن زواجَه منكِ أمر مفروغ منه.»

فهتفت بشيءٍ من نفاد الصبر: «لكنني أخبرتُك بكل وضوح أن الأمر لم يكن كذلك!»

أقررتُ بأَسًى: «أعلم أنكِ فعلتِ؛ لكنني ظننتُ ... أو في الواقع، تصورتُ أن الأمور ربما لم تسِر بسلاسة وأن ...»

فسألَت بسخط: «هل افترضتَ أنني إن كنتُ أهتمُّ لأمر رجل، وكان ذلك الرجل في ضائقة أو مِحنة، كنت سأتنصَّل من العلاقة أو أتظاهر بأننا مجرد صديقَين؟»

أجبتُها بسرعة: «أنا واثق من أنكِ ما كنتِ فاعلةً ذلك. كنتُ أحمق، معتوهًا ... بحق السماء، كم كنت معتوهًا!»

أقرَّت قائلة: «كان هذا بالتأكيد في غاية السخافة من جانبك»؛ لكن كان ثمة رقَّة في نبرتها أزالت كل مرارة تأنيبها لي.

وأردفت تقول: «كان سبب تكتُّمي أنهما خُطِبا في الليلة السابقة لإلقاء القبض على روبين، وحين عرف بالتهمة الموجَّهة إليه، أصرَّ على ألَّا نخبر أحدًا ما لم تُبرَّأ ساحته تمامًا، أو حتى ذلك الحين. كنتُ الشخص الوحيد المؤتمَن على سرهما، وإذ كنتُ قد أقسمتُ على الحفاظ على السرية، لم يكن بمقدوري بالطبع أن أخبرك؛ ولم أفترِض كذلك أن الأمر قد يُثير اهتمامك. فلماذا قد يُثير اهتمامك؟»

غمغمت أقول: «يا لي من أبله! ليتني كنت أعلم!»

فقالت: «ولو كنتَ تعلم، ما الفارق الذي كان من المُمكن أن يُحدثه ذلك لك؟»

سألتني جولييت هذا السؤال دون أن تنظر نحوي، لكنني لاحظت أن وجنتَها قد أصبحت شاحبةً قليلًا.

أجبتُها: «ليس الكثير. كنت سأتجنَّب أيامًا ولياليَ طويلة قضيتُها في تعاسةٍ وتأنيبٍ للذات من غير مُوجِب.»

عاودَت تسألني، وما زالت لم تنظر إليَّ: «لكن لماذا؟ ما الذي تؤنِّب نفسك عليه؟»

أجبتُها: «على الكثير، إن نظرتِ إلى موقفي المُفتَرَض. إن اعتبرتِ أنني الوكيل الموثوق لرجلٍ مغلوب على أمره ويتعرَّض لظلم شديد، رجل كانت مِحنته التي لا يستحقها تتطلَّب كل شهامة وسخاء؛ وإن اعتبرتِ أنني كنتُ مكلَّفًا بحماية وتعزية ومؤازرة المرأة التي كنتُ أعتبر أنها في حكم المخطوبة له؛ وإن اعتبرتِ فوق كل هذا أن أقع في غرامها قبل أن أُتم أربعةً وعشرين ساعة بعد التعرُّف إليها، فسترَين أنه كان هناك ما يستوجِب توبيخ نفسي عليه.»

كانت جولييت ما تزال صامتة، أو بالأحرى شاحبةً ومستغرقةً في التفكير، وبدا أنها تتنفَّس أسرع بكثيرٍ من المعتاد.

فأكملتُ أقول: «قد تقولين بالطبع إنه كان من واجبي الحذَر والاحتراس وأن أكتم الأمر وأحتفظ به لنفسي، وحينها لن يضارَّ أحد. لكن هذا ما كان يُشقيني. إذ كيف يمكن لرجل فكره مشغول طوال اليوم بامرأةٍ يثِب قلبه فرحًا في صدره عند قدومها، وحياته في غيابها فارغة — حياة فارغة يحاول ملْأها بأن يسترجع مراتٍ ومرات كل ما قالت ويتذكَّر

نبرتَها وصوتها ونظراتها وهي تُحدِّثه — كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يُبيِّن لها عاجلًا أو آجلًا أنه شغوف بها؟ وإن فعل ذلك، وهو ما لا يحقُّ له أن يفعله، فإن هذا يُعَد موتًا للواجب والشهامة والنزاهة.»

فقالت جولييت بنعومة: «أجل، أفهم الآن. أهذا هو الطريق؟» وصعدت بخفَّة الدرج المؤدي إلى فاونتن كورت، وتبعتُها بانشِراح صدر. بالطبع لم يكن هذا هو الطريق، وكان كِلانا يعرف هذا، لكن المكان كان هادئًا وساكنًا، وقد ألقت أشجار الدُّلْب بظلالها الوارفة على الساحة المرصوفة بالحصى. رمقتُها بنظرةٍ سريعة بينما كنَّا نسير على مَهَل نحو النافورة. كانت وجنتُها متورِّدة كالورود وعيناها مُطرقتَين، لكن حين رفعَتهما نحوي للحظة، رأيتهما لامعتَين ومتلألئتَين.

سألتها: «ألم تُخمِّني هذا من قبل؟»

أجابت بنبرة خفيضة: «بلى؛ خمَّنتُ هذا لكن ... لكن ظننتُ أنني كنتُ مخطئةً في تخميني.»

سِرنا لبعض الوقت من دون أن نتحدَّث حتى وصلنا إلى الطرف الأقصى من النافورة، حيث وقفنا نستمع إلى خرير الماء الهادئ ونشاهد العصافير وهي تتحمَّم عند حافة الحوض. وعلى مقربة منها اجتمعت مجموعة أخرى من العصافير بفرح وشرَه حول كسرات من الخبز نثرَها المُحسنون من قاطني منطقة تيمبل، وغير بعيد عنها وقفت حمامة تتبختر غافلةً عن العصافير المُغيرة وعن الطعام وأخذت تهدل بحنانٍ مغازلةً شريكها.

وكانت جولييت قد أرخت يدَها على أحد الأعمدة الصغيرة التي تحمل السلاسل المُحيطة بالنافورة فوضعتُ يدي على يدِها. فقلبت جولييت يدَها بحيث تُصبح يدي في راحتها؛ وهكذا كنَّا واقِفَين حينما مرَّ علينا سيدٌ مُسن، له مظهر مُتَحفِّظ ويوحي بأنه يعمل بمجال القانون، وصعد الدرج ومر بالنافورة. نظر السيد إلى الحَمَامَتين ثم نظر إلينا، وأكمل طريقه وهو يبتسِم ويهزُّ رأسه.

قلت: «جولييت.»

رفعت نظرها إليَّ بسرعة بعينَين متلألئتَين وابتسامة صافية شابها شيءٌ من الخجل. «نعم.»

«لماذا ابتسم ذلك السيد المُسن حين نظر إلينا؟»

فأجابت مخادعة: «لا أعرف.»

قلت: «كانت ابتسامتُه تنمُّ عن التأييد والاستحسان. أظنُّ أنه كان يتذكَّر أيام شبابه ويُباركنا.»

فقالت موافقة: «ربما. بدا مُسنًّا لطيفًا.» وحدَّقت بدلالٍ في الرجل المُدْبِر والتفتت نحوي مرةً أخرى. كان خدَّاها قد ازدادا تورُّدًا الآن، وفي أحدهما ظهرت غمازة زادته جمالًا.

في الحال سألتها، وهي تنظر إليَّ: «هلَّا سامحتِني، يا عزيزتي، على حماقتي الشديدة؟»

أجابتني: «لستُ واثقة. كان ما فعلتَه سخيفًا بحق.»

«لكن تذكَّري يا جولييت أني كنتُ أحبكِ من كل قلبي ... مثلما أُحبك الآن، وسأُحبك دائمًا.»

فقالت برقة: «يُمكنني أن أغفر لك أي شيءٍ حين تقول هذا.»

وعندئذٍ جاء صوت ساعة منطقة تيمبل من بعيدٍ معلنًا عن الوقت باحتجاجٍ لطيف. فتحوَّلنا بإحجامٍ شديد مبتعدَين عن النافورة التي نثرت علينا رذاذًا يبارك انصرافنا، وقفلنا عائدَين إلى ميدل تيمبل لين ومنه إلى بامب كورت.

همستُ، بينما عبرنا الممرَّ المُقنطر إلى الساحة الهادئة وغير المأهولة: «لم تقوليها، يا جولييت.»

ردَّت: «أحقًّا لم أفعل، يا عزيزي؟ بَيْدَ أنك تعرف، أليس كذلك؟ أنت تعرف ما بقلبي.»

فقلت: «أجل، أعرف، وهذا كل مُرادي.»

للحظةٍ وضعت جولييت يدَها في يدي وضغطت عليها بلُطف، ثم سحبتها؛ وعبرنا إلى الأروقة المُعمَّدة المسقوفة.

هنداوي